المكتبة المالكية

أزهار الرياض
في أخبار عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

(ت: ١٠٤١هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور علي عمر

الجزء الرابع

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

أزهار الرياض فى أخبار عياض

وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الرابع

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المقرى،احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تاليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمسانى ، تحقيق: على عمر
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
4 مج ، سم
تدمك : 6-498-341-977-978
1- المحدثون المغاربة
2-القاضى عياض ، عياض بن موسى بن عياض
أ- عمر،على (محقق)
ب- العنوان

ديوى:922.13

رقم الايداع: 16754



أقول: هذه الترجمة نذكر فيها نثره الفائق، ونظمه الرائق، قال الفتح في قلائده[1] - بعد أن حلاه بما قدمناه آنفا: وقد أثبت من كلامه البديع الألفاظ والأغراض، ما هو أسحر من العيون النجل والجفون المراض، فمن ذلك رقعة حملنيها تحيةً للرئيس أبي عبد الرحمن بن طاهر - رحمه الله وهي: عمادي أبا نصر، مَثْنى الوزارة ووحيد العصر، هل لك في مِنَّةٍ تفوت الحَصْر؟ تَخِفّ مَحْمَلاً، وتَبْلُغ أملا، وتُشْكَر قولا وعملا، شكرا تترنم به الحُدَاة ثقيلاً ورَمَلا، إذا بلغت الحضرة العلية مستلما[2]، ولقيت الطاهر ابن طاهر فخر الوزارة مسلما، وحللت من فنائه الأرجب حرما، ولمست بمصافحته ركن المجد يندى كرما فقف شوقي بعرفات تلك المعارف، وانسك شكري بمشاعر تلك العوارف، وأطف إكباري بكعبة ذاك[3] الجلال سبعا، وبَوِّئْ لودادي في مقر ذاك الكمال ربعا، وأبلغ عني بتلك الفضائل سلاما، يلتئم بصريح الحب التئاما، ويحسن عني بظهر الغيب مقاما، ويسير بأرجح الحمد إنجادا وإتهاما[4].

قال الفتح[5]: وله فصل من رسالة في جانبي: في علمك، سدد الله على[6] حكمك، ما جمعه فلان من جلائل، تشذ عن الحصر، وفضائل،

(١) انظر في ذلك: قلائد العقيان ص ٦٨٤.

(٢) في القلائد: «مُسَلِّمًا».

(٣) في الأصول: «ذلك» والمثبت رواية القلائد التي ينقل عنها المصنف.

(٤) ص ٦٨٤ - ٦٨٥ من القلائد.

(٥) قلائد العقيان، ص ٦٨٥.

(٦) الأصل: «علا» والمثبت من القلائد الذي ينقل عنه المصنف.

يعترف له بها نبهاء العصر، يقول، فيختلس العقول، ويعن، فيذهل الألباب ويَحِن[1]، إن نظم فعبيد أو لبيد[2] أو نثر فعبد الحميد أو ابن العميد[3] أو صال، فأبو نعامة[4]، أو أنال بن مامة[5]، وأن فاخر، فشجرة سيادة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء، وإن ذاكر، فبحر معارف لا تكدره الدلاء إلى همة تصفع هامة الثريا، وعزة تمتهن الفضل بن يحيى[6]، ولهجة تخرس العجاج، وبهجة ازرى بنصر بن حجاج[7]، ولو كنت ابن أبى هالة[8]، لما بلغت المنتهى له، على أنى لم أنبه لشأنه ذا جهالة، لكنه الكلام يطرد، والبداية حسبما ترد، واللسان ينطق ملء فيه، والجنان يرشح بما فيه.

قال الفتح[9]: وله فصل من رسالة راجع بها: وصلت لمعظمى قرب الجلال، وزهيت به رتب الكمال، وحامت على مشرع مجده العذب طيور الآمال، وغصت أفنية جنابه الرحب بوفود الإقبال. لا غرو - أعزك الله - أن من لاحظ من آثار فضلك الرائقة لحظة، أو حظى من سماع محاسنك الرائعة ولو بلفظة، أن تسير به همته فى لقائك واحدا، وتعتسف الطرق إلى ورد

(١) فى الأصل: «ويجن» بالجيم والمثبت رواية القلائد.

(٢) يعنى بهما: عبيد بن الأبرص، ولبيد بن ربيعة.

(٣) يقال: بدئت الكتابة بابن العميد، وختمت بابن العميد.

(٤) كناية قطرى بن الفجاء فى الحرب.

(٥) هو كعب بن مامة الإيادى، يضرب به المثل فى الجود، وفى المثل: «جارٌ كجار أبى داود» يعنون كعب بن مامة.

(٦) هو أبو العباس الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى.

(٧) هو نصر بن حجاج وكان أحسن الناس وجهًا.

(٨) ربيب النبى ﷺ.

(٩) قلائد العقيان، ص ٦٨٨.

جلالك وافدا، حـتى يشاهد الكمال لم يحـوج إلى نقص، وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم فى شخص.

قال الفـتح[1]: وله فصل من رسـالة: لابد - أعزك الله - لكل حين، من بنين، يُحَلّون عاطله، ويُجلون فضائله، ولكل مجال، من رجال، يقومون بأعبـائه، ويهيـمون فى كل واد بأنبـائه، ولئن كانت جـمرة الأدب خـامدة، وجذوته هامـدة، ولسانه حصيـراً، وإنسانه حسيـرا، فلن يخيله الله من هلال يطلع، فيشرق بسمائه بدرا، وزلال ينبع، فيـغدق بفضائه بحرا وشبل يشدو، فيزأر من غَابِهِ ليثا، وطل يبدو، فيمطر من ربابه غيثا.

قال الفـتح[2] - سامـحه الله: وخـرجنا لنزهة، فلمـا انصرفنا أصـاب غفارتى[3] شوك شقها، فلما وصلت موضـعى، أمر أن أبعثها إليه، مع أحد عبـيده المتصـرفين بين يديه، فلما كـان من الغد، تأخر صـرفها، وحـضرت الجمعـة، فكتبت إليه معـاتبا فى توقفهـا قد بقيت - أعزك الله - كـالأسير، ولقيت التـوحش بجناح كسير، إن أردت النهـوض لم ينتهض، وليت من لا يريش لم يهض، وقد غدوت من المقام، فى مثل السقام، فلتأمر بردها، لعلى أحضر الصـلاة وأشهدها، لا زلت سريا تطلق من يد الوحـشة بريا - إن شاء الله.

فراجـعنى: أدام الله - يا وليى - جلالك، وأبقى حليا فى جـيد الدهر خلالك، الغفارة عند من ينظر فيها، وقـد بلغت غير مضيع تلافيها، ويرجى تمامها قبل الصلاة وإدراكها، وتصل مع رسـولى وكأنما قد شراكها، وإن عاق

---

(1) قلائد العقيان، ص ٦٨٩.

(2) قلائد العقيان، ص ٦٩٠.

(3) الغفارة: رداء واسع يلبسه العلماء والأعيان.

عـائق، فليس مع صحـة الود مـضائق، والعـوض رائق لائق، وهو واصل، وأنت بقبوله مواصل، والسلام - ما ذر شارق، وومض بارق.

انتهى ما أورده الفتح من نثر القـاضى عياض - رحمه الله تعالى، وهو نقطة من بحر. ولنذكر بعض ما وقفنا عليه مما لم يذكره، فيقول:

قال ابنه من جملة ترسيله - رضـوان الله عليه - أنه تذاكر مرة مع جلة زعماء، وقـادة علماء، وسادة أدباء، تعاطوا بينهم كـأس الأدب، حتى ذهبت بهم فى التغلغل فيه كل مذهب، فتسابقوا فى ميدانه، وجرى كل ملء عنانه، إلى أن قصـدوا التعـجيز، وسـدوا باب المسامـحة والتـجويز، وقالـوا الغاية القصوى، المعـربة عن كل مدع فى الأدب دعوى، - أن نكتب رسـالة معربة المعانى رائقـة، ذات أصول ثابتة وفـروع باسقة، فيلحق بـين كل سطرين منها زيادة توافق معـانيها، ولا تخل بشئ من مـبانيهـا، فتطاول لها - رحـمه الله تعـالى عليه - وأزهار آدابه تنم، وقـال: أنا لها وكل مـهم، وعينت الرسـالة فكتب، وقد قدم بين يديها هذه القطعة:

قل للأمـاجـد والحديث شـجـون   مـا ضر أن شـاب الوقـار مجـون

الأبيات. وسـنذكرها فى نظمـه من هذا الباب - إن شـاء الله. قال فى آخرها:

وبعـثت الآن بهـا ليعـلم أننى   عـيـن الزمـان وسـره المكنون

ووصله - رحمه الله بما نصه:

فارتقب السادة الجلة، أدام الله عزهم، بثـبات قـدم عميـدهم، وأبقى عليهم ظله، عنـد مجاراتنا إلحاق الـكتاب، فكأنها كـانت منى دعوى توجب

الارتياب، وكان الفقيه أبو فلان صديقنا، أعرف بالقصد إلى الزيادة فى رسالة الوزير أبى القاسم بن الجد على إيجار ألفاظها، واندماج أغراضها، وجلالة قائلها، واعتدال أواخرها وأوائلها، فلم أقدم تلك العيشة شيئا على تسويدها، وتذييل برودها، وإن كان المتحكك بذلك الطود العظيم، كمرقع الوشى بالأديم، ولكن بحكم الاضطرار، وقصد الاختيار للاختبار، وطرقنى لصاحبها من الحادجث الكارث، ما شغل عن صقل وجودها، وأذهل عن توجيهها، وحين وجدت الآن فجوة، وأنست العيشة وإن لم تكن سلوة، وجهت بها شريطة رفع الدعوى، وامتحان البلوى، وصرف عين الانتقاد، وتحسين الظن والاعتقاد، وقد أعلمت على الزيادة بالحمرة، لتكون فصلا بين الكلامين وعبرة، ولم تمكنى مفارقة المنزل، مراعاة لحق من يقصد وينزل، وحذرا أن ينتقد، من لا يجد، فليكن الكل عندكم بالأمانة حتى نجتمع، والسلام عليكم يطول إعظاما لجلالكم ويتسع، ورحمة الله وبركاته.

قال جامع هذا التصنيف وفقه الله: وقد كتبت الزيادة بالقلم الغليظ من الحمرة، لتعذرها فى الوقت، وبالله التوفيق.

قرن الله - يا سيدى - مطالبك بالنجاح، ومآربك بالإسماح، وأجرى أحوالك على حكم الاختيار، وأورى زندك فى مساعى الأبرار، ولا زلت سعيد الأيراد والأصدار، معلى القداح، مؤتى الأمانى والاقتراح، وردنى - يسر الله أملك، وسدد قولك وعملك - كتب خطير، بل روض من الترف مطير، وخطاب أثير، بل مسك من الثناء نثير فوقه زهر الحسن، لا زهر الحزن، وهب عليه نسيم السرو، لا نسيم الجو، جاده صيب العقل، لا منبت البقل، فرتعت فى حديقة جده وهزله، وتمتعت برقيق لفظه وجزله، ونزهت

ناظري في رائق ألفاظه، ووجهت خاطري لقبلة معانيه وأغراضه، ونزهت قولي وعملي عن رده واعتراضه، لا جرم أنه انفك لي منه معجون، حشوه مجون، وطبيخ ضمنه توبيخ، إلا أن حقي من تركيبه، وذوقي لمعسول طيبه، اعترضت دونه علل، ولم يبح لي منه ورد ولا علل، وأجدر أن يكون لي وله نبأ عجيب، لو ساعده من طبيعتي مجيب، لكنه مجه مزاجي، ولم تحمله أمشاجي، ولا غرو أن يزل طبيب ولا يساعد حبيب، إن كلف هذا ما ليس في وسعه، وطولب بما يعلم عنه ضيق ذرعه، وتعاطى ذلك الآخر لرقيه لما لا يجيب، أو إذا لم يصف له العلة لبيب، وإن عذرك بالجهل بصفة حالي لبين، كما أن شكرك في مواصلتي ومداخلتي متعين، فلئن لم تجدني في حاجتك رفيقا، فقد اتخذتني أخا شقيقا، وإن لم أكن لك بحكم الحال مسعدا، فقد قمت بألحان شكرك مغردا، ولئن كان ظنك سهما أشوى، ونجما أخوى، لقد أصاب موضع الشكوى، ومكان البلوى، وبودي، لو كان أربك عندي، حتى أبادر به إليك، وأسقط به سقوط الندى عليك، وأسلم أعنة رغباتك في يديك. أجل، ولو كنت ممن ينبسط في مقر ذلك الجلال، بحكم الإدلال، لاستعملت في الموعد، طاقة المجد المجتهد، ولم أصل العود، والعود أحمد، وما كنت أريم إلا بلبانتك عند ذاك الحريم، وتخلقت في مطلبك الكريم، أخلاق الغريم، ولكني من التبسط بمعزل، وفي أبعد منزل، وعلى حالي لسائلي في ذلك، ينتهي إلى حضرة جلالك، مبادرة إلى واجب حقك وكمالك، ومساعدة لمنزعك في جهتك ومرمى آمالك، حتى أبلغ نفسي هنالك عذرا، وأقضي نذراً، وأرى لك صرف وجه المعول، على الشفيع الأول، فتخاطبه في الغرض موجزا، وتلاطفه مقصدا ومرتجزا، وللعدة الجميلة مستنجزا، والله يسني أوطارك، ويحمي أقطارك، والسلام عليك عميما جزيلا، يصحبك رسيلا ونزيلا. انتهى ما ذكره ولده من هذه الرسالة.

وقد كتبته من أصل فيه بعض تصحيف وتحريف، وأثبته هنا حتى يفتح الله فى مقابلته بأصل جيد، يصحح منه خلله، وتشفى علله، سهل الله وجوده، بجاه سيدنا محمد ﷺ.

ومن نثره - رحمه الله - رسالة بديعة، كتب بها إلى روضة سيد المرسلين وعمدة الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وعلى آله وأصحابه المهتدين، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين. نصها:

إلى سيد ولد آدم، وشفيع العالم، البشير النذير، السراج المنير الرسول الكريم، الرءوف الرحيم ذى الخلق العظيم، والفضل الباهر الجسيم ودعوة أبيه إبراهيم وبشرى المسيح، وابن الذبيح، المنبأ - وآدم بين الجسد والروح، الصادق الأمين، الحق المبين المطاع عند ذى العرش المكين، نبى الرحمة، وهادى الأمة والعروة الوثقى والعصمة، وقدم الصدق، ودار العلم والحكمة، وسيلة الوسائل، وثمال اليتامى والأرامل، حبيب الله وخليله، ومصطفاه ورسوله، المجتبى المنتخب من خيار الأخيار، وصميم الحسب النضار، الطاهر المطهر المختار، أبو القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، منتهى الشرف ومنقطع الفخار - من الشائق إلى زيارته، الراجى فى دعوته، المدخرة فى شفاعته، المؤمن بنبوءته ورسالته، المعترف بتقصيره فى طاعة الله وطاعته، عياض بن موسى.

بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلوات وأزكى التسليم، على المصطفى محمد نبيه الكريم، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وشفيع المذنبين، وقائد الغر المحجلين، وأكرم الآخرين والأولين، ورسول رب العالمين، ووسيلتهم إليه أجمعين، النور الساطع، والشفيع المشفع الشافع، صاحب

الحوض المورود، والمقـام المحمـود، والوسيلة والفضـيلة والكوثر، ورافع لواء الحـمد يوم المحـشـر، المرسل لى الأسود والأحـمـر، الآتى بالآيات والنذر، المتحدى بالمعجزات جميع البشر، المبعوث بجوامع الكلم، الشاهد على جميع الأمم، منير الأفئدة بأنوار الحكم، الذى شـرح صدره، فملئ إيمانا وحكمة، من لم يجـعل الله به علينا فى الدين من حـرج، وأسرى به من الفـرش إلى العرش وعـرج واستسقـى الغمام بوجهـه فهمع، وانشق القـمر لتصـديقه ثم اجتمع، وعاد نور الشمس بدعائه لشروقه بعد الأفول ورجع، وانفجر الماء من بين أصابعه ونبع، وسـجد البعير لهيـبته وخضع، وسكن ثبير لركـضته حين تزعـزع، وحن الجذع حنين الـعشـار لفرقـتـه وخشع، المؤيد بروح القـدس جبريل، المبـشر به فى التوراة والإنجيل، المنزل عليه مـحكم الكتاب والتنزيل، الصادع بالحق كما أمر، المصدق فى جمـيع ما أخبر، المظلل بالغمام، الممدود بالملائكة الكرام، المنصور بالرعب، المطلع على الغـيب، ومن أقسم الله بعمره ورفع ذكره مع ذكره، عليك من صلواتك الله وسـلامه، وزلف بركاته وتحف إكرامه، كفـاء محلك الشريف لديه وقدره، وعداد نجوم الأفق وقطره، وجزاء ما كابدت وقاسيت فى إظهـار دين الله ونصره، وثواب ما دعوت إلى صراط الله وامتثال أمره.

وبعد: فـإنى كتبت إليك، صلى الله علـيك، يا خاتم الرسل، وهادى أوضح السبل، ورحـمة العـالمين، ونعمة الله على المؤمنـين، وشارح القلوب والصدور، ومـخرجـها من الظلمات إلـى النور، فإنى عبـد من أهل ملتك، المتـحملين لأمـانتك، منهاجك وشـرعتك، والملتـزمين للحنيـفيـة ملة أبيك إبراهيم، المؤملين النجـاة بالدعوة دعوتك التـى خبأتهـا شفاعـة لأمتك، ممن

أشرق فؤاده بشعاع أنوارك، واهتدى قلبه بعلم منارك، وتاه عقله بحسرة فوات رؤيتك وإبصارك، وهام قلبه فى حبك وتوفير عظيم مقدارك، وعدته العوادى عن التشفى بقصد قبرك ومزارك، وقطعت به القواطع عن التشرف بمشاهدة مشاهدك الشريفة وآثارك، مصافح بالإيمان بك وتصديقك، شاهد الجوارح بالتقصير عن أداء حقوق الله وحقوقك، فهو طليح ذنوب ومآثم، وأسير تباعات وخل آثم، أثقلت ظهره مع العاصين خطاياه وآثامه، وانقطعت فى التمنى مع العادين لياليه وأيامه، وقصرت به عن جد المخلصين أوزاره وأجرامه، فلا رجاء له إلا فى عفو الله واستشفاعك، ولا خلاص له إلا بالتعلق بحقوقك يوم يكون آدم ومن ولد تحت لوائك ومن أتباعك، فيما محمداه، طال شوقى إلى لقائك، ويا أحمداه، ما كان أسعدنى لو متع المسلمون ببقائك، ويا نبياه، عليك منى أفضل الصلوات والبركات والتسليم. ويا حبيباه، اذكرنى عند ربك، فى مقامك المحمود الكريم، ويا شفيعاه، اشفع لى ولوالدى فى ذلك الموقف العظيم، اللهم إنى أسألك بحقه عليك الذى آتيته، وبقسمك بعمره الذى شرفته به وفضلته، وبمكانه منك الذى اخصصته واصطفيته، - أن تجازيه عنا بأفضل ما جازيت به نبيًا عن أمته، وتؤتيه منا الفضيلة والوسيلة والدرجة الرفيعة فوق أمنيته، وتعظم عن يمين العرش نوره، بما يوريه من قلوب عبيدك، وتضاعف فى حضرة القدس حبوره، بما قاسى من الشدائد فى الدعاء إلى توحيدك، وأن تجدد عليه من شرائف صلواتك، ولطائف بركاتك، وعوارف تسليمك وكراماتك، - ما تزيده به فى عرصات القيامة إكراما، وتعليه به فى عليين مستقرا ومقاما، اللهم وأطلق لسانى بأبلغ الصلاة عليه وأسبغ التسليم، واملأ جنانى من حبه وتوفية حقه العظيم، واستعمل أركانى بأوامره ونواهيه فى النهار الواضح

والليل البهيم، وارزقنى من ذلك ما يبوئنى جنة النعيم، ويشعرنى رحماك وفضلك العميم، ويقربنى إليك زلفى فى ظل عرشك الكريم، ويحلنى دار المقامة من فضلك، ويزحزحنى عن نار الجحيم، ويقضى لى بشفاعته يوم العرض، ويوردنى مع زمرته على الحوض، ويؤمننى يوم الفزع الأكبر، يوم تبدل الأرض غير الأرض، وارفعنى معه فى الرفيق الأعلى، واجمعنى معه فى الفردوس وجنة المأوى، واقسم لى أوفر حظ من كماله الأوفى، وعيشه المهنى الأصفى، واجعلنى ممن شفى غليله بزيارة قبره وتشفى، وأناخ ركابه بعرصات حرمك وحرمه قبل أن يتوفى، ثم السلام الأحفل الأكمل مرددا، عدد القطر والحصى كثرة وعددا، عليك يا نبى الهدى، المنقذ من الردى، وعلى ضريحك المقدس سرمدا، ويصعد إلى عليين مع روحك صعدا، ويمده رضوان الله ورحماه مددا، ما تطارد الجديدان وتطاول المدى، ورحمة الله وبركاته أبدا، تحية أدخرها عهدا عندك وموعدا، وأجدها - إن شاء الله تعالى - لعقبات الصراط معتمدا، وفى عرصات الفردوس معهدا، وأخص بأثرها الخليفتين ضجيعيك فى تربك، وأخص الناس فى محياك ومماتك بقربك، وكافة المهاجرين والأنصار وعامة صحبك، الذين عزروك ونصروك، وآووك ووقروك، وكان بعضهم لبعض ظهيرا، والطيبين ذريتك، والطاهرات أمهات المؤمنين وأهل بيتك، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

أقول: هذا مقام طالما طمحت إليه همم الرجال، وتسابقت جياد أفكارهم فى مضماره بالروية والارتجال، وسارت أرواحهم مع الرفاق، - وإن أقامت الأشباح، وطارت قلوبهم بالأشواق، ولم لا وهو سوق تعظم فيه الأرباح!

فممن حاز فى ذلك قصب السباق، وانتشى من حمياه، وأفنى عمره فى اصطباح واغتباق، - ذو الوزارتين ابن أبى الخصال، عليه من الله رحمة دائمة الاتصال، فإنه كتب إلى المقام النبوى، والحجرة الشريفة، - لا حرمنا الله من تفيؤ ظلالها الوريفة، بما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله، إلى الرءوف الرحيم، الرسول الكريم، ذى الخلق العظيم، والحسب الصميم، والصفح الجميل، والمن المربى على التأميل، صريح الصريح، ورقوء دم الذبيح، المخصوص بالمقام المحمود، والحوض المورود، خطيب الأنبياء وإمامهم فى اليوم المشهود، المكين الأمين، الذى ليس على الغيب بضنين، النازل عن خير الظهور إلى خير البطون، والمتردد من الأب الأقصى إلى الأب الأدنى بين كل مصونة ومصون، الذى تسلمه الآتى عن الماضى أمانة حملها من كل سلف خياره، ونورا عرضت فى جباه السؤدد سيماه وآثاره، إلى أن أذن الله سبحانه، فظهرت أسراره الكامنة إليه - صلوات الله عليه - الطاهرة آمنة، الذى جعلت له الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت له الغنائم وكانت حجرا محجورا، ونصر بالرعب شهورا، وأوتى جوامع الكلم فانتظمت لفظته سطورا، وبعث إلى الأحمر والأسود فضلا كان له مذخورا، ونسخت بملته الملل إما مؤمنا وإما كفورا، وأنزل عليه القرآن هدى ونورا فأحيا نفوسًا وشفى صدورا، الذى وجبت نبوءته وستر الغيب عليه منسدل، وآدم - صلوات الله عليه - فى طينته منجدل، لبنة التمام، التى انعقد بها التأسيس، ويتيمة النظام، التى لها ادخر الوضع النفيس، أمام وفد الرحمن، وفرط وراد الإيمان الذى نكلت عن بسالته الضراء، وسلمت له فى الخفر العذراء، واعترفت

لواقح الرياح ليمينه، واغترفت لوائح الصباح من نور جبينه، الآخذ بالحجرات، الوارد بالمعجزات، الذى سلم عليه الحجر، والتم إليه الشجر، وانشق لبرهانه القمر، وحن إلى حضرته الجذع المنقعر، وأنبأه بسورته السم المستعر، ونبع من بين أنامله الماء، وأجابت بدعوته ثم انجابت السماء أبو القاسم خيرة الخير، وسيد البشر، المصطفى من أكرم العتر، جاشم المجاشم، وذؤابة بنى هاشم، هامة العرب، ومنتهى فخر الأبعد والأقرب، الحاشر العاقب، ذو المجد الثاقب، وزهر المآثر والمناقب، الذى فاز المحسنون بطاعته، واستنقذ المذنبون بشفاعته. ﷺ حساب ما لديه، وكفاء ما يدنى منه ويقرب إليه، من عتيقه، المعلن بتصديقه، الداعى فى قربه، المستشفى بريح تربه، المستشفع به إلى ربه، المؤمن بما آمن به من رسله وكتبه. فلان. كتبته يا واضع الإصر والأغلال، ورافع رايات الهدى على الضلال، ومبدلنا بالظل من الحرور، ومخرجنا من الظلمات إلى النور، ومروينا من الرحيق المختوم، والحوض الذى آنيته بعدد النجوم، ومحظينا بالنظر إلى الحى القيوم عن دمع يسفح، ونفس يلفح، وصدر بأشواقه ملآن يطفح، وعرف عليك من الصلاة والسلام ينفح. وأسف إليك يتلهب، وزفرة بأحناء الضلوع تجىء وتذهب، وحشاشة بعوائق البعد عنك تنهب، وكيف لا أقضى حزنا، ولا أرسل دموع الوجد والتلهب مزنا، أم كيف ألذ حياة، وأؤمل نجاة، ولم أعبر إلى زيارتك لجة ولا موماة، ولا أخطرك فى قصدك نفسا أنت منقذها ومنجيها، ولا مثلت بمعاهدك المشهرة، ومشاهدك المطهرة أحييها، ولا نزلت عن الكور كرامة للبقعة المقدسة التى ثوبت فيها. فوا أسفا، ألا أخب إلى ثراك مقبلا، ولا أكب على مثواك مستقبلا، وألا أصافح من تلك العرصات، مدارس الآيات، ومهبط الوحى والمناجات، حيث قضى فرض الصوم والصلوات، وحيث

انتشر التزيل، وسفر بالوحى جبريل، وبرزت خبيئة الدهر، وأورثت بليلة خير من ألف شهر. أسفا لا يمحو رسمه، ولا يعفو ندبه ورسمه، إلا الوقوف بحرم الله وحرمك، والتوسل هناك إلى كرمه بكرمك. اللهم كما جعلتنى من أمته، واستعملتنى بسنته وشوقتنى إلى آثاره، وشغلت قلبى بتذكره وتذكاره وأريتنى تلك المعالم المنيفة خيالا، وخططت منها فى الضمير مثالا، وأريتنيها ملء السمع والفؤاد جمالا، فاشف بمرآها بصرا ضريرا، وبسناها يرتد بصيرا. واجعل لى فيها معرسا ومقيلا، وضع عنى من شوقها إصرا ثقيلا. اللهم أعدنى بالقرب على بعده، واجعلنى من المقتفين لهداه من بعده، واغمرنى بين قبره ومنبره، ومبدأه ومحضره، ومصلاه ومنحره. وأنخ هذه الشيبة، بباب بنى شيبة. واغسلها هناك من ذنوبها وخطاياها، وعج إلى خاتم أنبيائك صدور مطاياها، وهب لى عزمة من أطاع، وبسطة من استطاع. وادفع عنى الضرر والضرورة، ولا تمتنى حلس البيت صرورة، لو أوتيت يا رسول الله سولى، لسبقت إليك كتابى ورسولى لكن قل الوفر، واستقل السفر، وغادرونى حرضا، ولسهام الوجد والأسى غرضا. أتبعتهم نفسا لا يؤوب، وقلبا يستخفه القلق والوثوب، فأتشبث بهم تشبث الأسير بالطليق، وألحظهم لحظ السقيم للمفيق. فلم أملك يا رسول الله، إلا رقعة تشكو بث التبريح، وتحية خفيفة المحمل طيبة الريح، تتأرجح - يا رسول الله - بأرجائك، وتتضرج، إلى قبولك ورجائك، فأتوسل بك - يا رسول الله - إلى مصطفيك بالرسالة والوسيلة، ومختصك بالدرجة الرفيعة والفضيلة، ومؤتمنك على إقامة حقه، ومبتعثك بالنور والهدى إلى جميع خلقه، ليسعدنى بجوارك، ويكرمنى بحلول دار هجرتك وأنصارك. وأفرغ بعد حقوقه لحق من حقوقك، وألم بصديقك وفاروقك، وأعرج على الصهرين، أبى عمرو ذى

النورين، وأبى السبطين: الحسن والحسين، وأندب المقتول، وأعـزى البتول، وأوقف بحـواريك المودود، وبأسـد الأسـود، وبابن عـبيـد الله ذى الجـود، وبالأمين حق الأمـين، وبقريع دهره فى التـقى والدين، وبسعيـد ذى الفضل المبين، وأقـضى حق الأمهات. والأزواج الطاهرات، وسـائر أهل الكرامات، وأتقرى منازل السعداء، ومـشهد سيد الشهداء وأدعو ربك، فى جـبل أحببته وأحبك، وأحـط بوارث الرأى والراية، وصاحب السـقيـا والسقايـة، وحائز العقـبى والغاية، وأعـتمـد عصـمة الهلاك، وأبـا أبى الأملاك، حبـر العلم والتأويل، وفاتح أغلاق التنزيل، وبحـر الندى الجزيل، طالعتك يا رسول الله - بنيـتى، وأنزلت بك أمنيتى، وغـير عـزيز على من شفـعك يوم القيـامة، وأقطعك دار المقـامة، وأعطاك لواء الحـمـد والكرامة، أن يجـمع لى بك بين الشفاعـتين، ويؤتينى فى الدنيا بلقيـاك، وفى الآخرة بسقيـاك، - الحسنيين، اللهم بلغ عنى الأمين، والرسول القوى المكين، ما أظهـره من محبته وأبطنه، وأسره وأعلنه، اللهم أشـهد بصلاتى عليه وسـلامى، ومحبتى فـيه وإلمامى. وصل اللهم عليـه وعلى أصحابه أعـلام الإسلام، ومصـابيح الظلام، وعلى أهل قرباه، ومن نصره وآواه. وعلى أزواجه الصالحات، العابدات السائحات، صـلاة تبـارى وتفـاوح ثناءهم، وتغـادى وتراوح فناءهم، يتـضـوع شـذاها بقبورهم، ويسطع نشرها إلى يـوم نشورهم، مشفوعا عبقـها بالدوام والتمام، إلى دار السلام. ثم سلام الله عـدد خلقه، ورضى نفسه، على نبى رحـمته، المغفـور له ما تقـدم وتأخر من ذنبه، ورحـمة الله وبركاته، وأنـهاره وجناته، وروحه وريحانه، ومغفرته وضوانه، وسلم تسليما كثيرا.

انتهى ما كـتبه ذو الوزارتين ابن أبى الخصال عن نفسـه للمحل الشريف النبوى.

ولنذكر رسالة كتبها - رحمه الله - عن رجل من أهل قرطبة، يقال له عبد الله بن عبد الحق الصيرفى، وكان عليل الجسم، ولما وصلت رسالته القبر الشريف، برئ من زمانته ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد.

إلى البشير النذير، والسراج المنير، المخصوص بالتعزير والتوقير، والبيت المقدس بالتطهير. خاتم النبئين، وسيد المرسلين، والشفيع إلى رب العالمين، من عتيق هداه، وزائره بمحبته وهواه، المستكشف ببركته لبلواه، المستشفع بشفاعته فى دنياه وأخراه، - فلان.

كتاب وقيذ من زمانته مشفى
بقبر رسول الله أحمد مستشفى
له قدم قد قيد الدهر خطوها
فلم يستطع إلا الإشارة بالكف
ولما رأى الزوار يبتدرونه
وقد عاقه عن قصده عائق الضعف
بكى أسفا واستودع الركب إذ غدوا
تحية صدق تفعم الركب بالعرف
فيا خاتم الرسل الشفيع لربه
دعاء مهيض خاشع القلب والطرف

عـتيـقك عـبـد الله ناداك ضارعـا
وقد أخلص النجوى وأيقن بالعطف
رجاك لضـر أعجـز الناس كشـفه
ليـصدر داعيـه بما شاء من كـشف
لرجل رمى فيـها الزمان فقـصرت
خطاها عن الصف المقـدم والزحف
وإنى لأرجـــو أن تعـــود ســـوية
برحمة من يحيى العظام ومن يشفى
وأنت الذى نرجـوه حـيـا وميـتـا
لصرف خطوب لا تـريع إلى صرف
عليـك سـلام الله عــدة خلقـــه
وما يرتضـيه من مـزيد ومن ضعف

ومن سلك هذا الوادى، وأرسل - إذ غلبه الشوق - دمـوعه الغوادى، ذو البيان الذى قل له الموازى، الشيخ أبو زيد الفـازازى، فإنه كتب إلى الحرة الطيبة، على ساكنها أفضل السلام والصلوات الواكفة الصيبة، بما نصه:

يا ســـيــد الــرسل المكين مـكانه ومـقـدمـا وهو الأخـيـر زمـانه
والمصطفى المخـتـار من هذا الورى فـــمـحله عـــالى المحل وشـــأنه
ومن النبـوءة والـطهـارة والهـدى شـــرف حـــواه فـــؤاده ولســـانه

عنوان طرس الأنبـيـاء وخـتـمـهم والطرس يـكمل حـــسنه عنـوانه

فــالدهر خلق أحــمـد إصـبـاحـه والخلق جــفن أحـــمــد إنســـانه

ناداك عـــبــــد أخــــرته ذنـوبه والشـــوق تـلفح قلبـــه نـيـــرانه

وفــدت عليك ركاب أرباب التـقى والمـذنـب الخـطاء كـف عـنـانـه

لما تخـلـف للتـــخلـف مـــذنبــا في المـذنبــيــن وغــــره إمكـانه

كـــتب الكتــاب لعلـه إذا لم يزر باللـحظ قـــبـــرك أن تزور بـنانه

ووراء أضـــلاعى فـــؤاد قـــيــــده ألف الذنوب وســـجنه أشـجـــانه

لكن حــبك شـــافع ومـــشــفع يغـــشى مـــحبــك يمنه وأمـــانه

وعليـك يا خـيـــر الأنام تحــيـــة كـالروض صـافح روحـه ريحـانه

ممن يـزورك خطه وكــــلامـــــه إن لم يزرك لـذنبـه جـثـمـــانه

وممن بلغ فى هذا غاية الآماد الكاتب ابن الغمـاد، فإنه قال يتشوق إلى ذلك الجناب المنيع، ويترجى التيسير وحسن الصنيع:

شـوقى إلى خـيـر الخلق مـتـصل يا ليت شعرى هل أدنو وهل أصل

وهل أزور ثراه وهو خــيـــر ثرى اســتنشق المسـك منه ثم اكـتـحل

وهل أرى روضـة حل الكمال بهـا من كل أرض إليـهـا تجـهـد الإبل

ومنها:

فى كل عـــام أرجى زورة مــعكم

فـتنهـضـون وشـانـى دونكم ثقل

لو خف ظهرى لكان الجسم مرتحلا
لكن قلبى أمام الركب مرتحل

يحدو به وجده والشوق سائقه
وكيف يدنو كلال منه أو ملل

واحسرتاه فاز غيرى بالوصال إلى
أرض الحبيب ودونى سدت السبل

متى ينادى بى الحادى يبشرنى
بشراك -يا مغربى- انزل فقد نزلوا

انزل بطيبة طاب العيش قد ظفرت
به يداك فلا خوف ولا وجل

عبد له أنا إن نادى وبشرنى
وأنت حر إذا بلغت يا جمل

قلبى بحب رسول الله مشتغل
يا ويح قلب له عن حبه شغل

انتهى كلام ابن الغماد رحمه الله تعالى.

وممن أتى فى هذا الباب بما أربى عرفه على كل طيب، ذو الوزارتين لسان الدين أبو عبد الله ابن الخطيب، صَبّ الله عليه شآبيب الرضوان والمغفرة، فقد كتب للروضة النبوية رسالتين عن السلطانين أبى الحجاج يوسف، وابنه الغنى بالله أبى عبد الله محمد بن السلطان ابن نصر، كل واحدة منهما متبلجة الصباح مسفرة نص الأولى:

إذا فـاتنى ظل الحـمى ونعـيـمـه
فحسب فؤادى أن يهـب نسيمه[1]

ويقـنعـنى أنـى به مـــتكـنف
فزمـزمه دمـعى وجسـمى حطيـمه

يعود فؤادى ذكـر من سكن الغضا
فـيقـعـده فوق الفـضـا ويقـيمـه

ولم أر شـيئـا كـالنسيم إذا سـرى
شفى سـقم القلب المشوق سقيـمه

نعلل بالتـذكـار نفـسا مـشـوقـة
نديرعلـيـهـا كـأسـه ونديمـه

ومـا شـفنى بالغـور قـد مـرنح
ولا شاقنى من وحش وجـرة ريمه

ولا سـهـرت عـينى لـبـرق ثنيـة
من الشـغر يبـدو مـوهنا فأشـميـه

برانى شـوق للنـبى مـحـمـد
يسـوم فـؤادى برحـه ما يسـومـه

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٥٤.

ألا يا رســول الله[1] ناداك ضــارع

على النأى محظوظ الوداد سليـمه

مـشـوق إذا مـا الليل مـد رواقـه

تهم بـه تحت الظلام هـمـــومـــه

إذا حديث عـنك جاءت به الصـبا

شجـاه من الشوق الحـثيث قـديمه

أيهــجر بالنجـوى وأنت سمـيعــها

ويشـرح ما يـخفى وأنت علـيمـه

وتعـوزه السـقـيـــا وأنت غـيــاثه

وتتلفـه الشـكوى وأنت رحـيـمـه

بنورك نور الله قـد أشــرق الهـدى

فـأقـــمــاره وضــاحـة ونجــومـه

لك أنهل فضل الله فى الأرض ساكبا

فـــأنواؤه ملتــفـــة وغـــيـومـــه

ومن فوق أطباق السماء بك أقتدى

خليل الذى أوطـاكـهـا وكليـمـه

لك الخلق الأرضى الذى جل ذكره

ومـجد فى الذكـر العظيم عظيمـه

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «يا رسول إله» وصوابه من نفح الطيب.

يجل مـدى علياك عن مـدح مادح

فـموسـر در القـول فيـك عديمـه

ولى - يا رسول الله - فـيك وراثة

ومـجدك لا ينسى الذمـام كريمـه

وعندى إلى أنصـار دينك نسـبة

هى الفخر لا يخشى انتقـالا مقيمه

وكـان بودى أن أزور مـبـوأ

بك افـتـخـرت أطلاله ورسـومـه

وقد يجـهد الإنسان طرف اعتـزامه

ويعـوزه من بعـد ذاك مـرومـه

وعـذرى فى تسويف عـزمى ظاهر

إذا ضاق عـذر العزم عـمن يلومه

عدتنى بأقصى الغرب عن تربك العدا

جـلالقـة الثغـر الغـريب وروم

أجـاهد مـنهم فى سـبـيـلك أمـة

هى البحـر يعيى أمـرها من يرومه

فلولا اعـتناء منك يا ملجـأ الورى

لريع حـمـاه واسـتبـيح حـريمـه

فلا تقطع الحبل الذى قد وصلته
فمجدك موفور النوال عميمه

وأنت لنا الغيث الذى نستدره
وأنت لنا الظل الذى نستديمه

ولما نأت دارى وأعوز مطمعى
وأقلقنى شوق يشب جحيمه

بعثت بها جهد المقل معولا
على مجدك الأعلى الذى جل خيمه

وكلت بها همى وصدق قريحتى
فساعدنى هاء الروى وميمه

فلا تنسنى يا خير من وطئ الثرى
فمثلك لا ينسى لديه خديمه

عليك سلام الله ما ذر شارق
وما راق من وجه الصباح نسيمه

وإلى[1] رسول الحق، إلى كافة الخلق وغمام الرحمة الصادق البرق، الحائز فى ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء. شفيع أرباب الذنوب،

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٥٦.

وطبيب أدواء القلوب، ووسيلة الخلق إلى علام الغيوب: نبى الهدى الذى طهر قلبه، وغفر ذنبه، وختم به الرسالة ربه، وجرى فى النفوس مجرى الأنفاس حبه، الشفيع المشفع يوم العرض، المحمود فى ملأ السماء والأرض، صاحب اللواء المنشور، يوم النشور، والمؤتمن على سر الكتاب المسطور، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور، المؤيد بكفاية الله وعصمته[1]، الموفور حظه من عنايته ونعمته، الظل الخفاق على أمته. من لو حازت الشمس بعض كماله ما عدمت إشراقا، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقا. فائدة الكون ومعناه، وسر الوجود الذى بهر الوجود سناه، وصفى حضرة القدس الذى لا ينام قلبه إذا نامت عيناه. البشير الذى سبقت له البشرى، ورأى من آيات ربه الكبرى ونزل فيه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ ... ①﴾ [الإسراء]، من الأنوار من عنصر نوره مستمدة، والآثار تخلق وآثاره مستجدة، من طوى بساط الوحى لفقده، وسد باب الرسالة والنبوة من بعده، وأوتى جوامع الكلم فوقفت البلغاء - حسرى - دون حده الذى انتقل فى الغرر الكريمة نوره، وأضاءت لميلاده مصانع الشام وقصوره، وطفقت الملائكة تحييه وفودها وتزوره، وأخبرت الكتب المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته. وأخذ عهد الإيمان به على من اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته. المفزع الأمنع يوم الفزع الأكبر، والسند المعتمد عليه فى أهوال المحشر، ذو المعجزات التى أثبتتها المشاهدة والحس، وأَقَرَّ بِهَا الجن والإنس: من جماد يتكلم، وجذع لفراقه يتألم، وقمر له ينشق، وحجر يشهد أن ما جاء به هو الحق، وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس، وماء من بين أصابعه يتبجس، وغمام باستسقائه يصوب، وطوى بصق فى أجاجها فأصبح ما ؤها وهو العذب الشروب. المخصوص بمناقب الكمال وكمال المناقب المسمى بالحاشر العاقب، ذو المجد البعيد المرامى

---

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «وعصته» وصوابه من نفح الطيب.

والمراقب، أكرم من رفعت إليه وسيلة المعترف المغترب، ونجحت لديه قربة البعيد المقترب. سيد الرسل، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الذى فاز بطاعته المحسنون. واستنفذ بشفاعته المذنبون، وسعد باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ﷺ ما لمع برق، وهمع ودق، وطلعت شمس، ونسخ اليوم أمس:

مِنْ عَتِيق[1] شفاعته، وعبد طاعته، المعتصم بسببه، المؤمن بالله ثم به، المستشفى بذكره كلما تألم، المفتتح بالصلاة عليه كلما تكلم، الذى إن ذكر تمثل طلوعه بين أصحابه وآله، وإن هب النسيم العاطر وجد فيه طيب خلاله، وإن سمع الآذان تذكر صوت بلاله، وإن ذكر القرآن استشعر تردد جبريل بين معاهده وخلاله. لإثم تربه، ومؤمل قربه، ورهين طاعته وحبه، المتوسل به إلى رضى الله به، يوسف بن إسماعيل بن نصر.

كتبه إليك يا رسول الله والدمع ماح، وخيل الوجد ذات جماح، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر، وانكسار لا يتاح له إلا بدنو مزارك الجبر، وكيف لا يعيى مشوقك الأمر، وتوطأ على كبده الجمر، وقد مطلت الأيام بالقدوم على تربتك المقدسة اللحد، ووعدت الآمال ودانت بإخلاف الوعد، وانصرفت الرفاق والعين بنور ضريحك ما اكتحلت، والركائب إليك ما رحلت، والعزائم قالت وما فعلت، والنواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تسرح، وطيور الآمال عن وكور العجز لم تبرح، فيا لها من معاهد فاز من حياها، ومشاهد ما أعطر رياها، بلاد نيطت بها عليك التمائم، وأشرقت بنورك منها النجود والتهائم، ونزل فى حجراتها عليك الملك، وانجلى بضياء

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٦١.

فرقانك فيها الحلك، مدارس الآيات والسور، ومطالع المعجزات السافرة الغرر، حيث قضيت الفروض وحتمت، وافتتحت بسورة الوحى وختمت، وابتدئت الملة الحنفية وتممت، ونسخت الآيات وأحكمت.

أما والذى بعثك بالحق هاديا، وأطلعك للخلق نورا باديا، لا يطفئ غلتى إلا شربك، ولا يسكن لوعتى إلا قربك، فما أسعد من أفاض من حرم الله إلى حرمك، وأصبح بعد أداء ما فرضت عن الله ضيف كرمك، وعفر الخد فى معاهدك ومعاهد أسرتك، وتردد ما بين دارى بعثتك وهجرتك. وإنى لما عاقتنى عن زيارتك العوائق - وإن كان شغلى عنك بك، وعدتنى الأعداء فيك عن وصل سببى بسببك، وأصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه، وعدو تتكاثف أفواجه، ويحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه، فى طائفة من المؤمنين بك وطنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم، ورفعوا إلى مصارختك رءوسهم، واستعذبوا فى مرضاة الله ومرضاتك بؤسهم، يطيرون من هيعة إلى أخرى، ويلتفتون والمخاوف عن يمنى ويسرى، ويقارعون وهم الفئة القليلة جموعا كجموع قيصر وكسرى، لا يبلغون من عدو هو الذر عند انتشاره، عشر معشاره، قد باعوا من الله الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله هى العليا. فيا له من سرب مروع، وصريخ إلا منك ممنوع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصبية حمر الحواصل، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل، والصليب قد تمطى فمد ذراعيه، ورفعت الأطماع بضَبْعَيه، وقد حجبت بالقتام السماء، وتلاطمت أمواج الحديد، والبأس الشديد، فالتقى الماء، ولم يبق إلا الذماء، وعلى ذلك فما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى تكاد تشاهده

العيون، إلى أن نلقاك غدا - إن شاء الله - وقد أبلينا العذر، وأرغمنا الكفر، وأعملنا فى سبيل الله وسبيلك البيض والسمر - استنبت[1] رقعتى هذه لتطير إليك من شوقى بجناح خافق، وتسعد من نيتى التى تصحبها برفيق موافق، فتؤدى عن عبدك وتبلغ، وتعفر الخد فى تربك وتمرغ، وتطيب بريا معاهدك الطاهرة وبيوتك، وتقف وقوف الخضوع والخشوع تجاه تابوتك، وتقول بلسان التملق، عند التشبث بأسبابك والتعلق، منكسرة الطرف، حذرا بهرجها من عدم الصرف: يا غياث الأمة وغمام الرحمة، ارحم غربتى وانقطاعى، وتغمد بطولك قصر باعى، وقو على هيبتك خور طباعى، فكم جزت من لج مهول، وجبت من حزون وسهول، وقابل بالقبول نيابتى، وعجل بالرضا إجابتى، ومعلوم من كمال تلك الشيم وسجايا تلك الديم، أن لا يخيب قصد من حط بفنائها، ولا يظمأ وارد أكب على إنائها.

اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة، وأعطيته لواء الحمد يسير آدم فمن دونه تحت ظلاله المنشورة، وملكت أمته ما زوى له من زوايا البسيطة المعمورة، وجعلتنى من أمته المجبولة على حبه المفطورة، وشوقتنى إلى معاهده المبرورة، ومشاهده المزورة، ووكلت لسانى بالصلاة عليه، وقلبى بالحنين إليه، ورغبتنى بالتماس ما لديه، فلا تقطع عنه أسبابى، ولا تحرمنى فى حبه أجر ثوابى، وتداركنى بشفاعته يوم أخذ كتابى.

هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت[2] داره، وشط مزاره، ولم يجعل بيده اختياره، فإن لم تكن للقبول أهلا فأنت للإغضاء والسماح أهل، وإن كانت ألفاظها وعرة فجنابك للقاصدين سهل، وإن كان الحب يتوارث كما أخبرت، والعروق تدس حسبما إليه أشرت، فلى بانتسابى إلى سعد عميد

(١) استبت جواب «لما» التى وقعت قبل سطور عديدة.

(٢) تحرف فى المطبوع إلى: «وسيلة ن بعدت» وصوابه من نفح الطيب.

أنصارك مزية، ووسيلة أثيرة خفية، فإن لم يكن لى عمل ارتضيته فلى نية. فلا تنسنى ومن بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف كلمتك، على أيدى خيار أمتك، فإنما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك، فنعوذ بوجه ربك من إغفالك، ونستنشق من ريح عنايتك نفحة، ونرتقب من محيا قبولك لمحة، ندافع بها عدوا طغى وبغى، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى، فمواقف التمحيص قد أعيت من كتب وورخ، والبحر قد أصمت من استصرخ، والطاغية فى العدوان مستبصر، والعدو محلق والولى مقصر، وبجاهك ندفع ما لا نطيق، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق. فلا تفردنا ولا تهملنا، وناد ربك فينا: ربنا ولا تحملنا، وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم، وربك يقول لك وقوله الحق: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم»، والصلاة والسلام عليك يا خير من طاف وسعى، وأجاب داعيا إذا دعا. وصلى الله على جميع أحزابك وآلك، صلاة تليق بجلالك وتحق لكمالك، وعلى ضجيعيك وصديقيك وحبيبيك ورفيقيك، خليفتك فى أمتك، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك، وصهرك ذى النورين المخصوص ببرك وتجلتك، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك، بدر سمائك ووالد أهلتك. والسلام الكريم عليك وعليهم كثيرا أثيرا، ورحمة الله وبركاته. وكتب بحضرة جزيرة الأندلس غرناطة - صانها الله ووقاها، ودفع عنها ببركتك كيد عداها.

ونص الرسالة الثانية المكتوبة عن الغنى بالله - سامحه الله:

دعاك بأقصى المغربين غريب   وأنت على بعد المزار قريب[1]

مدل بأسباب الرجاء وطرفه   غضيض على حكم الحياء مريب

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٦١.

يكلف قرص البدر حمل تحية ... إذا ما هوى والشمس حين تغيبُ
لترجع من تلك المعالم غدوة ... وقد ذاع من رد التحية طيب
ويستودع الريح الشمال شمائلا ... من الحب لم يعلم بهن رقيب
ويطلب فى جوب الجنوب جوابها ... إذا ما أطلت والصباح جنيب
وَيَسْتَفهم[1] الكَفَّ الخضيبَ ودمعه ... غراما بحناء النجيع خضيب
ويتبع آثار المطى مشيعا ... وقد زمزم الحادى وحن نجيب
إذا أثر الأخفاف لاحت محاربا ... يخر عليها راكعا وينيب
ويلقى ركاب الحج وهى قوافل ... طلاح وقد لبى النداء لبيب
فلا قول إلا أَنَّةٌ وتوجع ... ولا حول إلا زفرة ونحيب
غليل ولكن من قبولك منهل ... عليل ولكن من رضاك طبيب
ألا ليت شعرى والأمانى ضلة ... وقد تخطئ الآمال ثم تصيب
أينجد نجد بعد شحط مزاره ... ويكثب بعد البعد منه كثيب
وتقضى ديونى بعد ما مطل المدى ... وينقذ بيعى والمبيع معيب
وهل اقتضى دهرى فيسمح طائعا ... وأدعو بخطى مسمعا فيجيب
ويا ليت شعرى هل لحومى مورد ... لديك وهل لى فى رضاك نصيب
ولكنك المولى الجواد وجاره ... على أى حال كان ليس يخيب
وكيف يضيق الذرع يوما بقاصد ... وذاك الجانب المستجار رحيب
وما هاجنى إلا تألق بارق ... يلوح بفود الليل منه مشيب

(1) هذا الصواب من نفح الطيب، وفى المطبوع: «وسيتفهم» ولا يستقيم به الوزن، والبيت من الطويل.

ذكـرت به ركب الحـجاز وجـيـزة   أهاب بهـا نحـو الحبيب مـهـيب
فـبت وجــفنى من لآلئ دمــعـه   غنى وصبـرى للشـجـون سليب
ترنحنى الذكرى ويهـفو بى الجوى   كما مـال غصن فى الرياض رطيب
وأحـضـر تعليـلا لـشـوقى بالمنى   ويطرق وجــد غـالب فـأغــيب
منـائى لو أعطـى الأمـــانى زورة   يبـث غــرام عنـدها ووجـــيب
فـقـول حبيب إذ يقـول تشـوقـا   "عـسى وطن يدنو" إلى حـبـيب
تعجبت من سيفى وقد جاوز الغضى   بقلـب فلم يسكـبـه مـنه مــذيب
وأعـجب أن لا يورق الرمح فى يدى   ومن فـوقه غـيث الشئـون سكيب
فيا سـرح ذاك الحى لو أخلف الحيا   لأغناك من صوب الدمـوع صبيب
ويا هاجـر الجـو الجـديـب تلبـثـا   فعـهدى رطب الجانبين خـصيب
ويا قـارح الزند الشـحـاح ترفـقـا   عليك فـشـوقى الخارجى شـبـيب
أيا خــــاتم الرسل المـكين مكـانه   حديث الـغريب الدار فيـك غريب
فـؤاد على جـمر الـبعـاد مـقلب   يمـــاح عـليـــه للدمـــوع قـليب
فـــوالله مـــا يزداد إلا تـلهـــبـــا   أأبصــرت مـاء ثـار عنه لهــيب
فليـلتــه ليل السـليم ويومـــهـــا   إذا شد للشـوق العصاب عـصيب
هواى هدى فـيك اهـتـديت بنوره   ومنتـســبى للصـحب منك نسـيب
وحسـبى على أنى لصحـبك منتم   وللخــــزرجــيين الكرام نــسـيب
عدت عن مغانيك المـشوقة للعدى   عـــقـــارب لا يخـــفى لهــن دبيب

حراص على إطفاء نور قدحته ... فمستلب من دونه وسليب
فكم من شهيد فى رضاك مجدل ... يظلله نسر ويندبه ذيب
تمر الرياح الغفل فوق كلومهم ... فتعبق من أنفاسها وتطيب
بنصرك عنك الشغل من غير منة ... وهل يتساوى مشهد ومغيب
فإن صح منك الحظ طاوعت المنى ... ويبعد مرمى السهم وهو مصيب
ولولاك لم يعجم من الروم عودها ... فعود الصليب الأعجمى صليب
وقد كانت الأحوال لولا مراغب ... ضمنت ووعد بالظهور تريب
فما شئت من نصر عزيز وأنعم ... أثاب بهن المؤمنين مثيب
منابر عز أذن الفتح فوقها ... وأفصح للعضب الطرير خطيب
تقود إلى هيجائها كل صاهل ... كما ريع مكحول اللحاظ ربيب
ونجتاب من سرد اليقين مدارعا ... يكفتها من يجتبى ويثيب
إذا اضطرب الخطى حول غديرها ... يروقك منها لجة وقضيب
فعذرا وإغضاء ولا تنس صارخا ... بعزك يرجو أن يجيب مجيب
وجاهك بعد الله نرجو وإنه ... لحظ ملىء بالوفاء رغيب
عليك صلاة الله ما طيب الفضا ... عليك مطيل بالثناء مطيب
وما اهتز قد للغصون مرنح ... وما افتر ثغر للبروق شنيب

إلى حجة[1] الله المؤيدة ببراهين أنواره، وفائدة الكون ونكتة أدواره، وصفوة فرع البشر ومنتهى أطواره. إلى المجتبى وموجود الوجود لم يغن

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٦٣.

بمطلق الوجود عديمه. والمصطفى من ذرية آدم من قبل أن يكسو العظام أديمه المحتوم فى القدم، وظلمات العدم، عند صدق القدم، تفضيله وتقديمه، إلى وديعة النور المنتقل إلى الجباه الكريمة والغرر، ودرة الأنبياء التى لها الفضل على الدرر، وغمام الرحمة الهامية الدرر، إلى مختار الله المخصوص باجتبائه، وحبيبه الذى له المزية على أحبابه، من ذرية أنبياء الله آبائه، إلى الذى شرح صدره وغسله، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله، وأتم عليه إنعامه الذى أجزله، وأنزل عليه من الهدى والنور ما أنزله. إلى بشرى المسيح والذبيح، ومن له التجر الربيح، المنصور بالرعب والريح، المخصوص بالنسب الصريح. إلى الذى جعله فى المحول غماما، وللأنبياء إماما، وشق صدره لتلقى روح أمره غلاما، وأعلم به فى التوراة والإنجيل إعلاما، وعلم المؤمنين صلاة عليه وسلاما. إلى الشفيع الذى لا ترد فى العصاة شفاعته، والوجيه الذى قرنت بطاعة الله طاعته، والرءوف الرحيم الذى خلصت إلى الله فى أهل الجرائم ضراعته، صاحب الآيات التى لا يسع ردها، والمعجزات التى أربى على الألف عدها: من قمر شق، وجذع حن له وحق، وبنان يتفجر بالماء، فيقوم برى الظمأ وطعام يشبع الجمع الكثير يسيره، وغمام يظل به مقامه ومسيره، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض، وأول من تنشق عنه الأرض، وسيلة الله التى لولاها ما أقرض القرض، ولا عرف النفل والفرض، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، المحمود الخلال من ذى الجلال، والشاهدة بصدقه صحف الأنبياء وكتب الأرسال، وآياته التى أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال. ﷺ ما ذر شارق، وأومض بارق، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق، صلاة تتأرج على شذى

الزهر، وتتبلج عن سنى الكواكب الزهر، وتتردد بين السر والجـهر، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر، وتدوم بدوام الدهر:

من عبد هداه ومستقرى مواقع نداه، ومزاحم أبناء أنصاره فى منتداه، وبعض سهامه المفوقة إلى نحور عداه، مؤمل العتق من النار بشفاعته، ومحرز طاعة الجبار بطاعته، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله وإضاعته. متخذ الصلاة عليه وسائل نجاة، وذخائر فى الشدائد مرتجاة، ومتاجر بضائعها غير مزجاة، الذى ملأ بحبه جوانح صدره، وجعل فكره هالة لبدره، وأوجب حقه على قدر العبد لا على قدره، محمد بن يوسف بن نصر الأنصارى الخزرجى، نسيب سعد بن عبادة من أصحابه، وبوارق سحابه، وسيوف نصرته، وأقطاب دار هجرته، ظلله الله يوم الفزع الأكبر من رضاك عنه بظلال الأمان، كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان، وجعله من أهل السياحة فى فضاء حبك والهيمان.

كتبه إليك يا رسول الله، واليراع يقتضى مقام الهيبة صفرة لونه، والمداد يكاد أن يحول سواد جونه، وورقة الكتاب يخفق فؤادها حرصا على حفظ اسمك الكريم وصونه، والدمع يقطر فتنقط به الحروف وتفصل الأسطر، وتوهم المثول بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر، عن قلب بالبعد عنك قريح، وجفن بالبكاء جريح، وتأوه عن تبريح، كلما هب من أرضك نسيم ريح، وانكسار ليس له إلا جبرك، واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك وإن لم يقض فقبرك، وكيف لا يسلم فى مثلها الأسى، ويوحش الصباح والمسا، ويرجف جبل الصبر بعد ما رسا، لولا لعل وعسى، فقد سارت الركاب إليك ولم يقض مسير، وحومت الأسراب عليك والجناح كسير، ووعدت الآمال فاختلفت، وحلفت العزائم فلم تف بما حلفت، ولم تحصل النفس من

تلك المعاهدات ذات الشرف الأثيل، إلا على التمثيل، ولا من المعالم الملتمسة التنوير، إلا على التصوير، مهبط وحى الله ومتنزل أسمائه، ومتردد ملائكة سمائه، ومدافن أوليائه، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه، رزقنى الله الرضا بقضائه، والصبر على جاحم البعد ورمضائه من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك، ومسبحة رجلك يا رسول الله وخيلك، وأنأى مطارح دعوتك، ومساحب ذيلك، حيث مصاف الجهاد فى سبيل الله وسبيلك قد ظللها القتام، وشهبان الأسنة أطلعها منه الإعتام، وأشواق بيع النفوس من الله قد تعدد بها[1] الأيامى والأيتام، حيث الجراح قد تحلت بعسجد نجيعها النحور، والشهداء تحف بها الحور: والأمم القريبة قد قطعتها على المدد البحور، حيث المباسم المفترة، تجلوها المصارع البرة، فتحييها بالعراء ثغور الأزاهر، وتندبها صوادح الأدواح برنات تلك المزاهر، وتحلى السحاب أشلاءها المعطلة من طلها بالجواهر، حيث الإسلام من عدوه المكايد بمنزلة قطرة من عارض غمام، وحصاه من ثبير أو شمام، وقد سدت الطريق، وأسلم للفراق الفريق، وأغص الريق، ويئس من الساحل الغريق، إلا أن الإسلام بهذه الجهة المستمسكة بحبل الله وحبلك، المهتدية بأدلة سبلك سالم، - والحمد لله - من الانصداع، محروس بفضل الله من الابتداع، مقدود من جديد الملة، معدوم فيه وجود الطوائف المضلة، إلا ما يخص الكفر من هذه العلة، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلة، ولهذه الأيام - يا رسول الله - أقام الله أوده برا بوجهك الوجيه ورعيا، وإنجازا لوعدك وهو الذى لا يخلف وعدا ولا يخيب سعيا، وفتح لنا فتوحا أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب، وبشرتنا منه تعالى بتغمد التقصير ورفع التثريب، ونصرنا - وله المنة - على عبدة الصليب، وجعل لألفنا الردينى ولأمنا السردى حكم

(١) هذا المثبت من نفح الطيب، وفى المطبوع: «لها».

التغليب وإذا كانت الموالى التى طوقت الأعناق مِنَنُهـا، وقررت العوائد الحسان سيـرها وسننها، تبـادر إليهـا نوابها الصـرحاء وخدامـها النصـحاء بالبـشائر والمسرات التى تشاع فى العشائر، وتجلو لديها نتـائج أيديها، وغايات مباديها، وتتاحفها وتهاديها، بمجانى جناتها وأزهار غواديها، وتطرف محاضرها بطرف بواديها. فبـابك يا رسول الله أولى بذلك وأحق، ولك الحق الحق، والحر منا عبدك المسترق، حسبـما سجله الرق، وفى رضاك من كل مـا يلتمس رضاه المطمع، ومثـواك المجمع، وملوك الإسلام فى الحقـيقة عبيـد سدتك المؤملة، وخـول مشـابتك المحسـنات بالحسنات المجـملة، وشـهب تعشـو إلى بدورك المكملة، وبعض سـيوفك المقلدة فى سـبيل الله المحـملة، وحـرسة مـهادك، وسلاح جهادك، وبروق عهادك، وإن مكفول احترامك الذى لا يخفر، وربى إنعامك الذى لا يكفر، وملتحف جاهك الذى يمـحى ذنبه بشفاعتك إن شاء الله يغفـر، يطالع روضة الجنة المفتحـة أبوابها بمثواك، ويفاتح صـوان القدس الذى أجنك وحـواك، وينشر بـضائع الصـلاة عليك بين يدى الضـريح الذى طواك، ويعرض جنـى ما غرست وبذرت، وبصـدق ما بشـرت به لما بشرت وأنذرت، وما انتـهى إليه طلق جهادك، ومـصب عهادك، لتقر عـين نصحك التى أنام العـيـون ساهر هجـوعـها، وأشـبع البطون ورواها ظمـؤها فى الله وجوعـها، وإن كانت الأمـور بمرأى من عين عنايتك، وغـيبهـا متـعرف بين إفصاحك وكنايتك، ومجمله - يا رسول الله - ﷺ، وبلغ وسيلتى إليك، - هو أن الله سبـحانه لما عـرفنى لطفـه الخفى فى التـمحـيص، المقتـضى عدم المحيص، ثـم فى التخـصيص، المعنى بعناية عن التنصـيص، وفق ببـركاتك السارية رحماتها فى القلوب، ووسـائل محبتك العائدة بنيل المطلوب، - إلى استفادة عظة واعتبار، واغتنام إقبال بعد إدبار، ومزيد استبصار، واستعانة بالله

وانتصار، فسكن هبوب الكفر بعد إعصار، وحل مخنق الإسلام بعد حصار، وجرت على سنن السنة، بحسب الاستطاعة والمنة، - السيرة، وجبرت بجاهك القلوب الكسيرة، وسهلت المآرب العسيرة، ورفع بيد العزة الضيم، وكشف بنور البصيرة الغيم، وظهر القليل على الكثير، وباء الكفر بخطة التعثير، واستوى الدين الحنيف على المهاد الوثير، فاهتبلنا - يا رسول الله - غرة العدو وانتهزناها، وشمنا صوارم عزة الغدو وهززناها، وأزحنا علل الجيوش وجهزناها.

فكان مما ساعد عليه القدر، والحظ المبتدر، والورد الذى حسن بعد الصدر، أننا عاجلنا مدينة بُرْغَه[1]، وقد جرعت الأختين مالقة ورندة، من مدائن دينك، ومزاين ميادينك، أكواس الفراق، وأذكر مثل من بالعراق، وسدت طرق التزاور عن الطراق، وأسالت المسيل بالنجيع المرافق، فى مراصد المراد والمراق، ومنعت المراسلة مع هدى الحمام، لا بل مع طيف المنام، عند الإلمام، فيسر الله اقتحامها، وألحمت بيض الشفار فى زرق الكفار إلحامها، وأزل بَشْرُ السيوف من بين تلك الحروف اقتحاما، فانطلق المسرى، واستبشرت القواعد الحسرى، وعدمت بطريقها المخيف مصارع الصرعى ومثاقف الأسرى، والحمد لله على فتحه الأسنى، ومنحه الأسرى، ولا إله إلا هو منفل قيصر وكسرى، وفاتح مغلقاتهما المنيعة قسرا، واستولى الإسلام منها على قرار جنات، وأم بنات، وقاعدة حصون، وشجرة غصون، طهرت مساجدها المغتصبة المكرهة، وفجع بحفظها الفيل الأفيل وأبرهة، وانطلقت بذكر الله الألسنة المدرهة، وفاز بسبق ميدانها جيادك الفرهة.

هذا - وطاغية الروم على توفر جموعه، وهول مرئيه ومسموعه، - قريب جواره، بحيث يتصل خواره، وقد حرك إليها الحنين حواره، ثم نازل

(١) برغه: بين مالقة ورندة.

المسلمون بعدها شجا الإسلام الـذى أعيا النطاسى علاجه، وكرك[1] هذا القطر الذى لا تطاول أعـلامـه ولا تصـاول أعلاجـه، وركـاب الغـارات التى تطوى المراحل إلى مكايدة المسلمين طى البرود، وحـجر الحيات التى لا تخلع - على اخـتـلاف الفـصـول - جلود الزرود، ومنـعص الورود، فى العـذب المورود، ومقض المضاجع، وحلم الهـاجع، ومجهز الخطب الفاجئ الفاجـع، ومستدرك فاتكة الراجع، قبل هبوب الطائر الساجع، حصن آشر[2]، - حماه الله - دعاء لا خبرا، كـما جعله للمتفكرين فى قـدرته معتبرا، فأحـاطوا به أحاطه القلادة بالجيد، وأذلوا عزته بعزة ذى العرش المجيد، وحفت به الرايات يسمها وسَمْكُ، ويلوح فى صفحاتها اسم الله واسمك، فـلا ترى إلا نفوسا تتزاحم على موارد الشهادة أسرابها، وليوثا يصدق فى الله تعـالى ضرابها، وأرسل الله عليها رجسا إسرائيليـا من جراد السهام، تشـذ آياته عن الأفهام، وسدد إلى الحـيل النفوس القابلة للإلهام، من بعد الاستغلاق والاستـبهام، وقد عبثت جوارح صخوره[3] فى قنائص إلهام، وأعيا صَعْبُه[4] الجيش اللُّهام، فأخذ مَسَائغَهُ النقض والنقب، ورغا فوق أهله السقب، ونصـبت المعارج والمراقى، وفرغت المناكب والتراقى، واغتنم الصادقون مع الله الحظ الـباقى، وقال الشهيد المسابق: يا فـوز استباقى! ودخل البلد فألحم السيف، واستلب البحث والزيف، ثم اسـتخلصت القصبة، فعلت أعلامك فى أبراجها المشيدة، وظفر ناشد دينك منها بالنشيدة، وشكر الله فى قصدها مساعى النصائح الرشـيدة، وعمل ما يرضيك - يا رسول الله - فى سد ثلمها، وصون مـستلمها، ومداواة ألمها، - حرصا على الاقـتداء فى مثلها بأعمالك، والاهتداء بمشكاة كمالك، ورتب فـيها الحماة تشجى العدو، وتصل فى مرضاة الله تعالى ومرضاتك برواحها الغدو.

(١) شبهه بحصن الكرك، وكان ذا شأن ومنعة فى الحروب الصليبية.

(٢) حصن آشر، فى الجنوب الشرقى لحصن روطة، على ضفة رافد من روافد شنيل.

(٣) هذا الصـواب من نفح الطـيب ج٦ ص ٣٦٩ والذى فى المطبـوع: «ضـخـوره» بالضـاد المعجمة.

(٤) هذا المثبت من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «صعبة».

ثم[1] كان الغزو إلى مدينة إطريرة[2]، بنت حاضر الكفر إشبيلية، التى أظلتها بالجناح الساتر، وأقامتها فى ضمان الإمام للحسام الباتر، وقد وتر الإسلام من هذه الموسة البائسة بالوتر الباتر، وأُحفظ منها بأذى الوقاح المهاتر، لما جرته على أسراره من عمل الخاتل الخاتر، حسب المنقول المقبول لا بل المتواتر، فطوى إليها المسلمون المدى النازح، ولم تشك المطى الروانح، وصدق الجِّد جَدها المازح، وخفقت فوق أوكارها أجنحة الأعلام، وغشيتها أفواج الملائكة المسومة، وظلال الغمام، وصابت من السهام، ودق الرهام، وكاد يكفئ السماء على الأرض ارتجاج أجوائها بكلمة الإسلام، وقد صَمَّ خاطبُ عروس الشهادة عن الملام، وسمح بالعزيز المصون مبايع الملك العلام، وتكلم لسان الحديد الصامت وصمت إلا بذكر الله لسان الكلام، ورفعت الأوتار بالأوتار، ووصل بالخطى ذرع الأبيض البتار، وسلطت النار على أربابها، وأذن الله فى تبار تلك الأمة وتبابها، فنزلوا على حكم السيف آلافا، بعد أن أتلفوا بالسلاح إتلافا، واستوعب المقاتلة كتافا، وقرنوا فى الجدل أكتافا أكتافا، وحملت العقائل والخرائد، والولدان والولائد، أركابا من فوق الظهور وأردافا، وأفلت منها أفلاك الحمول بدورا تضىء من ليالى المحاق أسدافا، وامتلأت الأيدى من المواهب والغنائم، بما لا يصوره حلم النائم، وتركت العوافى تتداعى إلى تلك الولائم، وتفتن من مطاعمها فى الملائم.

وشنت الغارات على حمص، فجللت خارجها مغارا وكست كبار الروم

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٦٩.

(٢) إطريرة Utrera مدينة تقع فى الجنوب الشرقى لإشبيلية، وقد ضبطت بكسر الهمزة وسكون الطاء.

بها صاغرا، وأجحرت أبطالها إجحارا، واستاقت من النعم ما لا يقبل الحصر استبحاراً.

ولم يكن[1] إلا أن عدل القسم، واستقل بالقفول العزيز الرسم، ووضح من التوفيق الوسم، وكانت الحركة إلى قاعدة جيان، قيعة الظل الأبرد، ونسيجة المنوال المفرد، وكنائس الغيد الخرد، وكرسى الإمارة، وبحر العمارة، ومهوى هوى الغيث الهتون، وحزب التين والزيتون، حيث خندق الجنة تدنو لأهل النار مجانيه، وتشرق بشواطئ الأنهار أشراق الأزهار زهر مبانيه، والقلعة التى تختمت بنان شرفاتها بخواتم النجوم، وهمت من دون سحابها البيض سحائب الغيث السجوم، والعقيلة التى أبدى الإسلام يوم طلاقها، وهجوم فراقها، سمة الوجوم، لذلك الهجوم، فرمتها البلاد المسلمة فأفلاذ أكبادها الوادعة، وأجابت منادى دعوتك الصادقة الصادعة، وحيتها بالفادحة الفادعة، فغصت الربا والوهاد بالتكبير والتهليل، وتجاوبت الخيل بالصهيل، وانهالت الجموع المجاهدة فى الله انهيال الكثيب المهيل، وفهمت نفوس العباد، المجاهدة فى الله حق الجهاد، معانى التيسير من ربها والتسهيل، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل، وأربت المحلات المسلمة على التأميل، ولما صبحتها[2] النواصى المقبلة الغرر، والأعلام المكتنفة الطرر، برز حاميتها مصحرين، وللحوزة المستباحة منتصرين، فكاثرهم من سرعان الأبطال رجل الدبا، ونبت الوهاد والربى، فأقحموهم من وراء السور، وأشرعت أقلام الرماح فى بسط عددهم المكسور، وتركت صرعاهم ولائم للنسور، ثم اقتحموا ربض المدينة الأعظم ففرعوه، وجَدَّلُوا مَن دافع عن أسواره[3]

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٧٠.

(٢) هذا المثبت من النفح، وفى المطبوع: «صحبتها».

(٣) هذا الصواب من النفح، والذى فى المطبوع: «وجدلوا من دوافع أسراره».

وصـرعوه، وأكـواس الحتـوف جرعـوه، ولـم يتصل أولى الناس بأخـراهـم، ويحمد بمخيم النصر العزيز سراهم، حتى خذل الكافر الصبر، وأسلم الجلد، وأنزل المسلمون على النصر، فدخل البلد، وطاح فى السيل الجارف الوالد منه والولد، وأتهم المطرف والمتلد، فكان هولا بعيد الشناعة، وبعثا كقيام الساعة، أعجل المجانيق عن الركوع والسجود، والسلالم عن مطاولة النجود، والأيدى عن ردم الخنادق والأغـوار والأكـبش عن مـناطحـة الأسـوار، والنفـوط عن إصعـاق الفجار، وعـمد الحديد، ومـعاول البأس الشـديد، عن نقب الأبراج ونقض الأحجار، فهيلت الكثبان، وأبيـد الشيب والشبان، وكسرت الصلبان، وفـجع بهدم الكنائـس الرهبان، وأهبطت الـنواقيس من مـراقيـهـا العاليـة، وصروحـها المتـعاليـة وخلعت ألسنتهـا الكاذبة، ونقل مـا استطاعـته الأيدى المجاذبة، وعجـزت عن الأسلاب ذوات الظهور، وجلل الإسلام شـعار العز والظهور، بما خلت عن مـثله سوالف الدهور والأعوام والشهـور، وأعرست الشهداء ومن النفـوس المبيعة من الله نحل الصدقـات والمهور، ومن بعد ذلك هدم السور، ومحـيت من محيطه المحكم - السطور، وكاد يسـير ذلك الجبل الذى اقـتعـدته المدينة ويدك ذلك الطور، ومن بعدمـا خرب الـوجار عـقرت الأشجـار، وعفر المنار، وسلطت على بنات التـراب والماء النار، وارتحل عنها المسلمون وقـد عمـتها المصـائب، وأصمى لبـتها السـهم الصائب، وظللتـها القشـاعم العصائب، فـالذئاب فى الليل البهـيم تعسل، والضبـاع من الحدب البعيـد تنسل، وقد ضاقت الجُدُلُ عن المخانق، وبيع العـرض الثمين بالدانق، وسبكت أسـورة الأسوار، وسويت الهضـاب بالأغوار، واكتسـحت الأحواز القاصـيـة سرايا الغوار، وحجـبت بالدخان مطالع الأنوار، وتخلفت قاعـتها عبـرة للمعـتبرين، وعظة للناظرين، وآية للمستبصرين، ونادى لسان الحمية:

يا لثارات الإسكندرية! فأسمع آذان المقيمين والمسافرين وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين.

ثم كانت[1] الحركة إلى أختـها الكبرى، ولدتها الحزينة عليـها العبرى، مدينة أُبَّدة ذات العـمران المستـبحر، والربـض الخرق المصحـر، والمبانى الشم الأنوف وعقائل المصانع الجمة الحلى والشنوف، والغاب الأنوف، بلدة التجر، والعـسكر المجـر، وأُفق الضـلال الفـاجـر، الكذب على الله تعـالى الكاذب الفجر، فخذل الله حاميتهـا التى يعيى الحسبان عدها، وسجر بحورها التى لا يرام مـدها، وحقت عليـها كلمـة الله التى لا يستطاع ردها، فـدخلت لأول وهلة، واستـوعب جمها - والمنة لله - فى نهـلة، ولم يك للسيف من عطف عليهـا ولا مهلة، فلما تناولها العـفاء والخريب، واستـباحها الفـتح القريب، وأسند عن عواليهـا حديث النصر الحسن الغريب، وأقعـدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب، وأضرعت مسايفـها لهول المصاب، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذى عظم صيـته، والعز الذى سما طرفه واشرأب لـيته، والعزم الذى حمد مسراه ومبيته، والحمـد لله ناظم الأمر، وقد رأب شتيته، وجابر الكسر، وقد أفات الجبر مفيته.

ثم كان الغـزو إلى أم البلاد[2]، ومثـوى الطارف والتلاد، قرطبـة وما قرطبة! المدينة التـى على عمل أهلها فى القديم، بهذا الإقـليم، كان العمل، والكرسى الذى بعصـاه رعى الهمل، والمصر الذى له فى خطة المعمـور الناقة والجمل، والأفق الذى هو لشـمس الخلافة العبشـمية الحمل، فـخيم الإسلام

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٧٢.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٣٧٣.

بعقوتهـا المستباحة، وأجـاز نهرها المعين على السباحـة، وعم دوحها الأشب بوارا، وأدار الكماة بسـورها سوارا، وأخذ بمخنقـها حصارا، وأعـمل النصر بشـجر نصلهـا اجتناء مـا شاء واهـتصـارا، وجدل من أبطالهـا من لم يرض انجحارا، فأعمل إلى المسلمين إصحارا، حتى فرع بعض جهاتها غلابا جهارا، ورفعت الأعلام أعـلاما بعز الإسلام وإظهارا، فلولا استـهلال الغوادى، وأن أتى الوادى، لأفضت إلـى فتح الفتـوح تلك المبادى، ولقـضى تفثـه العاكف والبادى، - فاقتضى الرأى - ولذنب الزمان فى اغـتصاب الكفر إياها متاب، تعمل ببشراه - بفضل الله - أقـتاد وأقتاب «ولكل أجل كتاب»، - أن يراض صعبها حتى يعود ذلولا، وتعفى مـعاهدها الآهلة فتترك طلولا، فإذا فجع الله بمارج النار طوائفها المارجة، وأباد بخارجـها الطائرة والدراجة، خطب السيف منها أم خـارجة[1]، فعند ذلـك أطلقنا بها ألسنة النار - ومـفارق الهـضاب بالهشيم قد شابت، والغلات المستغـلاة قد دعا بها القصل فما ارتابت، وكأن صحيفة نهرها لما أضرمت النار حقا فى ظهرها ذابت، وحيته فرت أمام الحريق فانسابت، وتخلقت لغمائم الدخـان عمائم تلويها برءوس الجبال أيدى الرياح وتنشرها بعـد الركود أيدى الاجتياح، وأغـربت بأقطارها الشاسعة، وجـهاتها الواسعـة، - جنود الجوع، وتوعدت بالرجوع، فـسلب أهلها لتوقع الهـجوم منزور الهجوع، فـأعلامها خاشعـة خاضعة، وولدانها لثدى البـؤس راضعة، والله يوفد بخبر فتحها القريب، ركائب البشرى، وينشر رحمته قبلنا نشرا.

ثم تنوعت[2] يا رسول الله - لهـذا العهد - أحوال العـدو تنوعا يوهم إفاقته من الغـمرة، وكادت فتنته تؤذن بخمـود الجمرة، وتوقع الواقع، وحذر

---

(١) يعنى استباحها السيف بسرعة، وفى المثل: «أسرع من نكاح أم خارجة».

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٣٧٤.

ذلك السم الناقع، وخيف الخرق الذى يحار فيه الراقع! فتعرفنا عوائد الله - سبحانه - ببركة هدايتك، وموصول عنايتك، فأنزل النصر والسكينة، ومكن العقائد المكينة، فثابت العزائم وهبت، واطردت عوائد الأقدام واستتبت، وما راع العدو إلا خيل الله تجوس خلاله، وشمس الحق توجب ظلاله، وهداك الذى هديت يدحض ضلاله، ونازلنا حصنى قنبيل والحائر - وهما معقلان متجاوران يتناجى مهما الساكن سرارا، وقد اتخذا بين النجوم قرارا، وفصل بينهما حسام النهر يروق غرارا، والتف معصمه فى حلة العصب وقد جعل الجسر سوارا، فخذل الصليب بذلك الثغر من تولاه، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه، وتبرجت عروس الفتح المبين بمجلاه، والحمد لله على ما أولاه.

ثم تحركنا(١) على تفئة(٢)، تعدى(٣) ثغر الموسطة على عدوه المساور فى المضاجع، ومصبحه بالفاجئ الفاجع، فنازلنا حصن روطة الآخذ بالكظم، المعترض بالشجا اعتراض العظم، وقد شحنه العدو مددا بئيسا، ولم يأل اختياره رأيا ولا تلبيسا، فأعيا داؤه، واستقلت بالمدافعة أعداؤه، ولما أتلع إليه جيد المنجنيق، وقد برك عليه بروك الفنيق، وشد عصام العزم الوثيق، لجأ أهله إلى التماس العهد والمواثيق، وقد غصوا بالريق، وكاد يذهب بأبصارهم لمعان البريق، فسكناه من حامية المجاهدين بمن يحمى ذماره ويقرر اعتماره، واستولى أهل الثغور - إلى هذا الحد - على معاقل كانت مستغلقة فتحوها، وشرعوا أرشية الرماح إلى قلب قلوبها فمتحوها.

ولم(٤) تكد الجيوش المجاهدة تنفض عن الأعراف متراكم الغبار، وترخى عن آباط خيلها شد حزم المغار، حتى عاودت النفوس شوقها،

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٧٤.

(٢) هذا الصواب من النفح، والذى فى المطبوع «نفيئة» وتفئة: أى على أثر.

(٣) هذا الصواب من النفح، والذى فى المطبوع: «تغرى».

(٤) نفح الطيب ج٦ ص ٣٧٥.

واستتبعت ذوقها، وخطبت التى لا فوقها، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية، والمدارك المتصاعبة على الأفكار المتعاصية، فقصدنا الجزيرة الخضراء، باب هذا الوطن الذى منه طرق وداعه، ومطلع الحق الذى صدع الباطل صادعه، وثنية الفتح التى برق منها لامعه، ومشرب الهجوم الذى لم تكن لتعثر على غيره مطامعه، وفرضه المجاز التى لا تنكر، ومجمع البحرين فى بعض ما يذكر، حيث يتقارب الشطان، ويتوازى الخطان، وكاد أن تلتقى حلقتا البطان، وقد كان الكفر قَـدَّرَ قدْرَ هذه الفرضة التى طرق حماه، ورماه الفتح الأول بما رماه، وعلم أن لا تتصل أيدى المسلمين بإخوانهم إلا من تلقائها، وأنه لا يعدم المكروه مع بقائها، فاجلب عليها برجله وخيله، وسد أفق البحر بأساطيله، ومراكب أباطيله، بقطع ليله، وتداعى المسلمون بالعدوتين إلى استنقاذها من لهواته، أو إمساكها من دون مهراته، فعجز الحول، ووقع بملكه إياها القول، واحتازها قهرا، وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهرا، وأطرق الإسلام بعدها أطرق الواجم، واسْوَدَّت الوجوه لخبرها الهاجم، وبكتها حتى دموع الغيث الساجم، وانقطع المدد إلا من رحمة من ينفس الكروب، ويغرى بالإدالة الشروق والغروب، ولما شكنا بشبا الله نحرها، وأغصصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض، تكاثر نجوم السماء، برها وبحرها ونازلناها نذيقها شديد النزال، ونحجها بصدق الوعيد فى سبيل الاعتزال، رأينا بَأْوًا لا يظاهر إلا بالله ولا يطال، وممنعة يتحاماها الأبطال، وجنابا رَوَّضَهُ الغيث الهطال، أما أسواقها، فهى التى أخذت النجد والغور، واستعدت بجدال الجلاد عن البلاد فارتكبت الدور، تحوز بحرا من العمارة ثانيا، وتشكك أن يكون الإنسان لها بانيا، وأما أبراجها فصفوف وصنوف، تزين صفحات المسايف منها أنوف، وآذان لها من دوامغ الصخر شنوف، وأما خندقها فصخر مجلوب، وسور مقلوب، فصدقها المسلمون القتال بحسب

محلها من نفوسهم، واقتران اغتصابهـا ببؤسهـم، وأفول شموسهـم، فرشقوها من النبال بظلالة تحجب الشمس فلا يشرق سناها، وعرجوا فى المراقى البعيدة يفرعون مـبناها، ونفوسها أنقـابا، وحصونها عقـابا، ودخلوا مدينة إلبنة[1]: بنتها غـلابا، وأحسبوا السيوف استدلالا والأيدى اكتسابا، واسـتوعب القتل مقاتلها السـابغة الجنن، البالغة المنن، فأخذهم الهول المتـفاقم، وجدلوا كأنهم الأراقم، لم تفلت مـنهم عـين تطرف، ولا لسـان يلبى من يسـتطلع الخـبـر ويستشرف.

ثم[2] سمـت الهمم الإيمـانية إلى المدينة الكبـرى، فداروا سـوارًا على سورها، وتجـاسروا على اقتحـام أودية الفناء من فوق جسورها، وأدنوا إلـيها بالضروب، من حيل الحروب، - بروجا مشيـدة، ومجانيق توثق حبالها منها نشيـدة، وخفقت بنصـر الله عذبات الأعلام، وأهدت الملائكة مـدد السلام، فخذل الله كـفارها، وأكهم[3] شفارها، وقلم بيـد قدرته أظفارها، فالتـمسوا الأمـان للخـروج، ونزلوا على مـراقى العـروج، إلى الأباطح والمروج، عن سـمائهـا ذات البـروج، فكان بروزهم من العـراء إلى الأرض، تذكرة بيـوم العرض، وقد جلل المقاتلة الصغـار، وتعلق بالأمان النساء والصغار، وبودرت المدينة بالتطهـير، ونطقت المآذن الـعاليـة بالأذان الشهـير، والذكـر الجهـير، وطرحت كفـارها التماثيل عن المسجـد الكبير، وأزرى بألسنة النواقـيس لسان التهليل والتكبير، وأنزلت عن الصروح أجرامها، يعيى الهندام مرامها، وألفى منبر الإسلام بها مـجفوا فأنست غربته، وأعيد إلـيه قربه وقربته، وتلا واعظ الجمع المشـهود، قول منجز الوعـود، ومورق العود: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا

(١) مدينة إلبنة: من توابع الجزيرة الخضراء.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٣٧٦.

(٣) أكهم: أكلّ عن الضرب.

أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) ﴾ [هود]. فكاد الدمع يغرق الآماق، والوجد يستأصل الأرماق، وارتفعت الرغبات، وعلت السيئات، وجيء بأسرى المسلمين يرسفون فى القيود الثقال، وينسلون من أجداث الاعتقال، ففكت عن أسوقهم أساود الحديد، وعن أعناقهم فلكات البأس الشديد، وظللوا بجناح اللطف العريض المديد، وترتبت فى المقاعد الحامية، وأزهرت بذكر الله المآذن السامية، فعادت المدينة لأحسن أحوالها، وسكنت من بعد أهوالها، وعادت الجالية إلى أموالها، ورجع إلى القطر شبابه، ورد على دار الإسلام بابه، واتصلت بأهل لا إله إلا الله أسبابه، فهى اليوم فى بلاد الإسلام قلادة النحر، وحاضرة البر والبحر، أبقى الله عليها وعلى ما وراءها من بيوت أمتك، وودائع الله فى ذمتك، بكلمة دينك الصالحة الباقية، وسدل عليه أستار عصمته الواقية، وعدنا - والصلاة عليك شعار البروز والقفول، وهجيرى الشروق والأفول، والجهاد - يا رسول الله - الشأن المعتمد، ما امتد بالأجل الأمد، والمستعان الفرد الصمد.

ولهذا العهد يا رسول الله - صلى الله عليك، وبلغ وسيلتى إليك - بلغ من هذا القطر المرتدى بجاهك الذى لا يذل من أدرعه، ولا يضل من اهتدى بالسبيل الذى شرعه، إلى أن لاطفنا ملك الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها، ورفع التماثيل ببيوت الله ونصبها، فانجاب[1] عنها بنورك - الحلك، ودار بإدالتها إلى دعوتك الفلك، وعاد إلى مكاتبها القرآن الذى نزل به على قلبك الملك فوجبت مطالعة مقرك النبوى بأحوال هذه الأمة

---

(١) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «فانجلب».

المكفولة فى حجرك، المفضلة بإدارة تجرك، المهتدية بأنوار فجرك، وهل هو إلا ثمرات سعيك، ونتائج رعيك، وبركة حبك، ورضاك الكفيل برضا ربك، وغمام رعدك، وإنجاز وعدك، وشعاع من نور سعدك، وبذر يجنى ريعه من بعدك، ونصر رايتك، وبرهان آيتك، وأثر حمايتك ورعايتك.

واستنبْتُ[1] هذه الرسالة مائحةً بحرِ الندى الممنوح، ومفاتحه باب الهدى بفتح الفتوح، وفارعة المظاهر والصروح، ملقية الرحل بمتنزل الملائكة والروح، لتمد إلى قبولك يد استمناح، وتطير إليك من الشوق الحثيث بجناح، ثم تقف موقف الانكسار، وإن كان تجرها آمنا من الخسار، وتقدم بأنس القربة، وتحجم بوحشة الغربة، وتتأخر بالهيبة، وتجهش لطول الغيبة، وتقول: ارحم بعد دارى، وضعف اقتدارى، وانتزاح أوطانى، وخلو أعطانى، وقلة زادى، وفراغ مزادى، وتقبل وسيلة اعترافى، وتغمد هفوة اقترافى، وعجل بالرضا انصراف متحملى لانصرافى، فكم جبت من بحر زاخر، وقفر بالركاب ساخر، وحاشا لله أن يخيب قاصدك، أو تتخطانى مقاعدك، أو تطردنى موائدك، أو تضيق عنى عوائدك، ثم تمد مقتضية مزيد رحمتك، مستدعية دعاء من حضر من أمتك، وأصحبتها - يا رسول الله - عرضا من النواقيس التى كانت بهذه البلاد المفتتحة تعيق الإقامة والأذان، وتسمع الأسماع الضالة والآذان، مما قبل الحركة، وسالم المعركة، ومكن من نقله الأيدى المشتركة، واستحق بالقدوم عليك، والإسلام بين يديك، السابقة فى الأزل البركة وما سواها، فكانت جبالا عجز عن نقلها الهندام[2]، فنسخ

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٧٨.

(٢) الهندام: الآلة.

وجـودها الإعـدام، وهى - يا رسـول الله - جنى مـن جنانك، ورطب من أفنانك، وأثر ظهر عليها من مسحة حنانك.

هذه[1] هى الحال والانتـحال، والعائق أن تشد إليك الرحـال، ويعمل الترحال، إلى أن نلقاك فى عرصات القيـامة شفيعا، ونحل بجاهك - إن شاء الله - محـلا رفيـعا، ونقدم فى زمـرة الشهـداء الدامية كلومـهم من أجلك، الناهلة غللهم فى سـجلك، ونبتـهل إلى الله الذى أطلعك فى سمـاء الهداية سراجا، وأعلى لك فى السبع الطباق معراجا، وأم الأنبياء منك بالنبى الخاتم، وقفى على آثار نجومـها المشرقة بقمـرك العاتم، - أن لا يقطع عن هذه الأمة الغربية أسبابك، ولا يسد فى وجوهها أبوابك، ويوفقها لاتباع هداك، ويثبت أقدامـها على جهاد عـداك، وكيف تعدم ترفـيها، أو تخشى بخـسا - وأنت موفيهـا، أو يعذبها الله - وأنت فيها، وصـلاة الله وسلامه تحط فنائك رحال طيبها، وتهـدر فى ناديك شقاشق خطيبها، - مـا أذكر الصباح الطلق هداك، والغمـام السكب نداك، وما حن مشـتاق إلى لثم ضريحك، وبللت نسـمات الأسحار مما استرقت من ريحك، وكتب فى كذا.

ولنرجع إلى نثر القاضى عياض - رحـمه الله - فنقول: حدث الأستاذ الفقيه النبـيه، الخطيب الأريب، أبو عبد الله محمد ابن الشـيخ الفقيه الخطيب المدرس أبى العبـاس أحمد بن أبى جـمعة الوهرانى، أن والده المذكـور، كان يخطب بخطبة القاضى عـياض أبى الفضل، قال: ومن لفظه حفظتـها، وكان حفظها الوالد المذكور، من خطيب كان عندهم بوهران يسمى محمد بن أحمد ابن خرزوزة القـيسى - رحم الله الجـميع - وهى[2]: الحمد لله الذى افـتتح

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٣٧٩.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

بالحمد كلامــه، وبين فى سورة «البقرة» أحكامه، ومد فــى آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه، وجعل فى الأعراف - أنفال - توبة - يونس، وألر كتاب أحكمت آياته، بمجاورة يوسف الصــديق فى دار الكرامة، وسبح الرعد بحمده، وجـعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ليوقــن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجـأ إلا إليه، ولا يظلمون قلامة، وجعل فى حروف كهيعص سرا مكتوما قــدم بسببه طه ﷺ - على سائر الأنبياء، ليظهر إجــلاله إعظامه، وأوضح الأمـر حتى حج المــؤمنون بنور الفرقــان والشعــراء صاروا كالنمل ذلا وصغارا لعظمتــه، وظهر قصص العنكبوت فآمن به الروم، وأيقنوا أنه كـــلام الحى القــيــوم، نزل به الروح الأمــين عــلى زين من وافى القيــامة، وأفصح لقمــان الحكمة بالأمر بالسجــود لرب الأحزاب فسبــا فاطر السموات أهل الطاغوت، وأكسبهم ذلا وخزيا وحسرة وندامة، وأمد ياسين - ﷺ - بتأييــد الصافات، فصاد الــزمر يوم بدر وأوقع بهم لما أوقع صناديدهم فى القليب بين مكدوس ومكبــوب، شالت بهم النعامــة، وغفر غــافر الذنب وقابل التوب للبــدريين - رضى الله عنهم - ما تقدم وما تأخــر حين فصلت كلمات الله، فذل من حقت عليه كلــمة العذاب وأيس من السلامة، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم، وشــغلهم زخرف، الآخرة عن دخان الدنيا فــجثوا أمام الأحقاف لقتــال أعداء محمد - ﷺ - يمينه وشماله وخلفــه وأمامه، فأعطوا الفتح وبوئوا حــجرات الجنان، حيــن تلوا ق والقرآن المجيــد، وتدبروا جواب قسم الذاريات والطور، لاَحَ لَهُم نجم الحقيقة، وانشق لهم قمر اليقين، فنافروا السآمــة، ذاك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت الواقــعة واعتــرف بالضعف لهم الحديد وهزم المجــادلون وأخرجوا من ديارهــم لأول الحشر، يخــربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين حين نافروا السلامة، أحمده حمد من امتحنته صفوف

الجموع فى نفق التغابن فطلق الحرمات حين اعتبر الملك وعامه، وقد سمع صريف القلم وكأنه بالحاقة والمعارج يمينه وشماله وخلفه وأمامه، وناح نوح الجن، فتزمل وتدثر، فرقا من يوم القيامة، وأنس بمرسلات النبأ، فنزع العبوس من تحت كور العمامة، وظهر له بالانفطار التطفيف، فانشقت بروج الطارق بتسبيح الملك الأعلى وغشيته الشهامة، فورب الفجر والبلد، والشمس والليل والضحى: قد انشرحت صدور المتقين، حين تلوا سورة التين، وعلق الإيمان بقلوبهم، فكل على قدر مقامه يبين، ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه، إذا ذكروا الزلزلة، ركبوا العاديات ليطفئوا نار القارعة، ولم يلههم التكاثر حين تلوا سورة العصر والهمزة، وتمثلوا بأصحاب الفيل فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، أرأيتهم كيف جعلوا على رءوسهم من الكون عمامة، فالكوثر مكتوب لهم والكافرون خذلوا وهم نصروا، وعدل بهم عن لهب الطامة، وبسورة الإخلاص قروا وسعدوا، وبرب الفلق والناس استعاذوا فأعيذوا من كل حزن وهم وغم وندامة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شهادة ننال بها منازل الكرامة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ما غردت فى الأيك حمامة، وسلم تسليما.

انتهت الخطبة المنسوبة للقاضى - رحمه الله - حسبما ألفيت ذلك كله فى بعض المقيدات بفاس المحروسة، فنقلتها كما وجدتها - وفى قلبى من نسبتها إلى القاضى عياض رحمه الله تعالى - شىء - والله أعلم.

وقد وقفت على نظيرتها منسوبة لغيره بتلمسان، بخط مولانا الإمام المفتى الخطيب العلامة شيخ الشيوخ عمنا سيدى سعيد بن أحمد المقرى - صب الله عليه شآبيب رضوانه.

ونصها[1]: الحمد لله الذى افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة، ليصطفى من آل عمران نساء ورجالا وفضلهم تفضيلا، ومد مائدة أنعامه، ورزقه ليعرف أعراف أنفال كرمه، وحقه على أهل التوبة، وجعل ليونس فى بطن الحوت سبيلا[2]، ونجى هودا من كربه وحزنه، كما خلص يوسف من جبه وسجنه، وسبح الرعد بحمده ويمنه، واتخذ الله إبراهيم خليلا، الذى جعل فى حجر الحجر من النحل شرابا نوع باختلاف ألوانه، وأوحى إليه بخفى لطفه سبحانه، واتخذ منه كهفا قد شيد بنيانه، وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلا، وفضل طه على جميع الأنبياء فأتى بالحج والكتاب المكنون، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون، إذ جعل نور الفرقان دليلا، وصدق محمدا - ﷺ - الذى عجزت الشعراء عن صدق نفثه، وشهدت النمل بصدق بعثه، وبين قصص الأنبياء فى مدة مكثه، ونسج العنكبوت عليه فى الغار سترا مسدولا، وملئت قلوب الروم رعبا من هيبته، وتعلم لقمان الحكمة من حكمته، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته، وهزم الأحزاب وسباهم، وأخذهم أخذا وبيلا، فلقبه فاطر السموات والأرض بياسين، كما نفذ حكمه فى الصافات، وبين صاد صدقه بإظهار المعجزات، وفرق زمر المشركين، وصبر على أقوالهم وهَجَرَهم هجرا جميلا، فغفر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر وفصلت رقاب المشركين إذا لم يكن أمرهم شورى بينهم، وزخرف منار الإسلام، وخفى دخان الشرك، وخرت المشركون جاثية، كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلا، وأذل الذين كفروا بشدة القتال، وجاء

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣٣٥.

(٢) هذا الصواب فى نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «وجعل ليونس، فى بطن الحوت سبيلا، ونجى التوبة، وجعل ليونس، فى بطن الحوت سبيلا.

الفتح للمؤمنين والنصر العزيز، وحجر الحجرات الحريز وبقاف القدرة قتل الخراصون تقتيلا، كلم موسى على جبل الطور فارتقى نجم محمد - ﷺ - فاقتربت بطاعته مبادئ السرور، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور، فتعجب الحديد من قوته، وكثرت المجادلة فى أمته، إلى أن أعيد فى الحشر بأحسن مقيلا، امتحنه فى صف الأنبياء وصلى بهم إماما، وفى تلك الجمعة ملئت قلوب المنافقين من التغابن خسرا وإرغاما، فطلق وحرم، تبارك الذى أعطاه الملك وعلم بالقلم، ورتل القرآن ترتيلا، وعن علم الحاقة. كم سأل سائل؟ فسأل الإيمان، ودعا به نوح فنجاه الله من الطوفان، وأتت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن، فأنزل عليه: يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا، فكم من مدثر يوم القيامة شفقة على الإنسان إذا أرسل مرسلات الدمع فعم يتساءلون أهل الكتاب، وما تقبل من نازعات المشركين إذا عبس عليهم مالك وتولاهم بالعذاب، وكورت الشمس وانفطرت السماء عن اسم رب السماء، وكانت الجبال كثيبا مهيلا فويل للمطففين إذا انشقت السماء بالغمام، وطويت ذات البروج وطرق طارق الصور بالنفخ للقيام، وعز اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر، فيومئذ لا بلد ولا شمس ولا ليلا طويلا، فطوبى للمصلين الضحى عند انشراح صدورهم إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنة، فسجدوا باقرأ باسم ربك الذى خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار، ما أحيوا ليلة القدر، وتبتلوا تبتيلا، ولم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب من الزلزلة من صديق ولا حميم، وتسوقهم بالعبادات إلى سواء الجحيم، ونزلت بهم قارعة العقاب وقيل لهم ألهاكم التكاثر هذا عصر العذاب الأليم، وحشر الهمزة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون فتيلا، وقالت قريش. ما أمنتم من هول المحشر أرأيت الذى يكذب بالدين كيف طرد عن الكوثر، وسيق الكافرون إلى

النار، وجاء نص الله والفتح، فتبت يدا أبى لهب، إذا لا يجد إلى سورة الإخلاص سبيلا، فنعوذ برب الفلق من شر ما خلق، ونعوذ برب الناس، مالك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس الذى فسق. ونتوب إليه، ونتوكل عليه، وكفى بالله وكيلا.

انتهت الخطبة المنسوجة على سور القرآن، من إنشاء الفقيه الجليل، الشريف الكامل، أبى المجد عبد المنعم ابن الشيخ الفقيه العدل، أبى جعفر بن أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمى الطنجالى - رحمه الله ونفعنا به وبسلفه الطاهر الكريم. انتهى ما نقلت من خط مولانا الشيخ رحمه الله تعالى.

ولنرجع إلى ما كنا فيه فنقول ومن نثر القاضى عياض رحمه الله هذه الصلاة على رسول الله ﷺ حسبما وجدته ببعض المجاميع بمحروسة فاس - حاطها الله تعالى -، وقد تضمنت جملة من أوصافه - ﷺ - الطاهرة، ومعجزاته الباهرة، وكمالاته التى بها انفرد، وسار بها المثل واطرد، - ﷺ. ولست على يقين من نسبتها للقاضى عياض، والعهدة على من نسبها له - إن لم تصح النسبة. وهى: صلوا بكرة وأصيلا، على من فضله الله تفضيلا، واتخذه حبيبا وخليلا، ونزل عليه القرآن تنزيلا، وكان له وليا ونصيرا ومعينا وكفيلا، وختم به رسله، ونهج على يديه الكريمتين سبله، وزكى قوله وعمله، وبلغه أمله، وبالشفاعة فضله، ومشى على بساط عزه بنعليه، وفضل - ﷺ - على كل من يأتى بعده، وعلى كل من تقدم قبله، وانتخبه وعلمه، وأدبه وطيبه، وعظمه وحباه، واختاره لحبه وقربه، وخط اسمه سطرا على العرش وكتبه، وخصه بالفضائل، وشرفه بالفعائل، وختم برسالته جميع

الرسائل، وصدقه فيما هو قائل، ونهاه عن قهر اليتيم وانتهار السائل، وجعل الصلاة عليه من أعظم الوسائل، صلى عليه الملك العلام، هو وملائكته الكرام، وأمر جميع الأنام بالصلاة عليه والسلام، - إلى يوم البعث والقيام، فقال من لم يزل غفورا رحيما، إجلالا لنبيه وتعظيما، وولاية له وتنويها وتشريفا له وتكريما، وإرشادا لنا وتعليما ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

صلوا وتوسلوا بالنبى الأمى، الهاشمى القرشى، الأبطحى المكى، المدنى الحرمى، الزمزمى الحجازى التهامى العربى، الذى جاء بالكتاب المضى، والدين الحنفى، والقول الشرع، والحكم الجلى، والمقام العلى، ومكنه الله بلطفه الخفى، وحقق له إنجار وعده الوفى، فأشرقت فى الآفاق أنواره، وتكررت فى المسامع أخباره، وظهرت للأبصار معجزاته، وبلغت به حجة الله وتمت كلماته، وختم الله به كل رسله وأنبيائه، وأمر القمر بطاعته فأجابه بالتلبية عند ندائه، وانشق على نصفين عند دعائه، لما أمره بالانشقاق انشق، وتفرق وسطا وأشرق، وتكلم ونطق، وشهد له بالرسالة والحق، وركب البراق، وغاب عن الأبصار والأحداق، واخترق الفضاء والسبع الطباق، إلى مناجاة الملك الخلاق، فبلغ غاية أمده، ودنا من ربه حتى تناول ثمار القرب بيده، ﴿...دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم]، وبلغ كل وصل ومنى، وأعطى جميع ما تمنى، ففاز بالأمان وكلمة الرحمن، من غير واسطة ولا ترجمان، فنزل من أدراجه، والليل باق فى دواجه، وبشر أصحابه وأزواجه بما عاين فى معراجه، صفاته جميلة، وذاته جليلة، وأفعاله نبيلة، فى شعره سبج وفى جبينه بهج، وفى حاجبه زجج، وفى عينه دعج، وثغره

فلج، إذا مشى كان أعـدل الناس، وإذا تكلم أفصح الناس، وإذا جلس أعلى الناس، وإذا وعظ أبكـى الناس، صـاحب الوجـه المليح، والفم السـبيح الصحيح، والنسب الصريح، الرحـيم الودود، صاحب اللواء المعقود، والمقام المحمود، والحوض المورود، والوفاء بالعهود والكرم والجود، والشفاعة فى يوم الخلود، صـاحب القدر الجليل، والفـعل الجمـيل، والطرف الكحيـل، والخد الأسيل، والسيـف الصقيل، وعين السلسـبيل، وكأس الزنجبيـل، من أخبر به التنزيل، وبشر بـه التوراة والإنجيل، الموقـر، المعزر، صاحب الخطبـة والمنبر، والعمامة والمغـفر، والقضيب والمحشر، والحـوض والكوثر، والجبين الأزهر، الوجه الأقمـر، والحسب الأطهر، والنسب الأشهر، والحظ الأكـبر، من بشر وأنذر، وحج واعتمـر، وحلق ونحر، وهلل وكبر، وجاهد وانتـصر، وقاتل من كفـر، وبدين الله أمر، الطاهر المطهـر، المنتخب من خيـار أخيار مـضر، المؤيد المنصـور الممجـد المشكور، الشـهيـر المذكـور، صاحب اللواء المنشـور والجيش الجمهور، والبدن الصبور، والقلب الشكور، واللسان الذكور، والبهاء والنور، والولدان والحور، والغـرف والقصور النبى المختـار، الذى بشر به فى الجو الأطيـار، والحيتـان فى لجج البحـار، وكلمتـه الأحجار، وسـجدت له الأشجار، وخـمدت من نوره النار، ونسج عليه العنكبوت فى الغـار، معدن الحياة والوقار، وكنز الافـتخار، القائم بحجة الملك الجبـار، ومعلم المهاجرين والنصـار، فى آناء الليل وأطراف النهـار، النبى الأواب القائم فى المحـراب، الناطق بالصواب، الفصيح فى الخطاب من خضعت له الرقاب، وتواضعت له الصـعاب، ودعـا إلى الله وأناب، المنصـور يوم الأحـزاب، المنعـوت فى كل كتاب، النبى المهذب، الحسيب المقرب، خيـر العجم والعرب، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، النبى المكرم، المصطفى المحترم، عهدنا الذى لا ينفصم،

وحبلنا الذى لا ينصرم، من ضمن لأمته الشفاعة - وهم فى عدم العدم، خاتم الأنبياء، وقدوة الأصفياء، وإمام الأتقياء، وشفيع الأشقياء، نبى الثقلين وإمام الحرمين، وسيد الكونين والفريقين، وجد السطبطين الحسنين، وابن الذبيحين، من نصره الله فى بدر وحنين، وستره فى الغار فلم تره عين، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وسيد الآخرين، ومولى الأولين، وحبيب رب العالمين، أنزل الله فيه طه ويس، و"إنا فتحنا لك فتحا مبينا" والفتح المبين، وسماه بالمطاع والمكين، وأوصاه باليتيم والمسكين، ونصره على أعدائه المشركين، رسول الله وخليله، وصفيه ونجيه، وخيرته من جميع خلقه، الذى جعل له الأرض مسجدا وطهورا، وأحل له الغنائم - وكانت حجرا محجورا، ونصره بالرعب سنين وشهورا، وأنزل عليه القرآن هدى ونورا، فانتظم لفظه مسطورا، فأحيا نفوسًا وشفى صدورا، وبعث إلى الأحمر والأسود ونهج سعيا كان مشكورا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ولهج فى المقالة، وسد مسلك الضلالة، وقاتل أهل الشرك والجهالة، المختار من تهامة، المخصوص بالتاج والعمامة، واللواء والحوض والكرامة، الشفيع فى أهوال يوم القيامة، المنقذ من الحسرة والندامة، الداعى إلى الله بالنجاة والسلامة، نبى ظللته الغمامة، وكلمته الغزالة، وبشرت به زرقاء اليمامة، ودلت عليه الشامة والعلامة، وكلمه الذراع المسموم، وشكا إليه البعير المظلوم، ومن معجزاته أنه من الخلق معصوم، صدع بأمر الله صدعا، وقمع الباطل قمعا، وأعطى من الآيات البينات آلاف آلاف، إن كان موسى أوتى تسعا، فما مجىء الشجرة تجر عروقها كرجوع العصا حية تسعى، وما فجر الحجر بأعجب من أنامله إذ نبعت بالزلازل نبعا، وكم من معجزة له تظهر، وآية هى من أختها أكبر، رجعت له الشمس وانشق له القمر، وسلم عليه الذئب، وكلمه الحجر، وبعثه الله رحمة للعالمين، ونعمة للمسلمين، وعصمة للنادمين، ونقمة للظالمين،

واستخرجه من شجرة طيبة أصلها فى الأرض نابت، وفرعها فى السماء ثابت، بسق من الخليل عودها، وانشق بإسماعيل عمودها، وتم بمحمد - ﷺ - صعودها، الحق زهرتها، والصدق ثمرتها، والهدى قنوانها، والتقوى أفنانها، من تعلق بها سلم، ومن لجأ إليها عصم، ومن استظل بها غنم، ومن عاندها حطم، ومن خاصمها قصم، اشهد يا من حضر - والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا، - أن ما خلق الله أتقى، ولا أنقى، ولا أرقى، ولا أزكى، ولا أذكى، ولا أبهى، ولا أنهى، ولا أوفى، ولا أصفى، ولا أكفى، ولا أشفى، ولا أفضل، ولا أكمل، ولا أجمل، ولا أجل، ولا أعدل، ولا أعقل، ولا أملح، ولا أصفح، ولا أنصح، ولا أصلح، ولا أسمح، ولا أحكم، ولا أفهم، ولا أعظم، ولا أعبد، ولا أزهد، ولا أمجد، ولا أنجد، ولا أجود، ولا أوحد، ولا أصعد، ولا أقعد، ولا أسعد، ولا أسجد، ولا أركع، ولا أرفع، ولا أشجع، ولا أنفع، ولا أقمع، ولا أمنع، ولا أخشع، ولا أشفع، ولا وطئ الثرى، ولا السرى، ولا ولدت ثيب ولا عذراء، ولا يلدن أبدا، - مثل سيدنا ونبينا ومولانا محمد - ﷺ - تسليما، عميا مستديما، ما نطق ناطق، وما راقب عاشق، وما ذر شارق، وشرف وكرم، ومجد وعظم، وجاد وأنعم، وتحنن وترحم، وعلى آله الطيبين، الراضين المرضيين، ورضى الله عن أنصاره وأصهاره وخلفائه الراشدين، وعن الأئمة المهتدين، وعن عامة أصحابه أجمعين، ومن عمل بسنته إلى يوم الدين، أدعوك - اللهم - وأتضرع إليك، بكل من دعاك وناداك، يا الله، يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا حنان، يا منان، يا ديان، يا حليم، يا كريم، وبتعميم كريم كرمك، وبإقرار قرار عرشك، وبطول حول قوتك، وبتأكيد تأييد وكيد أرك، وبإيجاد إنفاذ كلماتك، وبتمجيد تحميد توحيد وحدانيتك، وبتبجيل

تجليل تهليل مشتك، وبجلال جمال كمال ربوبيتك، وبتبجيل تجليل نور وجهك، وبرضوان أمان غفران رحمتك، وبعظيم تكريم تحكيم مملكتك، وببديع منيع رفيع ألوهيتك، وبديموم قيوم سلطانك، وبتحقيق الحق من حقك، وبمكنون السر من سرك، وبوحدانيتك، وبصمدانيتك، وبربوبيتك، وبطهارتك، وبجبروت ملكك، وبعزتك الباهرة، وبقدرتك القاهرة، وبرحمتك الواسعة، يا من ليس فوقه شيء فيظله، ولا له خلف فيسده، ولا أمام فيحده، ولا جانب فيبعده، يا من تنزه عن الفكر والضمير، يا من تعالى عن الشبيه والنظير، يا من جل عن المشرف والوزير، يا من "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

«يا لطيف، يا لطيف، يا خبير، أسألك اللهم وأتوسل إليك، بشفاعة نبينا محمد، بشجاعة نبينا محمد، ببراعة نبينا محمد، بطاعة نبينا محمد، بقناعة نبينا محمد، بسعادة نبينا محمد، بعبادة نبينا محمد، بزهادة نبينا محمد، بسيادة نبينا محمد، بديانة نبينا محمد، بصيانة نبينا محمد، بسياسة نبينا محمد، برسالة نبينا محمد، برئاسة نبينا محمد، بسلامة نبينا محمد، بكرامة نبينا محمد، بعمامة نبينا محمد، بغمامة نبينا محمد، بملاحة نبينا محمد، بفصاحة نبينا محمد، بصباحة نبينا محمد، بإنابة نبينا محمد، بإجابة نبينا محمد، بإهابة نبينا محمد، بحظ نبينا محمد، بحوض نبينا محمد، بأمر نبينا محمد، بدعاء نبينا محمد، بنداء نبينا محمد، برداء نبينا محمد، بحنان نبينا محمد، بثناء نبينا محمد، بسناء نبينا محمد، بسخاء نبينا محمد، بوفاء نبينا محمد، بصفاء نبينا محمد، بارتقاء نبينا محمد، باهتداء نبينا محمد، باقتداء نبينا محمد، بعلم نبينا محمد، بفهم نبينا محمد، بحلم نبينا محمد، بفضل نبينا محمد، بعدل نبينا محمد، بسنة نبينا محمد، بملة نبينا محمد،

بجلال نبينا محمد، بجمال نبينا محمد، بكمال نبينا محمد، بأفعال نبينا محمد، بأقوال نبينا محمد، بنوال نبينا محمد، بخصال نبينا محمد، بخشوع نبينا محمد، بخضوع نبينا محمد، بركوع نبينا محمد، بسجود نبينا محمد، بدموع نبينا محمد، بتواضع نبينا محمد، بتضرع نبينا محمد، بوعود نبينا محمد، بعهود نبينا محمد، بورود نبينا محمد، بوجود نبينا محمد، بجود نبينا محمد، بجدود نبينا محمد، ببيان نبينا محمد، ببرهان نبينا محمد، بإيمان نبينا محمد، بأمان نبينا محمد، بمنهاج نبينا محمد، بسراج نبينا محمد، بمعراج نبينا محمد، بإدراج نبينا محمد، بقيام نبينا محمد، بصيام نبينا محمد، بإحرام نبينا محمد، بإكرام نبينا محمد، بسلامة نبينا محمد، بكلام نبينا محمد، بإقدام نبينا محمد، بزمام نبينا محمد، بنصر نبينا محمد، بصبر نبينا محمد، بفخر نبينا محمد، بذكر نبينا محمد، بشكر نبينا محمد، بصدر نبينا محمد، بقلب نبينا محمد، بحب نبينا محمد، بطب نبينا محمد، بقرب نبينا محمد، بحسب نبينا محمد، بصدق نبينا محمد، بسبق نبينا محمد، بحق نبينا محمد، بأذكار نبينا محمد، بأسرار نبينا محمد، بأنوار نبينا محمد، بمقدار نبينا محمد، بسيرة نبينا محمد، بسريرة نبينا محمد، بعشيرة نبينا محمد، وبكل فضل ينسب إلى سيدنا ومولانا محمد، وأن تقبل فينا شفاعة سيدنا ومولانا محمد، بجميع مطالبى منك، كما لا غنى لى عنك، يا أرحم الراحمين، اللهم - وكما حببته وقربته، وكما حفظته وحجبته، وكما أخبرته ونبأته، وكما اخترته وطيبته، وكما أسميته ورفعته، وكما أعطيته وشفعته، - اقبل فينا شفاعته، وارزقنا بركته، وقناعته، ومحبته طاعته، وصل صلاتك - يا ربنا - عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الطيبين الطاهرين، الراضين المرضيين، - عدد ما فى علم الله، صلاة دائمة بدوام

ملك الله، وعدد مـا خلقت وأنت خالق - إلى يوم الدين، وآخـر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

انتهت، قلت ولا خـفاء أن هذا الكلام مـياسم الوصول عليـه لائحة، ونواسم القبـول لديه فائحة، وكيـف لا وقد اشتمل على جـملة من أوصاف الماحى العاقب، ونبـذة مما له من المفاخر والمنـاقب، فحق لمن توسل الله به أن يجاب، ولمن توصل بسببـه أن يزال عن قلبه الحجاب، وينزاح عنه ظلام الران وينجاب، ويتيه عند سماعه ويلحـقه الإعجاب، ولعمرى أن مثل هذه الوسيلة نظيرها قليل، وهى على صديقية صـاحبها أعظم دليل، نسأل الله - بجاه هذا النبى المتوسل به فيها - أن يجعلنا من خيار أمته، وأن يديم لنا عوارف نعمته، ويختم لنا بالحسنى، ويلحقنا بالمـقام الأسنى، ويقينا فى الدارين من المهالك، ويسلك بنا أحسن المسالك، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

وقد سلك هذا المسلك الحسن جمـاعة يطول تعدادهم، فمنهم المطول، ومنهم المختصـر، ولنذكر بعض ذلك على سبيل التبـرك بهذا النبى المصطفى، عليـه أفضل الصـلاة وأزكى السلام، ومن ذلك مـا وجد بخط بلدينا الشـيخ الإمام الصالح سيدى محمد بن عمر الملالى - رحمه الله - وهى:

اللهم صل على سيـدنا محمـد بحر أسرارك، ومعـدن أنوارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، وطراز ملكك وخـازن رحمتك، وطريق شريعتك المتلذذ بمشهادتك، عين أعيان خلقك، المتقدم من نور ضيائك، صلاة ترضيك وترضيـه ترضى بهـا عنا يا رب العالمين. اللهم يا سـامع الدعاء، لا تخـيب الرجاء، لك الملجـأ، وإليك الملتجـأ، وبك النجاء، عليك توكلت، وبسـيدنا محمد ﷺ توسلت - نبى الهدى. انتهت.

ومن ذلك ما وجدته فى بعض المجاميع، أن يقال - بعد ركعتى الفجر بـ ألم نشرك وألم تر - ما نصه:

اللهم صل وسلم على سيدنا ونبينا ومولانا محمد سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، السيد الكامل، الفاتح الخاتم، الحبيب الشفيع، الرءوف الرحيم، الصادق الأمين، السابق للخلق نوره، الرحمة للعالمين ظهوره، عدد من مضى من خلقك ومن بقى، ومن سعد منهم ومن شقى، صلاة تستغرق العد، وتحيط بالحد، صلاة لا غاية لها ولا منتهى، ولا أمد لها ولا انقضاء، صلاتك التى صليت عليه صلاة دائمة بدوامك، باقية ببقائك، لا منتهى لها دون علمك، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه وذريته وأصهاره وأنصاره، وسلم مثل ذلك، والحمد لله على ذلك، وأجر يا مولانا خفى لطفك، فى أمورنا وأمور المسلمين كذلك. انتهت.

قيل هذه الصلاة تعدل عشرة آلاف صلاة، وفضل الله واسع.

ومن ذلك صلاة الولى الصالح، القطب عبد السلام بن مشيش، أفاض الله علينا من بركاته:

اللهم صلى على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزلت علوم آدم فأعجزت الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت يفيض أنواره متدفقة، وأرجاء الملك بسناء كماله مصبحة مشرقة - ثبت هذا فى بعض النسخ، وسقط فى الأكثر - ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب - كما قيل - الموسوط، صلاة تليق بك منك إليه - كما هو أهله، اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك

الأعظم القائم بك بين يديك، اللهم ألحقنى بنسبه، وحققنى بحسبه، وعرفنى إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل، وأحملنى على سبيله إلى حضرتك، حملا محفوفا بنصرتك، واقذف بى على الباطل فأدمغه، وزج بى فى بحار الأحدية، وانشلنى من أوحال التوحيد، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحى، وروحه سر حقيقتى، وحقيقته جامع عوالمى، بتحقيق الحق الأول، يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن، اسمع ندائى بما سمعت به نداء عبدك زكريا، وانصرنى بك لك، وأيدنى بك لك، واجمع بينى وبينك، وحل بينى وبين غيرك، الله، الله، الله، "إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد»، ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ⑩﴾ [الكهف]. انتهت. وصى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وهذه صلاة مباركة نقلتها من خط سيدنا العارف الربانى سيدى حسين الزرويلى - حفظه الله.

وهى: اللهم صل على سيدنا محمد السابق للخلق نوره، الرحمة فى العالمين ظهوره، عدد من مضى من خلقك ومن بقى، ومن سعد منهم ومن شقى، صلاة تستغرق العد، وتحيط بالحد، لا غاية لها ولا انتهاء ولا انقضاء، تنيلنا بها منك الرضى، صلاتك التى صليت عليه، دائمة بدوامك، باقية ببقائك، لا منتهى لها دون علمك، - إنك على كل شىء قدير. انتهت.

وبخطه أيضا:

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله، عدد نعم الله وإفضاله، قال إنها صلاة مباركة.

ومن خطه أيضا:

اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، وإمام حضرتك، وعروس مملكتك، ولسان حجتك، وقائد الغر المحجلين إلى جنتك، صلاة دائمة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين. انتهت.

ومنه: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله واعطه الوسيلة، واجعل فى المصطفين صحبته، وفى العالمين درجته، وفى المقربين داره، اللهم تقبل شفاعة سيدنا محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وآته سؤله فى الآخرة والأولى، - كما آتيت إبراهيم وموسى - يارب العالمين. انتهت.

اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات، وتقضى لنا بها جميع الحاجات، وتطهرنا بها من جميع السيئات، وترفعنا بها أعلى الدرجات، وتبلغنا بها أقصى الغايات، من جميع الخيرات فى الحياة وبعد الممات.

انتهى ما وجدته بخط هذا الشيخ، وبعضه مرفوع، وقد ذكر غير واحد، وقصدى بذكر ذلك التبرك.

وأفادنى الشيخ العارف الشريف سيدى محمد بن على بن ريسون.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله، كما لا نهاية لكمالك وعد كماله، قال: والصلاة بألف أو عشرة آلاف - الشك منى لطول العهد ولم أجد فى الحالة البطاقة التى نقلت عنه فيها ذلك.

وهذه صلاة أخرى، لها بركة، وهى لسيدى أبى المواهب - نفعنا الله به-.

اللهم صل على حضرة الأسرار، ومنبع الأنوار، مطهر النفوس من الرذائل، وأطهر مولود فى سائر القبائل، عروس المملكة الربانية، وبهجة الاختراعات الأكوانية، وإمام الحضرة القدسية، معلم الخير، وأعلم الخلق، وناصح الأمة، وحبيب الحق، أكرم الأنبياء والمرسلين، ورسول رب العالمين، سيدنا ومولانا محمد - ﷺ، سيد السادات، وقطب دوائر السعادات، وسلم عليه على قدر مقامه، وإجلاله وإعظامه وإكرامه، والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، صلاة وسلاما دائمين بدوامك، باقيين ببقائك، ولا منتهى لهما دون علمك، إنك على كل شىء قدير. انتهت.

وهذه صلاة الإمام العارف الربانى الولى الصالح سيدى أبى إسحاق، إبراهيم بن الحاج السلمى البلفيقى ثم المريى، دفين مراكش - حرسها الله ونفعنا به.

قال ابن خاتمة: حكى هذه الصلاة شيخنا أبو البركات ابن الحاج، عن الشيخ الصالح الحاج الصوفى أبى الإصبغ بن عزرة، قال:

أخذتها عن رابِّك[1] الشيخ الصالح الحاج أبى عبد الله محمد بن على ابن الحاج - مشافهة، وقال لى: إنها صلاة سيدى أبى إسحاق بن الحاج، وهى[2]:

اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، صلاة دائمة مستمرة تدوم بدوامك، وتبقى ببقائك، وتخلد بخلودك، ولا غاية لها دون مرضاتك، ولا جزاء لقائلها ومصليها غير جنتك، والنظر إلى وجهك الكريم.

---

(١) يعنى مربيك.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٤٧٧.

قال: وله - رضى الله عنه - دعـاء، وهو من المأثور عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - لما وجه جعفرا إلى الحبـشة، شيعه وزوده بكلمات، قال: قل: اللهم الطف لى فى تيسـير كل عسير، فإن تيـسير العسيـر عليك يسير، وأسألك اليسر والمعافاة فى الدنيا والآخرة.

وهذا دعاء آخر له - رضى الله عنه - كان يستـفتح به مجلسه بألْمرية، قال ابن خاتمة نقله شيخنا القـاضى أبو البركات من خط الولى أبى العباس بن مكتوم، وهو:

اللهم اجـعلنا فى عيـاذ منك منيع، وحصن حـصين، وولاية جـميلة، حتى تبلغنا آجالنا مستورين محـفوظين، مبشرين برضوانك يوم لقائك. قال: وفى وسط الدعاء وآخره: واكـفنا عدونا إبليس، وأعداءنا من الجن والإنس، بعافيتنا وسلامتنا - انتهى.

ومن بديع كلام أبى إسحق المذكور قوله: الناس إذا كان الفاضل حيا لم يقصدوه، فإذا مات وصار جيفة مثلهم قصدوا قبره.

ومن كلامه - أيضـا: من أحب معرضا عن الله، سـقط من عين الله، ومن أحب لله وأبغض لله، فهو من صفوة الله.

ومن رشيق كلامه: الـذى صححته التجربة - السـودان لا يخدمهم إلا من قلبه لونهم.

ومن أذكاره - رضى الله عنه - هذا الاستغفار: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيـوم، عالم الغيب والشهـادة الرحمن الرحيم، وأسـأله التوبة النصوح، والعفو عنى وعن والدى، وعن إخوانى، عن الذين ظلمونى، وعن

الذين ظلمتهم، وعن كل مذنب من المسلمين، من كان منهم أو يكون، وأسأله طهارة السر من حب الدنيا، ومن حب أهلها، ومن حب المحمدة، ومن خوف المذمة، ومن السعى فى حظ نفسى، ومن الانتصار لها، ومن الحسد والشك والشرك والإعجاب، ومن كل حائل وحجاب، ومن غيبة المسلمين، والكذب والدعوى والانتساب، ومن الركون إلى سبب من الأسباب، يا حى يا قيوم، برحمتك أستغيث فأغثنى، ولا تكلنى إلى نفسى، ولا لغيرك طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله، وشأن إخوانى، وثبت قلبى على دينك حتى ألقاك - وأنت راض عنى برحمتك يا أرحم الراحمين. انتهى.

وكان سيدى أبو إسحاق المذكور ذا مقامات كبيرة، وكرامات شهيرة، فمن كراماته ما حكاه الأستاذ أبو جعفر بن الزبير، عن الشيخ أبى العباس بن فرتون، قال حدثنى صاحبنا الفقيه القاضى أبو محمد عبد الله البخارى بمدينة سبتة، قال دخلت مع بعض أصحابى على الشيخ أبى إسحاق بموضع سكناه بألمرية - زائرا فسأل عنى فأخبره المسئول أنى أسدد فى البوادى بالقضاء، وأنى أتحرى فلا آخذ شيئا إلا من توثيقى، قال فتنمر الشيخ وقال: من أمر القاضى أن يأخذ شيئا؟ هل هو واسطة بين الله وبين الناس؟ قال: فقلت: إن بى حمى، فادع الله أن يصرفها عنى، فقال: لأى شىء تقول هذا - وكل يوم يعدد عليك فى ذلك أجر؟ ثم همس بشفتيه وحركهما - داعيا، ثم قال لى: لا عليك، فما تراها أبدا، قال: فلم تأخذنى حمى من ذلك الوقت إلى الآن.

ومن كراماته - رضى الله عنه - أنه كان من جملة أصحابه رجل ناسك فاضل قارئ، يصلى به التراويح فى شهر رمضان فى إبان العصير، وكان أبو

إسحاق فى جنة له بخارج ألمرية، وكان يقدم فى كل ليلة لذلك القارئ والجماعة من أصحابه - طبقا بعنب وثريدا بعد ذلك، فلما كان فى بعض الأيام جاء ذلك القارئ ليتوضأ فى صهريج تلك الجنة بعد العصر، فرأى العنب فى العريش الذى على الصهريج، فحدثته نفسه بأن لو قرب المغرب ليأكل منه، ثم عاد على نفسه باللوم لتعلقها بالشهوات وهو صائم، وعقد على نفسه فيما بينه وبين الله - تعالى - عقدا أن لا يأكل العنب بقية سنته تلك، فلما جاء المغرب، قدم لهم الشيخ بعد المغرب الثريد، ولم يقدم العنب، فبقى القارئ متعجبا، فقال له الشيخ: ما شأنك؟ فقال له: يا سيدى، كنت قد عودت الأصحاب عادة ولم نرها الليلة؟ فقال له الشيخ: أنت فعلت ذلك، فلم يسعنا إلا موافقتك فيما عقدته مع الله، قال: وبقى الشيخ لم يأكل العنب سنته تلك، لموافقته التلميذ.

قلت: ومن أغرب ما شاهدته من كرامات الشيخ أبى إسحاق - رضى الله عنه: أنى كنت أكتب كراماته هذه فى يوم عظيم المطر - وأنا قريب من موضع نزول المطر لأمر اقتضى ذلك، وماء المطر مجتمع أمام موضع جلوسى، فطارت الورقة من يدى لسبب اقتضى ذلك، ووقعت على موضع الماء، فاغتممت لذلك - خوف أن أعيد الورقة، ولم أبادر أخذ الورقة لبعدها منى، فجاءت صبية عادتها أن تناولتنى ما بعد عنى، فرأت الورقة على موضع الماء، فتناولتها من طرفها فلم تمسكها، بل زادت حركة على موضع الماء، فازددت غما، ثم أخذتها مرة أخرى، فناولتنيى إياها، فبالله الذى لا إله إلا هو، ما أصاب موضع الكتابة من ذلك شىء البتة - ببركة هذا الشيخ. وأصاب آخر الطرة من ذلك شىء نادر مثل رءوس الإبر، فسبحان من خصهم

بمنحه الفاخرة، نسأله - سبحانه - أن ينفعنا بهم دنيا وآخرة، وكان هذا - وأنا أكتب فى مسودة هذا الكتاب يوم الأربعاء ثانى ربيع النبوى من عام سبع وعشرين وألف.

ولنعد إلى ذكر هذا الشيخ فنقول: كان رحمه الله أحد الأفراد العباد، والأولياء الأتقياء، الذين علا قدرهم وفاق، وطبق ذكرهم الآفاق، وممن طار صيته كل مطار، وأخذت جلالته بالأسماع والأبصار، وكان للمرية الشفوف به على سائر الأقطار، شمس الولاية وبدرها، وأوحد الأندلس وصدرها. وكان - رحمه الله - مشهورا بالولاية، مرفوعا له فى الدين والصلاح أرفع راية، جاريا فى التبتل والانقطاع إلى الله - تعالى - إلى أبعد غاية، مع كمال العلم والمعرفة، والتحلى من الفضائل بكل حلية حميدة الصفة، ورسوخ القدم فى علوم الحقيقة، والجرى فى سبيل سنة الصوفية على أقوم طريقة، والمشاركة فى فنون الآداب، والأخذ من كل علم بلباب اللباب، هكذا وصفه ابن خاتمة، وقال: إنه كان عالما عاملا، فقيها أديبا، شاعرا محسنا، سهل العبارة، لطيف الإشارة، صوفيا سنيا، طاهرا سريا، عالى الهمة، كريم العشرة، صادق الفراسة، عظيم الجاه فى القلوب، سامى الرئاسة، شديد الالتزام لمذهب مالك - رضى الله عنه -، لا يسمح من مخالفته فى شىء، قلما لازمه أحد إلا وحسنت حاله فى دينه ودنياه ولا دعا له إلا ظهرت بركة دعائه فى عقبه وعقباه، وكان حصن بلفيق وما يليه، هو موضع انتجاعه واستغلاله، إذا كان مملوكا له كثير من أملاك ذلك الصقع وأحقاله، فصار بذلك نجعة للفقراء والمساكين، وكعبه للأولياء والصالحين، يقوم على من قصده ببره وإرفاقه، ويكفيه المؤن حتى ينسيه ذكر آفاقه، فكان إليه حج كل حاج، وزيارة

ذوى الآمال والحاج، ومع ذلك فكان يقرئ جاهلهم القرآن العظيم، ويعلمه من أمور دينه ما هو جدير بالتعليم، ويصرف بطالهم فيما يناسب حاله من الأشغال، ويحضهم على اتخاذ الحرف وملازمة الأعمال، ويحمل من صحبه من أمر دينه ودنياه على أحسن الأحوال، وكان هناك ذا أرض أريضة، وثروة عريضة، فبسعة ما كان يفيض عنه من العطاء، ويعم رفده من قصده من كافة الأنحاء، صار متهما عند بعض السفارة الضعفاء، بصناعة الكيمياء، كما رمى بذلك كثير من الأولياء.

قال ابن خاتمة: حكى لى شيخنا حفيده القاضى أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الشيخ الوالى أبى إسحاق هذا - رضى الله عنه:

قال: نزل بالشيخ أبى إسحاق بن الحاج - رضى الله عنه - بعض الفقراء السفارة، وكان كلما قصده أحد، أنزله وقام عليه برفده وضيافته ثلاثا، ثم يسأله عن حاجته، فإن كان ممن حاجته فى المقام وقام، وإلا قضى حاجته وانصرف، فسأل هذا الفقير عن قصده - على العادة، فقال له: إنه بلغنى أنك تعرف الكيمياء، وأريد أن أصحبك وأخدمك - على أن تطلعنى عليها، وتعلمنى إياها، فقال له: نعم، فلما كان من الغد استصحبه حتى وقف به على أرض غامرة، وشعراء ملتفة قد شرع بناسه وعبيده فى فتحها وتصييرها أحقالا للزراعة، أملاكا للاستغلال، فقال له الشيخ أبو إسحاق: هذه كيمياء إبراهيم، فإن شئت تعلمها، فتناول فأسا من تلك الفئوس، وخذ مكانك من الخدمة.

ومآثر هذا الولى مما يعيى التعديد، ولا يزال يطرق سمعك منها جديد

فجـديد، قرأ القـرآن العظيم لأول طلبه على الأسـتاذ أبى مـحمد الـبسطى، خطيب ألْمرية ومـقرئها، وعلى الأسـتاذ المقرئ الخطـيب أبى الحسن على بن محمد بن مجبر الزهرى.

وأخذ عنه القـراءات السبع إفـرادا وجمعـا، وعلى الأستـاذ أبى القاسم محمـد بن على بن محمـد الهمدانى البراق، وروى الحـديث عن أبى الحسن على بن أحمد، وعن المحـدث أبى جعفر أحمد بن يحـيى الضبى، والقاضى أبى محمد عبد المنعم بن محمـد بن عبد الرحيم بن الفرس، وأبى بكر محمد بن أبى زمنين، وأبى عـمر بن عـات، فى جماعـة آخرين. وصـحب بألمرية الشيخ العالم الربانى الزاهد صاحب الكرامات، أبا عبد الله محمد بن يوسف الغزال، وقرأ عليـه، وأخذ عنه، وسلك على يديه، وصحب الشـيخ أبو عبد الله الغزال، الشيخ الولى سيـدى أبا العباس بن العريف، وعلى يديه سلك - نفعنا الله بهم أجمعين.

وكان الشـيخ أبو إسحاق يواصل الصوم أربعـين يوما، حكى ذلك من حاله غير واحد من أصـحابه، وأنه بنى ثمانية عشر جبا فى مـواضع متفرقة، ونحو عشرين مسجدا، وبنى أكثر سور حصن بلفيق، كل ذلك من ماله[1].

وله - رضى الله عنه - كرامات جـمة مشهورة، وكلمـات ذكر وحكمة مأثورة، ويروى أنه كان له ثلاث دول فى اليوم يتحلق عليه فيها فى مسجده، ومى كلامه - رضى الله عنه - فى بعض رسـائله: الصوفى: عبارة عن رجل عدل تقى صالح زاهد، غير منتسب لسبب من الأسباب، ولا مخل بأدب من الآداب، قد عـرف شأنـه وزمانه وملكت مكارم الأخـلاق عنانه، لا ينتـصر

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٤٧٧.

لنفسه، ولا يتفكر فى غده وأمسه، العلم خليله، والقرآن دليله، والحق حفيظه ووكيله، نظره إلى الخلق بالرحمة، ونظره إلى نفسه بالحذر والتهمة[1].

ومن كلامه - رضى الله عنه - التصوف عدمك عندك فيه، ووجودك عنده به، وقال أيضا: التصوف بدايته إيثار الحق على ما عداه، ونهايته الغيبة بالحق عما سواه، وقال أيضا: بنور التقريب، يفرق بين البعيد والقريب، وبنور الاختصاص، يمتاز أهل الرياء من أهل الإخلاص. وقال فى بعض رسائله: اعلم يا أخى أن الفهم عن الله، هو العلم الأكبر، والنور الأزهر، والسنى الأنور، ولا سبيل إلى اقتباس أنواره، والتماس أسراره - بالاستبداد، ولا وجه لوجوده بالانفراد، فإن سره مصون، ولا يعقله بفضل الله إلا العالمون، فمن عثر على الدليل، هدى إلى السبيل، ومن اغتر بنفسه، وتبنى أبناء جنسه، حجب عن الحقيقة، وسلب عن الطريقة، وطفق يخبط عشوا، ويألف الهوى، - عافانا الله وإياك من سبيل، بغير دليل، وتوجه بغير وصول، ومعاد السلام عليك ورحمة الله وبركاته. - كتبه إبراهيم الضعيف عفا الله عنه.

وقال - رحمه الله: من لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة، لم يفتح له من هذه الطريقة شمة. وقال: لا ترض مجاهدة، لم يفتح له من هذه الطريقة شمة. وقال: لا ترض بنفسك فائدة، فإن حبك الشىء يعمى ويصم.

وقال: لو تصور صوفى منتصر منتسب، لتصور زاهد مفتر مكتسب. وقال: دواء مرض القلوب، تلاوة القرآن بالتدبر وصحبة الصالحين، واللجاء إلى الله تعالى بالأسحار. وقال: من جاهد برأى عالم مقبول فى الإسلام،

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٤٧٧.

صالح للقدوة والائتمام ظهرت عليه الأحوال الصديقية، والمواهب الربانية، والإلهامات الملكية، وهؤلاء فى الإسلام خلفاء الرسل، وأمناء السبل. قال الله - تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران]. وقال رحمه الله: المجاهدات الطهارة من الذنوب، والمعاملات للتنظيف من العيوب، والمراقبات لملاحظة الغيوب، والمكاشفات تخرق الحجوب.

قال ابن خاتمة: وفى هذه اللفظة إشباع - والمحاضرات لمعاهدة المحبوب، وكانرحمه الله لا يستعمل السماع، ولم ينقل عنه أنه كان ينكره على من يستعمله، بل قيل أنه كان يعجبه الإنشاد، ويجد به وجدا شديدا.

ولد - رضى الله عنه - ببلفيق سنة سبع وخمسين وخمسمائة - فيما حكاه غير واحد، وقال المكتب أبو محمد عبد الله بن على بن فرحون سنة أربع وخمسين، ونشأ فى كفالة والدته، إذ كان والده قد توفى، فدرس القرآن وجوده على خطيبها المعروف بابن مهارش، وبابن القصير، وقرأ عليه جملة من التفريع، وكان هذا الخطيب يلقب ببغل القرآن، وكان رجلا صالحا مجودا للقرآن، فلما ترعرع وبلغ مبلغ الرجال، انتقل إلى المرية، وأقام أزيد من عشر سنين، فقرأ القرآن بها، والعربية على شيوخها، كأبى العباس بن اليتيم، وغيره ممن مر ذكره، ولزم صحبة الشيخ الناسك أبى عبد الله الغزال، وجاهد نفسه على يديه وبإرشاده - مدة مقامه بالمرية، فانتفع بذلك، وكان الشيخ الغزال يحبه ويقدمه، ويثنى عليه، وكان يتردد إلى بلفيق لزيارة والدته فى الأعياد خاصة، فلما توفى الشيخ أبو عبد الله الغزال، عاد إلى بلفيق، وكانت والدته قد توفيت، فتزوج ابنة خاله، وأقام هناك سنتين، ثم انتقل إلى ضيعته بظاهر طبرنش[1]، فأقام بها يسيرا، ثم انتقل إلى المرية - باستدعاء واليها

---

(١) طبرنش: شرقى المرية.

يومئـذ، السيد أبـى عبد الله مـحمد بن السـيد أبى زكرياء ابـن الخليفة أمـير المؤمنين ابن أمير المؤمنين فحل بها وأوطنها تحت بره وإكـرامه، واستمر مقامه بها إلى أن قدم على ألمرية - راجيا جبايتها أحد الظلمة الغشمة، وهو المشرف على بن أبى بكر، فـأحدث على الناس أحـداثا منكرة، فـرفعوا أمـرهم إلى الشيخ أبى إسحاق، شاكين إليه بحالهم معه، وراغبين فى صرف ما حل بهم من قبله، وكـان هذا المشرف المسـرف لأول قدومه على ألمرية يـزور الشيخ أبا إسحاق، ويظهر التبرك به، فلما بلغه تغير الشيخ عليه، ونكيره ما أحدث من المفاسد، ورأى أن الحال تتغير عليه بسببه، وأن لا طاقة له بمكابرته، كتب إلى ظهيره الذى يستند إليه نظر السلطان بمراكش الوزير عثمان بن عبد الله بن أبى إسحاق بن جامع، يشتكى إليه بحالـه، وما يتوقع من قبل الشيخ أبى إسحاق فى مآله، وأنه لا يتم له شىء معه من أعـماله، وزور له أنه ذو اتباع وأعوان، لا يؤمن من جانبه الثورة على السلطان، واستظهر على ذلك بعقد كتب بألمرية واستنهـض للشهادة فـيه من لم يتق الله تعـالى فى عظيم هذه الفـرية، كأبى يحيى بن أسود، ومحـمد بن الرميمى من وجوهها، وكـعبد الله بن مكنون، وصهـره أحمد الغليرى من سـوقتها، ممن يـبطن للشيخ بغضة وحـسدا، ولا يوقن أن الله سبحانه سائله عن شهادته عند الوقوف بين يديه غدا.

ولما بلغ الوزير عثمان بن جامع ما وجـه به إليه خديمه المشرف على بن أبى بكر، حملتـه الأنفة له، والحميـة لجانبه - على أن طالع به سلطانه أمـير المؤمنين المستنصـر بالله، أبا يعقوب يوسف بن الناصـر بن المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن بن على، وألقى إليه فى صورة الناصح، أن تغريب الشيخ أبى إسحاق عن ألمرية من أعظم المصالح، فخـرج أمر المستنصر بإزعاجه من ألمرية وتوجيـهه إلى مـراكش، ووصل كتـاب من المستنـصر إلى أبى عـمران وأبى

العباس ابنى أبى حفص يستفهمان فيه عن حقيقة ما شنع به على الشيخ أبى إسحاق، فتفاوضا فى كيفية الجواب، فكان من رأى أبى العباس التغافل عنه إلا بعد أن يعاود الخطاب، واتفق رأيهما على ذلك، فلما كان من الغد، توجه أبو عمران بن أبى حفص إلى باب الخندق من أبواب المرية البحرية، ليودع الشيخ أبا إسحاق فأخبره أنه قد طلع فى البحر على أثر صلاة الصبح، وذلك من يوم الاثنين الثانى عشر لصفر سنة ست عشرة وستمائة فى أسطول المرية، فقال أبو عمران: سبحان الله، أعان هذا على نفسه - يشير إلى أنه لو أراد أن لا يتوجه لأقام إلى النهار، فلم تكن العمامة لتتركه ولا توافقه على السفر لمراكش، والانفصال عنهم - اغتباطا لجواره، وتهالكا على مقامه بين أظهرهم واستقراره، وكذلك كان يقول على بن أبى بكر: لو بقى ابن الحاج بالمرية، لكنت أول من يقتل، وقد كان غير واحد من أهل المرية وغيرهم، يرومون صرف الشيخ أبى إسحاق عن التوجه إلى مراكش، فلم يوافقهم على ذلك، ولا رأى مخالفة للأمر، ولو أراد المقام، لأقام كيف شاء، وكان أبدا يقول: سأموت غريبا.

ومن كلامه - رضى الله عنه - وقد أراد النهوض للقيام فى هذه الوجهة، فأثقلته الكبرة - يقال عن إبراهيم يقوم، وهو لا يقدر أن يقوم، ويؤثر أنه قال الذى يقوم عليهم هو القاعد فى اسطوانى - وكان قاعدا هناك ابن الرميمى ينتظره ليودعه، وهى من كرامات الشيخ أبى إسحاق. ولما وصل إلى مراكش وأدخل على المستنصر هابه المستنصر هيبة شديدة، وقذف الله تعالى فى نفسه إجلاله، وأشرب قلبه تعظيمه وإكباره، وندم على أن وجه عنه، وسأل الدعاء منه - وهو لا يجد فى فيه ريقا، وأقام أياما بمراكش، ثم

مرض وتوفى ليلة الأربعاء غرة جمادى الأخيرة سنة ست عشرة وستمائة - وهو ابن بضع ستين سنة، وقيل ابن نحو ثلاث وستين سنة، وكانت جنازته حافلة، قدم العهد بمثلها، وحضرها الأمراء والأكابر، رجالا مشاة، منتعلين وحفاة، وكسرت العامة نعشه، وتوزعوه كسرا تبركا به، وأشار بعض كبراء الدولة بدفنه مع سيدى أبى العباس بن العريف، شيخ شيخه، فأبى المستنصر إلا أن يدفن بإزاء القصبة، وقال: بحيث تتأتى لنا زيارته، ونقرب منه، فدفن بمقبرة الشيوخ، وقبره هنالك إلى الآن معروف متبرك به.

قلت: كذا قال ابن خاتمة وغير واحد: أن قبره بإزاء القصبة، والمعروف عند أهل مراكش - قاطبة فى زماننا هذا - خلاف ذلك وأنه مدفون بوسط البلد لا يلحقهم فى ذلك شك، غير أن عامتهم يسمونه سيدى إسحاق - على ما جرت به عادة العامة من تغيير الأسماء، وأما الخاصة من العلماء وغيرهم، فيقولون سيدى أبو إسحاق البلفيقى، وقد زرته ودعوت الله عنده بما أرجو من بركته قبوله، وهو مزور لالتماس الخير، وكان أبو الحسن بن بقى وبعض أصحابه يقولون: كان الشيخ أبو إسحاق يقول - أيام إقامته بألمرية - تتمشى حالة هذا الأمير ومن يختص به، وتتصل أيام دولتهم ما لم ينقلونا من موضعنا، فإذا نقلونا من موضعنا، حل البلاء بجميعهم، فكان الأمر كذلك، وسئل الشيخ أبو إسحاق عما رأى من المستنصر وحاشيته؟ فقال أما السلطان فمبارك، وما رأيت إلا خيرا، وإنما ذلك الوزير ويسكت - يعنى ابن جامع. وقال له ابن جامع: لعلك يا فقيه تستوحش فى هذه البلاد، فقال له: إنما تستوحش البهائم. وقد أنصف الله تعالى فى دار الدنيا من كل من سعى إليه، فمات ابن جامع، وعلى بن أبى بكر، على أسوأ حال من الذلة والهوان، وأما ابن بقى صاحبه، فصلبه المأمون بإشبيلية.

وكان الشيخ أبو إسحاق يقول: كل من نال من عرضى ما نال فأنا أحلله من ذلك، وأغفر له ما عدا من رمانى بالقيام على السلطان، فإنى لا أغفر له حتى أخاصمه بين يدى الله تعالى فيما رمانى به من البدعة الشنعاء، والمعصية الكبرى والداهية الدهياء، ولو رمانى بالزنا، ما كان أشد على مما رمانى به، ويذكر من فظاعة هذه الفرية عليه، وشناعتها لديه.

وقد أخذ عنه جمع كثير من أهل العلم وغيرهم، حدث حفيده القاضى أبو البركات بن الحاج عن ابن خميس التلمسانى المتقدم الذكر فى الترجمة الأولى من هذا الكتاب، قال سمعت بعض الأشياخ يقول: كان أبو إسحاق البلفيقى الكبير يقول: اجتمع لنا فى الله أربعون ألف صاحب، وهو - رحمه الله - أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن خلف بن محمد بن سليمان بن سوار ابن أحمد بن حزب الله بن عامر بن سعد الخير بن عياش - وهو ابن عيشون - ابن محمد الداخل إلى الأندلس بن عنبسة بن حارثة، ويقال: ابن الحارث ابن العباس بن مرداس السلمى، صاحب رسول الله ﷺ، هكذا هو الصواب، لا ما قال الملاحى، وابن عبد الملك، فإنهما أسقطا بين خلف وسوار رجلين، إذ جعلا خلفا ابن سوار، وليس كذلك، بل بينها رجلان - كما ذكرته، حسبما قال ذلك حافده أبو البركات، وأهل بيت أعرف بنسبهم.

ومن كراماته - رضى الله عنه - ما حدث به أحد الثقات من أصحابه، أنه كان بألمرية متطبب ممن يسر إنكار الكرامات، فأتته امرأة بصبى يشتكى ألم الحصا، فقال لجليس له ممن يماليه على مذهبه: قم بنا إلى هذا الفقيه - يعنى الشيخ أبا إسحاق - حتى نرى ما يصنع؟ فدخلا عليه موضع إقرائه، ومجتمع جلسائه، فسأل الصبى عن شكايته، فأخبره بما يجد من الألم، وكان الشيخ

كوشف بالحال، فتغير وجهه، وجعل إحدى يديه على ظهر الصبى، والأخرى على قلبـه، قال الحـاكى: فرأيت الصـبى قد تقبـض واجتمع، ثـم قذف من الحصيات التى قدر الحمص خمسـا أو نحوها مخضوبة بالدم، وسكن ما كان به، ورفع عن الموضع، ثم عطف الشيخ حنقا على المتطبب وصـاحبه، وقال: إنكاركم أحوج إلى هذا، فـتوبا إلى الله أو نحو هذا الكلام، فأخـذا يتنصلان ويعتذران، وخرجا من عنده خزيين؟ وحدث الأستاذ أبو جعفر بن الزبير قال: سألت الـشيخ المقرئ أبا الـوليد إسمـاعيل بن يحـيى، هل لقيت الشـيخ أبا إسحـاق، فحدثنى قـال: كنت أحدث نفسى بلقـائه ورؤيته فاحـتاج أبى إلى شراء أسبـاب لجهاز أختـى، وأخذ فى توجيه ثقـة ممن كان يلوذ به إلى ألمرية لشراء تلـك الأسباب، فـرغبت من والدى أن يأذن لى فى السـفر مـعه برسم الأسباب، وآتى الشيخ أبا إسحاق، فأذن لى، فلما وصلنا ألمرية، سألت عنه، فدللت على مسجده، فحضرت فيـه صلاة المغرب، فلما جاء الشيخ وأقيمت الصلاة فـتقـدم أمامـه فصلى بنا والشـيخ وراءه، فلما سلم، تنفل الشـيخ بما تنفل، وأنا أترقبـه، وقد عرفته بـقرائن الأحوال، ثم أخذ فى الخـروج فقمت وراءه وتبعتـه إلى أن أخذ فى دخول داره، فحين قدم رجله للدخـول كلمته، فصرف وجـهه إلى - ولم يكن رآنى قبل ذلك ولا رأيته، وأقـبل على وقال: من أين الطالب، فقلت له: من غرناطة، جئت برسم رؤيتك والتبرك بك، ما لى حاجة سـوى ذاك، فتبسم، وقـال: إنما جئت فى شأن أختـك وجهازها، فتحيرت، ثم دعا لى وأنسنى وانـصرفت، وقد رأيت العجب من أمره! قال: فهذا ما اتفق لى فى لقاء من سألت عنه، ولقد رأيت رجلا لم أر مثله.

وحدث الوزير أبو الربيع سليمان بن شعيب، قال قصدت أنا وأبو إسحاق بن الجياد إلى زيارة الشيخ صالح بن حمدون التشكرى، أحد الجلة من أرباب الكرامات، وأحد الجلة من أصحاب أبى إسحاق بن الحاج إلى تشكر، فأقمنا عنده مدة، قال ابو الربيع: ثم قلت لصاحبى: يتبغى لنا أن ننصرف، فقال لى صاحبى: حتى يكون ذلك عن إذن الشيخ فلما حضرنا عنده، قال لى: يا أبا الربيع أدركت القلق من مقامك معنا، لا تنصرف حتى نأذن لك، فخجلت وقلت: لا تعاتبنى بجهلى. قال: فأخبرنا الشيخ صالح قال:

سافرت وقرأت بسبتة على العزفى وغيره وبغيرها، ثم أتيت إلى هذا الموضع بعد عامين بسبب والدى، فقلت يوما فى نفسى: لقد قرأت واجتهدت وما قصرت، ولكنى لم أفهم حقيقة الأخبار بالمغيبات، فبينما أنا فى هذا الخاطر، وإذا ثلاثة رجال، فقلت لهم: من أين أقبلتم؟ فقالوا: من منزل الشيخ أبى إسحاق بن الحاج بطبرنش، فأخبرونى عنه وكانوا ثقاة - إنهم لما أشرفوا على طبرنش قاصدين زيارته، قال أحدهم - وكان حاجا - لقد سمعت ذكر رمان هذا الموضع بالإسكندرية، فنسأل عنه الشيخ، فقال الآخر: حاش الله أن نسأل الشيخ عن الرمان، إنما نسأله كيف كان رسول الله ﷺ يأكل اللحم، وقال الآخر: إنما أسأله أنا فى حكم من له زوجة لا تصلى، ما يفعل معها؟ هل يتخلى عنها أم لا؟ فلما وصلنا إليه، قدم لنا رمانا ولحما، وناول الحاج الرمان، وقال لهم: كلوا من هذا الرمان، فإن ذكره مشهور بالإسكندرية، فقال له الحاج: نعم يا سيدى، أنا سمعت ذكره هنالك بإذنى، ثم أخذ بعد ساعة قطعة من لحم بيده وقال للآخر: هكذا روى أن رسول الله - ﷺ - كان يأكل اللحم، وأراه الصورة بفيه، ثم سكت، ثم قال للآخر:

من له زوجة لا تصلى ينهاها عن ذلك، فـإن انتهت، وإلا توعدها بالطلاق، فإن انتـهت، وإلا طلقها - وله فى النسـاء سعة، قـال صالح: فلما سـمعت ذلك، قلت: والله لأخرجن من سـاعتى إلى هذا الشـيخ، وقلت فى نفسى: أسأله أنا عن الشيخ أبى أحمد وعن حال أصحابه، هل هم على الحق أم لا، فخرجت وحـملت معى جرابا فيـه مصحف وكتاب الموطـأ، وكتاب فى علم الرياضى، فلمـا وصلت إليـه، قال لى: أخـرج ما فى جـرابك، فأخـرجت المصـحف ثم الموطأ، ثم أخرجت الرياضى، فـقال لى - وهو لـم يفتـحه - أحرق ذلك الآن، فأحـرقته، ثم قال لى: الشـيخ أبو أحمد سيد وقـته، وأما أصحابه فـينبغى أن يحبـوا من أجله، فانطلق إليه، قال: فـانطلقت من وقتى إلى الشيخ أبى أحمـد، ولا زمته - رضى الله عنهم أجمعـين - ونفعنا بهم، وسهل علينا بجاههم كل ما نرومه.

وحدث القاضى أبو البركات حـافده قال: دخلت على الشيخ الصالح، العابد المجتهد، الحاج أبى عبد الله محمد بن على البكرى المعروف بابن الحاج - فى منزله بألمرية عائدا - قال:

أظنه فى مرضه الذى مـات منه - فقال لى حين سـألته عن حاله: ادع لى، فقلت له: يا سـيدى بل أنت تدعـو لى، فقال لى: شـرح الله صدرك، ونور قلبك بنور معرفته، فمن عرف الله لم يذكر لك غيره، فقد حكى سيدى أبو جعفر بن مكنون عن جدك، قـال: كنت مع سيدى أبى إسحاق بن الحاج بمراكش، فقال لى: هل ترى فى المنام شيئا؟ فقلت: نعم، أرى كأنى فى ألمرية أمشى من الدار إلى المسجد، ومن كـذا إلى كذا، فأعرض عنى وقال: لا ترى إلا الله. قال: ثم مر به فى أثناء كلامه ابنه محمد فقال لى: رأيت هذا؟ والله

ما أدرى أن لى ابنا حتى يمـر بى، ولا أذكره إذا غاب عنى، ولا أرى إلا الله انتهى.

وكـرامات هذا الولى أكـثر من أن تحـصر، ومن أراد اسـتيـفاء أحـواله كرامـاته، فعليه بكتاب حـافده أبى البركـات الذى وضعه فى أخبـار سلفه - رضى الله عنهم، وقـد أورد طرفا مـنها الشـيخ الخطيب أبو الحـسن على بن أحمد الغزال فى الجـزء الذى وضعه فى كراماته وكرامات شيـخه أبى عبد الله الغزال جد أبـى الحسن المذكور، وكرامات شـيخه أبى العبـاس بن العريف - رضى الله عنهم ونفعنا ببركاتهم.

ومن نظم الشيخ أبى إسحاق - رضى الله عنه - قوله:

ألا كــرم الله البــلاد بـنخـبـة
هم حسنات الدهر، ولا نابهم خطب
رعـايتـهم فـرض على كل مـسلم
وحـبـهم حق قـــد أوجـبـه الرب
إذا ما سـألت الله شيـئا فـسل بهم
فتـعظيمهم قـرب وغيبتـهم حرب

وقوله:

شكا فـشكى قلبى خـبالا مـبرحـا ... على غـــيــــر علم منى بـشكواه
ومـا التـقت الأسـرار إلا بجـامع ... من النعت سلطان الحـقيـقة سـواه
فـيا فـرحة المجـهود أن بات سـره ... وسـر الـذى يهـواه مـاواه مـأواه

ومن أجله قد كان بالبعد راضيا فكيف ترى مغناه والقرب مثواه
بدا فبدت أعلام ضدين فى الهوى هما عجب لولا الدليل وفحواه
برؤيته فارقت موتى لبعده ومت بها من أجل علمى ببلواه
فها أنا حى ميت بلقائه ولم ينج من لم يسعد الفهم نجواه
إذا لم تكن أنت الحبيب بعينه رضى وعتابا ضل من قال يهواه
وأكذب ما يلقى الفتى وهو صادق إذا لم يحقق بالأفاعيل دعواه

وقوله:

الحب فى الله نور يستضاء به والهجر فى ذاته نور على نور
جنب أخا حدث فى الدين ذا غير إن المغير فى نكس وتغيير
حاشى الديانة أن تبنى على خبل سبحان خالقنا من قول مثبور
إن الحقائق لا تبدو لمبتدع كذا المعارف لا تهدى لمغرور
تالله لو أبصرت عيناه أو ظفرت يمناه ما ظل فى ظن وتقدير
حقق ترى عجبا إن كنت ذا أدب ولا يغرنك الجهال بالزور
إن الطريقة فى التنزيل واضحة وما تواتر من وحى ومشهور
فافهم-هديت-هدى الرحمن وأهدبه هدى يفيدك يوم النفخ فى الصور

وقوله صدر رسالة وجه بها إلى ابنه محمد أيام قراءته بإشبيلية:

إذا شئت أن تحظى بوصلى وقربتى فجنب قرين السوء وأصرم حباله

وسابق إلى الخيرات واسلك سبيلها

وحصل علوم الدين واعرف رجاله

وكان - رحمه الله - كثيرا ما يتمثل ببيتى مهيار الدليمى، وهما:

ومن عـــجب أنى أحن إليـــهم

واسـأل شـوقـا عنـهم وهم مـعى

وتبكيـهم عـينى وهم فى سـوادها

ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعى

انتهى.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول: وهذه صلاة عظيمة البركة، رأيتها فى بعض المجاميع منسـوبة للشيخ سيدى عبد القادر الجـيلانى - أفاض الله علينا من أنواره:

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهـم صل على سيدنا محمد وآله وصـحبه وسلم، يا مولاى يا قادر، يا مولاى يا غافر، يا لطيف يا خبير، اللهم اجعل أفضل صلواتك عددا، وأنمى بركـاتك سرمدا، وأزكى تحياتك فـضلا ومددا، على أشرف الحـقائق الإنسانيـة، ومعدن الرقـائق الإيمانية، وطور التـجليات الإحسانيـة، ومهبط الأسرار الرحمانيـة، واسطة عقد النبيئين، ومـقدم جيش المرسلين، وأفـضل الخلق أجمـعين، حامـل لواء العز الأعلى، ومـالك أزمة الشرف الأسنى، شاهد أسرار الأزل، ومشاهد أنوار السوابق الأول، وترجمان لسان القدم، ومنبع العلم والحلم والحكم، مظهر سر الوجود الجزئى والكلى، وإنسان عـين الوجود العلوى والسـفلى، وروح جسـد الكونين، وعين حـياة

الدارين، المتخلق بأعلى رتب العبودية، والمتحقق بأسرار المقامات الاصطفائية، سيد الأشراف، جامع الأوصاف، الخليل الأعظم، والحبيب الأكرم، المخصوص بأعلى المراتب والمقامات، والمؤيد بأوضح البراهين والدلالات، والمنصور بالرعب والمعجزات، الجوهر الشريف الأبدى، والنور القديم المحمدى، سيدنا محمد المحمود فى الإيجاد والوجود، الفاتح لكل شاهد ومشهود، حضرة المشاهد والمشهود، نور كل شىء وهداه، وسر كل سر وسناه، الذى منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، السر الباطن، والنور الظاهر، السيد الكامل، الفاتح الخاتم الأول، الآخر الباطن الظاهر، العاقب الحاشر، الناهى الآمر، الناصح الناصر، الصابر الشاكر، القانت الذاكر، الماحى الماجد، العزيز الحامد المؤمن العابد، المتوكل الزاهد، القائم الساجد، الشافع الشهيد، الولى الحميد، البرهان الحجة، المطاع المختار، الخاضع الخاشع، البر المستنصر، الحق المبين، طه يس، المزمل المدثر، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيئين، وحبيب رب العالمين، النبى المصطفى، والرسول المجتبى، الحكم العدل، الحكيم العليم، نورك القديم، وصراطك المستقيم، محمد عبدك ورسولك، وصفيك وخليلك، وحبيبك ووليك، ونبيك وأمينك، ودليلك ونجيك، ونخبتك، وذخيرتك وخيرتك، إمام الخير، وقائد الخير، ورسول الرحمة النبى الأمى، العربى القرشى، الهاشمى الأبطحى المكى، المدنى التهامى، الشاهد المشهود، الولى المقرب السعيد المسعود، الحبيب الشفيع، الحسيب الرفيع، المليح البديع، الواعظ النذير، العطوف الحليم، الجواد الكريم، الطيب المبارك المكين، الصادق المصدق المبين، الداعى إليك بإذنك السراج المنير، الذى أدرك الحقائق بجملتها، وحاز الخلائق برمتها، وجعلته حبيبا، وأدنيته رقيبا، وختمت به الرسالة والدلالة،

والبشـارة والنذارة والنبوءة، ونصرته بالرعب، وظللتـه بالسحب، ورددت له الشمس، وشـققت له القمر، وأنطقـت له الضب والظبى، والذئب والجذع، والذراع والجمل والخـيل، والمدر والشجـر، وأنبعت من أصـابعه الماء الزلال، وأنزلت من المـزن بدعـوته فـى عـام المحل والجـدب وابل الغـيث والمطر، فاعشوشب منه القفر والصخـر والوعر، والسهل والرمل والحجر، وأسريت به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجـد الأقصى، إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتـهى، إلى قـاب قـوسين أو أدنى، وأريتـه الآية الكبـرى، وأنلتـه الغـاية القصوى، وأكرمته بالمخاطبة والمراقـبة، والمشافهة والمشاهدة، والمعاينة بالنظر، وخصصته بالوسيلة العذرا، والشفـاعة الكبرى، يوم الفزع الأكبر فى المحشر، وجمعت له جوامع الكلم وجواهر الحكم، وجعلـت أمته خير الأمم، وغفرت له مـا تقدم من ذنبـه ومـا تأخر، الذى بلغ الـرسالة، وأدى الأمـانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجلا الظلمة، وجـاهد فى سبيل الله، وعبد ربه حتى أتاه اليقين.

اللهم ابعثه مقـاما محمودا يغبطه فيـه الأولون والآخرون، اللهم عظمه فى الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء شريعته، وفى الآخرة بشفاعته فى أمته، وإجزال أجره ومثوبته، وإبداء فضله للأولين والآخرين وبالمقام المحمود، وتقديمه على كافة المقربين الشهود، اللهم تقبل شفاعته الكبرى، وارفع درجته العليا، واعطه سـؤله فى الآخرة والأولى، كمـا آتيت إبراهيم وموسى، اللهم اجعله من أكرم عـبادك عليك، ومن أرفعهم عندك درجـة، وأعظمهم خطرا، وأمكنهم عندك شفاعة، اللهم عظم برهانه، وأبلج حـجته، وأبلغه مأموله فى أهل بيته وذريته، اللهم اتبـعه من أمته وذريته ما تقر به عينـه، واجزه خير ما

جازيت نبيا عن أمته، واجز الأنبياء كلهم خيرا، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد عدد ما شاهدته الأبصار، وسمعته الآذان، وصل وسلم عليه عدد من صلى عليه، وصل وسلم عليه، عدد من لم يصل عليه، وصل عليه وسلم، كما تحب أن يصلى عليه، وصل وسلم عليه، كما أمرتنا بالصلاة عليه، وصل وسلم عليه، كما ينبغى أن يصلى عليه، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله، عدد إنعام الله وإفضاله، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأولاده، وأزواجه وذريته، وأهل بيته وعترته، وعشيرته، وأصهاره وأحبابه، وأتباعه وأشياعه، وأنصاره، خزنة أسراره، ومعدن أنواره، كنوز الحقائق، هداة الخلائق، نجوم الاهتداء لمن اقتدى، وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا، وارض عن كل الصحابة رضى سرمدا، عدد خلقك، وزنة عرشك، ورضى نفسك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك ذاكر، وكلما سها عن ذكرك غافل، صلاة تكون لك رضى، ولحقه أداء، ولنا صلاحا، وآته الوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه المقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورود، وصل يارب على إخوانه من الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين، صلوات الله عليهم أجمعين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره، عدد من مضى من خلقك ومن بقى، ومن سعد منهم ومن شقى، صلاة تستغرق العد، وتحيط بالحد، صلاة لا غاية لها ولا انتهاء، ولا أمد ولا انقضاء، صلاتك التى صليت عليه، صلاة معروضة عليه، مقبولة لديه، صلاة دائمة بدوامك، باقية ببقائك، لا منتهى لها دون علمك، صلاة ترضيك وترضيه، وترضى بها عنا، صلاة تملأ الأرض والسماء، صلاة تحل بها العقد، وتفرج بها الكرب، ويجرى بها لطفك فى أمرى والمسلمين، وبارك على الدوام وعافنا واهدنا، واجعلنا آمنين، ويسر

أمـورنا، مع الراحة لقـلوبنا وأبداننا، والسـلامة فى ديننا ودنـيانا، وآخـرتنا، وتوفنا على الكتاب والسنة، واجـمعنا فى الجنة، من غير عـذاب يسبق وأنت راض عنا، ولا تمكر بنا، واختم لنا منك بخير فى عافـية بلا محنة أجمعين، وسلام على المرسلين والحمـد لله رب العالمين، صلى الله على سيدنا مـحمد وآله وصحبه أجمعين - انتهت بحمد الله.

وذكر الشيخ الصـالح سيدى زيتون رضى الله عنه - صلاة بأربعـة عشر ألف صلاة، وهى:

اللهم صل وسلم على سـيدنا محـمد، وعلى آل سيـدنا محمـد، بحر أنوارك، ومـعدن أسـرارك، ولسـان حجـتك، وإمـام حـضرتك، وعـروس مملكتك، وطـراز ملكك، وخـزائن رحـمـتك، وطريق شـريـعـتك، المتلذذ بمشـاهدتك، عين أعـيان خلقك، المنقـدح من نور ضيـائك، صلاة تحل بـها عقدى، وتفرج بها كربـى، صلاة ترضيك وترضى بها عنا - يارب العالمين - انتـهت. وقد تقـدمت عن الشـيخ الملالى ببعـض اختـلاف مع هذه، فلذلك ذكرتهما معا، على أنهما اتفقا فى أكثرها - والله أعلم.

وهذه صلاة أخرى مختصرة، ذكر عن بعض الأولياء أنه نقلها من اللوح المحفوظ، وهى:

اللهم صل وسلم على روح سـيدنا محـمد فى الأرواح، وبلغـه أقصى رتبـة فى السعـادة والفـلاح، والصـلاة والسلام على المصـطفى ورحمـة الله وبركاته.

وهذه صلاة عظيمـة للولى العارف سيدى عبـد العزيز المهدوى - رضى الله عنه، وهى:

بسم الله الرحـمن الرحيـم، اللهم صل وسلم على لوح رحـمانيـتك، الذى كتبت فيـه بقلم رحيمتك، ومداد مدد رحـمونيتك ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِـيـهِمْ ... ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفـال]، اللـهم صل وسلم على عـرش اسـتـواء وحدانيتك، من حـيث إحاطة أحدية ألوهيتك، ورحمـتك الشاملة، وبركتك الكاملة، مـن حـيث إحـاطة قـولك: ﴿وَمَـا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْـمَـةً لِّلْعَـالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]. اللهم صل وسلم يارب العاليـن، على رحمة العالمين، اللهم صل وسلم على إنسان عين الـكل فى حضرة وحدانيتك، وجـمع جمع أحديتك، من حيث إحاطة قولك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب]. فكان المبشر عين المبشر به، فـأنلنا اللهم من بركاته، وافتح اللهم أقفال قلوبنا بمفـاتيح حبـه، وكـحل أبصار بصـائرنا بإثمـد نوره، وطهـر أسرار سـرائرنا بمشاهدته وقربه، حتى لا نرى فى الوجود إلا أنت به، ومن نوم غفلاتنا ننتبه، اللهم صل وسلم علـى كاف كـفـايتك، وهاء هدايتك، وياء يمنك، وعـين عظمتك، وصـاد صراطك: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة]، ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى] الـلهم صل وسلم على نورك الأسنى، المتشـفع بالأسماء فى حـضرة المسمى، فكان عين مظاهرها الوجـودية من حيث أحاط علمك، وعين أسـرارها الجودية من حيث أحاط كـرمك، وعين اختراعـاتها الكلية الكونية من حيث إحاطتها إرادتك، وعين مقدوراتها الجبروتية من حيث أحاطت قـدرتك وقهرك، وعيـن إنشاءاتها الإنسانيـة من حيث أحاطت سـعة رحمتك، اللهم صل وسلم على ميم ملكك، وحاء حكمتك وميم ملكوتك، ودال ديمومتك، صـلاة تستغرق العد، وتحـيط بالحد، اللهم صل وسلم على

الواحد الثانى، المخصوص بالسبع المثانى، والسر السارى فى نازل الأفق الرحمانى، والقلم الجارى بمداد المرد الربانى، على طور عقل الإنسانى، صلاة تتجدد بتجدد رحمتك عليه، واتصال انتهاء نورك وسرك إليه، يارب العالمين، اللهم صل وسلم على ألف أحديتك، وحاء وحدانيتك، وميم ملكك، ودال ديمومتك، اللهم صل على ميم ملكك وحاء وحدانيتك، ودال دينك، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ... ③﴾ [الزمر] فقد أخلصت الخالص، للقائم بالدين الخالص، وأضفته إليك، فصل وسلم يارب على من قام بما أضفت إليك على التحقيق، وقام بدينك، وبلغ رسالتك، وأوضح سبيلك، وأدى أمانتك، وأقام البراهين على وحدانيتك، وأثبت فى القلوب أحديتك، فهو سرك المصون بهيبتك وجلالك، المتوج بنور أسرارك وجمالك، صل رب عليه على قدر مقامه العظيم لديك، وعلى قدر عزته عليك، اللهم صل وسلم على موضع نظرك، ومظهر منظرك، ومغنم خزائن كرمك، عقد عزتك ومفتاح قدرتك، محل رحمتك، ومجد عظمتك، خلاصتك من كفه كونك وصفوتك، من خصصته باصطفائك، النبى الأمى، الرسول العربى، الأبطحى الحرمى القرشى، أحمد الحامدين فى سرادقات جلالك، ومحمد المحمودين فى مباسطة جمالك، ألف إبداعياتك وباء بداية اختراعاتك، وواو ودك فى إنشاءاتك، وألف إبرازك لمخلوقاتك، ولام لطفك فى تدبيراتك، وقاف إحاطة قدرتك على خلق أرضك وسماواتك، وسين سرك بين جميع أضداد مبدعاتك، وميم مملكتك المحيطة بمعلوماتك، اللهم صل وسلم على سر جودك، ومظهر وجودك، وخزانة موجودك، اللهم صل وسلم على إمام حضرة جبروتك، المصلى فى محراب ﴿...قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨﴾ [النجم] بأحدية جمعه فانجمع بك فى صلاته فجمعته عليك. وخصصته بالنظر إليك،

وأخلصته بالسجود بين يديك، وجعلت قرة عينه فى الصلاة الخالصة لديك، فهو المفتض إبكار أسرار مشاهدتك، المقبض للمعات لمحات نفحات مشاهدتك، اللهم صل وسلم على كلمتك العليا من حيث الاختراع والإبداع، وعروتك الوثقى من حيث تتابع الاتباع، وحبلك المعتصم به عند الضيق والاتساع، وصراطك المستقيم للهداية والاتباع، ألم، حم، ح، وطسم ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ - إلى آخر السورة - وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]. اللهم صل وسلم على المتخلق بصفاتك. المستغرق فى مشاهدة ذاتك، الحق، المتخلق بالحق حقيقة الحق. ﴿... قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ... ﴿٥٣﴾﴾ [يونس]، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب] اللهم إنا قد عجزنا، من حيث إحاطة عقولنا، وغاية أفهامنا، وسوابق همنا، أن نصلى عليه من حيث هو وكيف نقدر على ذلك وقد جعلت كلامك خلقه، وأسماءك مظهره، ومنشأ كونك منه، وأنت ملجأه وركنه، وملاك الأعلى عصبته ونصرته، صل اللهم عليه من حيث تعلق قدرتك بمخلوقاتك، وتحقق اسمك بإرادتك، منه أبْدَأْتَ المعلومات، وإليه جعلت غاية الغايات، وبه أقمت الحجج على المخلوقات، فهو أمينك، وخازن علمك، وحامل لواء حمدك، ومعدن سرك، ومظهر عزك، ونقطة دائرة ملكك ومحيطه ومركبه وبسيطه، اللهم صل وسلم على المنفرد بالمشهد الأعلى، والطود الأعلى، والنور والسر الأجلى، المختص فى حضرة الأسماء بالمقام الأسنى، والنور والسر الأحمى، اللهم صل وسلم على النشأة الحبيبة، اللهم صل وسلم على الشجرة الطيبة العلوية، الثابت أصلها فى معادن هيبتك، السامى فرعها فى سرادقات عظمتك، اللهم صل وسلم على المزمل المدثر، المبشر المكبر المطهر، عطوف رحيم، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ إلى رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

[التوبة]، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إلى بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ [النور]، اللهم صل وسلم على مشكاة جسمه ومصباح قلبه، وزجاجة عقله، وكوكب سره، اللهم صل وسلم على كوكب سره، «الموقد من شجرة»، أصلها: النور الذى هو المفيض عليه من نور ربه «نور على نور، يهدى الله لنوره من يشاء»، وصل على الضمير البارز المستور فى النور الثانى الأخير المضروب به الأمثال فى عالم المثال، اللهم صل وسلم على من نورت بنوره ملكوت سمواتك وراضك، «مثل نوره كمشكاة كونك» (فيها مصباح) من نوره، «المصباح فى زجاجة» أجسام أنبيائك وملائكتك ورسلك، «كأنها كوكب درى» سره، «يوقد من شجرة» أصلها النور الذى هو المفيض عليه من فيض أسمائك، «يهدى الله» لنور سيدنا محمد «من يشاء» من خلقه، «ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شىء عليم».

اللهم إنك عالم بهذا النور البارز المستور، الباهر المنشور الذى بهرت به كليات الكونين، وطرزت به الثقلين، وزينت به أركان عرشك، وملائكة قدسك، وأدنيته من حضرة جبروتك، وجعلته المشفع إليك فى ملائك، وأنبيائك ورسلك، فهو باب الرضى، والرسول المرتضى، حقيقة حقك، وصفوتك من خلقك بنوره حملت عرشك، وبسره رفعت سمواتك وبسطت أرضك، فهو سماء سمائك، وعناية عيون إحسانك، ومظهر عزك وسلطانك، فأنت العليم به من حيث الحق والحقيقة، فصل وسلم رب عليه من حيث حقيقة علمك بذلك، وتحققه لما هناك، اللهم صل وسلم على سراج دينك، وكوكب يقينك، وقمر توحيدك، وشمس مشاهدة إحسانك، فى إيجاد إنسانك، صلاة تصعد بك منك إليك، وتعرف فى الملأ الأعلى أنها

خالصة لديك صلاة مبلغها العلم المحيط بالكل، حقيقة الكل، تتجدد بكلية ذلك الكل، صل وسلم عليه من حيث المقام المختص، تسليما مبلغه ذلك كذلك، والحمد لله على ذلك، والحمد لله على ما منح من الفتح الذى به إبصار بصائرنا، قد فتح بالصلاة على أشرف موجود، وبه كمل الوجود، وبالله سبحانه وتعالى، التوفيق، وبه نطلب كمال إكمالنا على التحقيق، اللهم بجاه صاحبه الصديق، وبالفاروق الموقن بالتصديق، وبذى النورين، وبخاتم الخلافة ابن عمه على على التحقيق، اللهم اجمعنا بك عليك، واردنا منك إليك، وأشهدنا إياه فى حضرة جمع الجمع، حيث لا فرقة ولا منع، إنك أنت المانح الفاتح، تمنح من شئت من مواهب ربانيتك، لمن شئت ممن خصصته برهبانيتك، اللهم إنا نسألك أن تحشرنا فى زمرته، وأن تجعلنا من أهل سنته ومحبته، ولا تخالف بنا عن ملته، ولا عن طريقته، واجعلنا من المسلمين والمصلين عليه، إنك سميع الدعاء مجيب لمن دعا، ﴿...أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين. انتهت.

وللشيخ نور الدين الشونى، هذه الصلوات الثلاث عشرة جمعها - رضى الله عنه - من مظانها، فأثبتها - هنا - تكميلا للفائدة، وهى:

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد، عدد خلقك، ورضى نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك،

كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، اللهم صل أفضل صلواتك على أفضل مخلوقاتك، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم، عدد ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما، وأجر لطفك فى أمورنا والمسلمين أجمعين يارب العالمين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد ما كان وعدد ما يكون، وعدد ما هو كائن فى علم الله، اللهم صل وسلم على روح سيدنا محمد فى الأرواح، وصل وسلم على جسده فى الأجساد، وصل وسلم على قبره فى القبور، وصل وسلم على اسمه فى الأسماء، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد صاحب العلامة، والغمامة، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، الذى هو أبهى من الشمس والقمر، وصل وسلم على سيدنا محمد، عدد حسنات أبى بكر وعمر، وصل وسلم على سيدنا محمد، عدد نبات الأرض وأوراق الشجر، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد النبى المليح، صاحب المقام الأعلى واللسان الفصيح، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، عبدك الذى جمعت به شتات النفوس، ونبيك الذى جليت به ظلام القلوب، وحبيبك الذى اخترته على كل حبيب، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، الذى جاء بالحق المبين، وأرسلته رحمة للعالمين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد كما ينبغى لشرف نبوءته، وعظيم قدره العظيم، وصل وسلم على سيدنا محمد، حق قدره ومقداره العظيم، وصل وسلم على سيدنا محمد، الرسول الكريم، المطاع الأمين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الحبيب، وعلى أبيه إبراهيم الخليل، وعلى أخيه موسى الكليم، وعلى روح الله عيسى

الأمين، وعلى عبدك ونبيك سليمـان، وعلى أبيه داوود، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى أهل طاعتك أجمعين، من أهل السموات وأهل الأرضين، كلما ذكـرك الذاكرون، وغـفل عن ذكره الغـافلون، اللهم صل وسلم وبارك على عين العناية، وزين القيامة، وكنز الهداية، وطراز الحلة، عروس المملكة، ولسان الحجة، وشفـيع الأمة، وإمام الحضرة، ونبى الرحمة، سـيدنا محمد، وعلى آدم، ونوح، وإبراهيم الخليل، وعلى أخيـه موسى الكليم، وعلى روح الله عيسى الأمين، وعلى داوود، وسليـمان، وزكريا، ويحيى، وعلى آلهم، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون. انتهى.

هذه صلوات لبـعض الأوليـاء الأكـابر، نفـعنا الله بهم، وهى خـمس الأولى سماها: «بغية القاصد إلى جميع المقاصد»:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العـالمين، حمدا يوافى نعمه، ويكافى مـزيده لا أحصى ثنـاء عليك، أنت كمـا أثنيت على نفـسك، فلك الحمـد حتى ترضى، ولك الحمـد إذا رضيت، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ ... (٦٩) ومن يطع الله والرسول - إلى عَلِيمًا (٧٠)﴾ [النساء]، اللهم صل وسلم أفضل وأجل وأكمل وأنبل وأظهر وأبهر أفضل صلاتك، وأوفى سلامك، صلاة تمتد وتزيد بوابل سحائب جود كرمك، وتنمـو وتزكو بنفائس شرائف لطائف جود مننك، دائمة بدوامك، باقـية ببقائك، لا منتهى لهـا دون علمك، ولا منتهى لعلمك، أزلية بأزليتك لا تزول، أبدية بأبديتك لا تحـول، على عبدك ونبيك ورسولك سيدنا محمد، إمـام حضرتك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، العز الشائع، والنور السـاطع، والبرهان القاطع، الرحمة الواسـعة، والحضرة الجـامعـة، نور الأنوار، ومعـدن الأسـرار، وطراز حلة الفخـار، در صدفـة

الوجود، وذخيرة الملك الودود، ومنبع الفضائل والجود، تاج مملكة التمكين، الرءوف بالمؤمنين، ونعمة الله على الخلائق أجمعين، صلاتك التى صليت عليه بما أنعمت، وبفضائلها له أكرمت، وعلى آله وصحبه، ومخزن علمه، ونجوم هدايته، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يارب العالمين، صلاة تحسن بها أخلاقنا، وتوسع بها أرزاقنا، وتزكى بها أعمالنا، وتغفر بها ذنوبنا، وتشرح بها صدورنا، وتطهر بها قلوبنا، وتروح بها أرواحنا، وتقدس بها أسرارنا، وتنزه بها أفكارنا، وتصفى بها سرائرنا، وتنور بها بصائرنا، بنور الفتح المبين، يا أكرم الأكرمين، يا أرحم الراحمين، صلاة تنجينا بها من هول يوم القيامة ونصبه، وزلاله وتعبه، يا جواد، يا كريم، وتهدينا بها الصراط المستقيم، وتجيرنا بها من عذاب الجحيم، وتنعمنا بها بالنعيم المقيم، يارب يا الله يا رحمن يا رحيم، نسألك حقيقة الاستقامة فى حظائر قدسك، ومقاصر أنسك، على أرائك سبحات مشاهدتك، وتجليات منازلتك، والهين بساطعات أنوار ذاتك، معطرين بأخلاق حقائق رقائق صفاتك، فى مقعد حبيبك وخليلك وصفيك الجمال الزاهر، والجلال القاهر، والكمال الفاخر، واسطة عقد النبوة، ولجة زخار الكرم والفتوة، سيدنا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا محمد، سيد المرسلين، المنزل عليه فى الذكر المبين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]. انتهت.

الثانية سماها «تحفة العارف، لتحصيل المعارف»، وهى:

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، لا إله إلا الله الملك الحق المبين، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾ [آل عمران]، اللهم صل وسلم، أبر وأكرم، وأعلى وأعظم، وأعز

وأرحم، على العز الشامخ، والمجد الباذخ، والنور الطامح، والحق الواضح، ميم الملك، وحاء الرحمة، وميم الملكوت، ودال الهداية، ولام الألطاف الخفية، وراء الرأفة الحفية، ونون المنن الوفية، وعين العناية، وكاف الكفاية، وياء السيادة، ميم العلم، ودال الدلالة، ألف الجبروت، وحاء الرحموت، وسين السعادة، وقاف القربة، وطاء السلطة، وهاء العروة، وصاد العصمة، وعلى آله، جوهر علمه العزيز، وأصحابه من أصبح الدين بهم حرز حريز، صلاتك المهيمنة بعظمة جلالك المشرفة بجلال جمالك، المكرمة بعظيم نوالك، دائمة بدوام ملكك لا انتهاء لها، سامية بسمو رفعتك، لا انقضاء لها، صلاة تفوق وتفضل وتليق بمجد كرمك، وعظيم فضلك، أنت لها أهل، لا يبلغ كنهها، ولا يقدر قدرها، كما ينبغى لشرف نبوته وعظيم قدره، وهو لها أهل، صلاة تفرج بها عنا هموم حداث عوارض الاختيار، وتمحو بها ذنوب وجودنا بماء سماء القربة حيث لا أين ولا بين، ولا جهة ولا قرار، وتغنينا بها عنا فى غياهب عيون أنوار أحديتك، فلا نشعر بتعاقب الليل والنهار، وتخولنا بها سماح رباح فتوح حقائق بديع جمال نبيك المختار، وتلحفنا بها أسرار أنوار ربوبيتك فى مشكاة الزجاجة المحمدية فتتضاعف أنوارها بلا أمد ولا حد ولا انحصار، يارب يا الله، يارب يا الله، يارب يا الله، يا حى يا قيوم، يا حى يا قيوم، يا حى يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الجلال والإكرام، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، نسألك بدقائق معانى علوم القرآن المتلاطمة أمواجها فى بحر خزائن علمك المخزون، وبآياته البينات، الزاهرات، الباهرات، على مظهر إنسان عين سرك المصون، أن تذهب عنا ظلام وحش الفقد، بنور أنس الوجد، وأن تكسونا حلل صفات كمال سيدنا محمد - ﷺ

- نور الجلالة، وأن تسقينا من كوثر معرفته رحيق تنسيم شراب الرسالة، الجود الأكرم، والنور الأقدم، والعز الأعظم، محمد ﷺ، المبعوث بالقيل الأقوم، ومنة الله على كل فصيح وأعجم، سيدنا ونبينا وشفيعنا، قطب رحى النبيين، ونقطة دائرة المرسلين، المخاطب فى الكتاب المكنون، ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)﴾ [القلم]، الموصوف بقولك الكريم، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]، والحمد لله رب العالمين. انتهت.

وهذه صلاة ثالثة له، سماها بـ «الفتح المبين، والقبول المكين»، وهى:

بسم الله الرحمن الرحين، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠)﴾ [الفتح]، اللهم صل وسلم وبارك، وكرم، وشرف وعظم، على مولانا وسيدنا محمد النبى الكريم، والرسول العظيم، العليم الحليم، الرءوف الرحيم، العزيز الحكيم، العروة الوثقى، والصراط المستقيم، العفو الغفور، الشكور الصبور، الودود المجيد، الولى الحميد، النور المبين، وحبل الله المتين، وحرزه الأمين، المنبأ وآدم بين الماء والطين، صل اللهم عليه شرائف صلواتك ونوامى بركاتك، ورأفة تحننك، وفضائل آلائك، وأزكى تحياتك، وأوفى سلامك، حسب قدرك، وسرادق هيبتك، وعظيم شأنك، كما يحسن ويليق بذروة شرفك، وعلو منصبه، حسب قدره وجاهه، وعظيم شأنه، وعلى آله الأقطاب، الأفراد، الأنجاب، السابقين إلى بحبوحة ذلك الجناب، وأصحابه هداة التحقيق، أئمة الصدق والتصديق، الراشدين إلى مدرجة سبيل التوفيق، صلاتك المربوبة بعنايتك، فى ضمن محبتك، قبل القبل حين لا قبل، المحفوفة بكرامتك، فى نشر سعادتك، بعد البعد حين لا بعد، كما لها

أحببت وأفضلت، وإليها هديت وأرشدت، وبها أعطيت وأجزيت، وعليها أوجبت وعولت، فلك الحمد بما أنعمت، لا نحصى ثناء عليك، أنت كما أكرمت، صلاة تحل بها العقد، وتفرج بها الكرب، وتزيل بها الهموم، وتبلغ بها العبد ما طلب، صلاة تطفئ بها عنا وهج حر القطيعة، ببرد يقين وصالك، وتلبسنا بها أنوار غرر تبلج رونق مجد جمالك، فى الحضرات العندية، والمشاهد القدسية، منخلعين عن ذوات البشرية، بلطائف العلوم اللدنية وسرائر الأسرار الربانية، وجواهر الحكم الفردانية، وحقائق الصفات الإلهية، وشرائع مكارم الأخلاق المحمدية، يا الله، يا سميع، يا قريب، يا فتاح، يا وهاب، يا كريم، يا رحيم، وأن تلحقنا بالسابقين، فى حلبة توفيق الفائزين، بالأكملية فى كل خلق أنيق فى الرفيق الأعلى، مع الذين أنعمت عليهم بمواهب أنوار بهائك الأجلى، على بساط صدق المحبة مع الأحبة، محمد ﷺ وحزبه، بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ونبى رحمتك ونؤنؤ عين مملكتك، السابق للخلق نوره، الرحمة للعالمين ظهوره، روح الحق، وسنة الله على الخلق، تاج العز والكرامة، وشفيع الأمم يوم القيامة، قلب قلب القرآن، وخليل الرحمن، وحبيب الله الملك الديان، المبعوث بالدليل والبرهان، المنعوت فى التوراة والإنجيل، والزبور والفرقان، بسمته وصفته تعزيزا وتوقيرا، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب]، المنوه بذكره فى السموات والأرضين، إجلالا لحقه وتعظيما، وتشريفا له وتكريما، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب]. انتهت.

وهذه صلاة رابعة له، وتسمى «الفتوحات القدسية، والمواهب الوافية، فى الصلاة والسلام على سيدنا محمد خير البرية»، وتسمى أيضا «مصباح طريق الهداية، ومفتاح كنز العناية»، وهى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ... ⁽⁹⁾﴾ [الصف] إلى قوله: ﴿...فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ⁽¹⁴⁾﴾ [الصف]، وهو آخر السورة، اللـهم صل وسلم أفلح وأنجح، وأنمى وأصلح، وأزكى وأربح، وأوفى وأرجح، وأفضل الصلوات، وأجزل المنن والتحيات، على عبدك ونبيك ورسولك سيدنا محمد، فلق صبح الأنوار الوحدانية، وطلعة شمس الأسرار الربانية، وبهجة قمر الحقائق الصمدانية، وعروس حضرة الحضرات الرحمانية، نور كل رسول وسناه، ﴿يس ⁽¹⁾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ⁽²⁾﴾ [يس]، سر كل نبى وهداه، ﴿...ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⁽⁹⁶⁾﴾ [الأنعام]، جوهر عقل كل ولى وضياه، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ⁽⁵⁸⁾﴾ [يس]، اللهم صل وسلم على نبيك سيدنا محمد فى الأنبياء، صلاة مقدسة بسرائر قدسك، رائقة برقائق أنسك، وعلى اسمه فى الأسماء، موصوفة بصفاتك وأسمائك، وعلى جسده فى الأجساد، منوطة بنعمائك وآلائك، وعلى قلبه فى القلوب، مروقة بالعمل واليقين والعرفان، وعلى روحه فى الأرواح، محبرة بالتوفيق الروح والريحان، وعلى قبره فى القبور، منمقة بالفوز والقبول والرضوان، صلاة تتضاعف أعدادها بالفضل والمن والإحسان، وتترادف أمدادها بالجود والكرم والامتنان، لا غاية لها ولا أمد لها، شريفة عن المكان والزمان، صلاتك المنزهة عن الحدوث والفتور والنقصان، وأنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة يا حنان، يا منان، يا رحمن، وعلى آله مصابيح طرق الهداية لسعادة

الدارين، ومفاتيح كنوز الحقائق لذخائر الكونين، وأصحابه نجوم ظلام ليل الجهالة، آمنة الأمة من الشك والشرك، والضلالة، صلاة تصفينا بها من كدر الطبيعة الآدمية، بالسحق والمحق، وتطمس بها آثار وجود الغيرية منا فى غيب غيب الهوية، فيبقى الكل للحق، فى الحق بالحق، وترقينا بها فى معارج شهود وجود ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]، يارب، يا الله، يا أكرم الأكرمين يا بديع السموات والأرض، يا أرحم الراحمين ﴿... لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء]، نسألك من فضلك العظيم، يا ذا الفضل العظيم، أن تمنحنا بفضلك العظيم، أنوار علوم الرقائق المحمدية، بدقيق إشارات ﴿... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء] وتخصصنا بكرمك من حضرة الرحمة الشاملة، والنعمة الكاملة النبوية، بإثابة الفتح المبين والفتح القريب والفتح المطلق، فتوح المواهب الأحمدية، بلمحات لحظات خطاب ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴿٣﴾﴾ [المائدة]، وتبيحنا من أرفع المخادع أعلى شرف المجد الأسنى، واجل مراتب القطبية الكبرى، وأكمل الأخلاق العلية العظمى، فى مقام ﴿...قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم]، بواسطة أحمد الثبات ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم] يا ذا الكرم العظيم والعطاء الجسيم، والفضل العميم، بحرمة هذا النبى الكريم، صل اللهم عليه وعلى آله وصحبه وسلم، صلاتك وسلامك فى طى علمك الأزلى، وسابق حكمك الأبدى، صلاة لا يضبطها العد، ولا يحصرها الحد، ولا تكفيفها العبارة، ولا تحويها الإشارة، صلاة سطع فجرها بحظه الأنفس، ﷺ على أفراد الفحول، فابهت وابهر، ولمع نورها بفيضه الأقدس - ﷺ - على ذوى العقول، فأدهش وحير، سيدنا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا، محمد -

ﷺ، النور الأزهر، مجلى تجلى الذات الأحدية، فى حقائق الصفات الواحدية، سر سرائر اللاهوت، فى مشارق أنوار الجبروت، المنزل عليه فى القرآن العظيم، والذكر الحكيم، تثبيتا له وتمكينا، وتعليما له وتبيينا، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [الفتح] - إلى ﴿...عَزِيزاً ③﴾. انتهت.

وهذه صلاة خامسة له، سماها بـ «الدر الأزهر، والياقوت الأبهر»، وهى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ... ②⑧⑤﴾ [البقرة] - إلى آخر السورة، ﴿... يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ...﴾ - ...الْمُتَصَدِّقِينَ ⑧⑧﴾ [يوسف]، وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا اللهم صل وسلم، وأتحف وأنعم، وامنح وأكرم، وأجزل وأعظم أفضل صلواتك، وأوفى سلامك، صلاة وسلاما، يتنزلان من أفق كنه باطن الذات، إلى سماء مظاهر الأسماء والصفات، ويرتقيان من سدرة منتهى العارفين، إلى مركز جلال النور المبين، على مولانا وسيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك، علم يقين العلماء الربانيين، وعين الخلفاء الصديقين، وحق يقين الأنبياء المكرمين، الذى تاهت فى أنوار جلاله، أولو العزم من المرسلين، وتحيرت فى درك حقائقه عظماء الملائكة المهيمنين، المنزل عليه فى القرآن العظيم، بلسان عربى مبين، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ①⑥④﴾ [آل عمران]، اللهم اجعل أفضل صلواتك، وأوفى سلامك، وأنمى بركاتك، وأزكى تحياتك ورأفتك ورحمتك، على النور الأكمل الأعلى، والكمال الأنور الأبهى، مهبط تجليات كمالات المملكة الإلهية ومواقع نجوم الأسرار الجمالية والجلالية، اللطيف

بلطائف شمائل فضائل مكـارم البر الكريم، الرءوف برأفة رحمة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى ﴿رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]، صلوات الله وسلامه ورحـمته وبركاته، ورأفته وتحننه، ومغفرته ورضوانه، على مولانا وسيدنا، محمد الأول الآخر، الظاهر، الباطن، العزيز بعزة عظمـة الله، العظيم، بعظمة عزة الله، القدوس بسبحات سبحان الله، المحمود بمحـامد الحمد لله، الوحدانى بتوحيد لا إله إلا الله، الفردانى بمنار الله أكبر، الربانى بتـدبير لا حول ولا قوة إلا بالله، صلاة عبيـرة الند، ساطعة الأنوار، معطرة الوجود بروائح الجـود الإلهى الأحمدى، والستر القدسى المحـمدى، فى عوالم شئون ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]، لا غـاية لها دون انتـهـاء، ولا أمد لهـا ولا انقضـاء، صـلاتك التـى صليت عليـه بـدوامك، وصل يارب على عـبـدك ونبـيك ورسولك، سيدنا مـحمد المؤمن المهيمن، المطاع الأمين، الحـق المبين، رحمة العالمين، وقـدم صدق المؤمنين، وقائد الغـر المحجلين، غبطة الحق، وعـمدة الحق، الاسم الأعظم والبر الأرحم، صلاة جلت عن الحـصر والعد، وتعالت عن الدرك والحد، صلاتك التامة التى لا تتناهى، تدوم بدوام ملكك الذى لا يضـاهى، كمـا يليق بجود كـرمك وكرم جـودك، يا جواد يا كـريم، وسلم تسليـما، تسلمنا به من حـرج وساوس الصـدور، بنفحات بركـات بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)﴾ [الشرح]، وتخلصنا بها من ثقل أوزارنا، بجود غفران ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾ [الشرح]، وترفعنا به عندك يا رفيع الدرجـات، فى أقصى الدرجات درجات ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ [الشرح]، وتحلنا به برد الرضى والتـسليم بسكينة سكون لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، طيبا يعـبق طيبه بقبول رضى ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾ [يونس]،

مباريا تبارك مدده بمدد ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [الملك]، كثيرا تكاثر خيره بكثير ﴿...لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)﴾ [الشورى]، وترادف بره بمزيد ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾ [ق]، وعلى آله ثمرة شجرة النبوة، ومعدن سر الولاية، ومنبع عين الفتوة، سحب سماء مكارمه العميمة، المتحققين بحقائق أخلاقه العظيمة، وأصحابه ضوء شمس صباح الهدى، الأئمة المهتدين بنور قمر الاهتداء، صلاة وسلاما يبلغان قائلهما أعلى درجات خلاصة خاصة أهل الله المقربين، وينيلانه زلفى أجل مراتب أولياء الله المخلصين، بمنن ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)﴾ [القصص]، فى المكانة العليا، والغاية القصوى، فوق عرش الاستوا، بتراكم أنوار تمكين، ﴿...إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ... (٥٤)﴾ [يوسف]، يارب، يا الله، يا باسط، يا رحيم، يا ودود، نسألك عواطف الكرم وفواتح الجود، أقل عثراتنا من كثائف ذنوب وجودنا، المظلمة بالبعد عنك، واغفر لنا بنور قلبك، ونعمنا بصفاء ودك، وطهرنا من حدث الجهل بالعلم الإلهى، وأتحفنا بالحب الربانى، والوصل المعنوى لمن اصطفيته، حتى أحببته فكنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وأعطنا ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ما أعددت لعبادك الصالحين، الأئمة المرضيين، أولى الاستقامة فى المستوى الأزهى والأفق المبين، ﴿...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ [البقرة]، اللهم إنا نسألك ونتوسل إليك، بحبك لحبيبك، وبحب حبيبك لك، وبدنوه منك وبتدليك له، وبالسر الذى بينك وبينه، صل اللهم عليه وعلى آله وصحبه وسلم، صلاة وسلاما خصصته بهما لخصوصيته بما استأثرت له عندك على عالم

الغيب والشهادة بمخاطبتك إياه: ما خلقت خلقا أحب ولا أكرم على منك، وآته الوسيلة والفضيلة، والشرف الأعلى، والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، يا أرحم الراحمين، يارب، يا الله، يا بر، يا لطيف، يا كافى، يا حفيظ، يا مغيث، يا واسع العطاء، وسابغ النعم، نسألك بنور وجهك العظيم، المبرة الجامعة، من نور كمال سيدنا محمد - ﷺ - مصطفى عنايتك - أن تتحد ذاتنا بذاته المقدسة بجلالتك، وتتحقق صفاتنا بصفاته المشرفة بمحبتك، وتبدل أخلاقنا بأخلاقه المعظمة بكرامتك، فيكون عوضا لنا عنا، فنحيا حياته الطيبة النقية، ونموت موتته السوية الرضية، وفى القبر لنا سراجا منيرا وبهجة، وعند اللقاء عدة وبرهانا، وحجة، ﷺ، وأن تحشرنا معه فى زمرته مع آله وخاصته، مزينين بزينة إيمان ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ - إلى ﴿...قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم]، فى موكب الغر الغرانين السعدا، أهل السعادة، غدا، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ... ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] إلى آخر السورة، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. انتهت الخمس صلوات البديعة المنزع، الرفيعة المطلع.

وهذه صلاة شريفة لبعض العارفين أيضا، وهى:

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، بواب حضرتك، وعين عنايتك لخلقك، ورسولك إلى جنك وإنسك، وحدانى الذات، المنزل عليه الآيات الواضحات، ومقيل العثرات، وسيد السادات، ماحى الشرك والضلالات، بالسيوف الصادقات، الآمر بالمعروف والناهى عن المنكرات: الثمل من شراب المشاهدات، سيدنا

محمد خير البريات، ﷺ ما دامت الأرض والسموات، اللهم صل وسلم على من له الأخلاق الرضية، والأوصاف المرضية، والأقوال الشرعية، والأحوال الحقيقية، والعنايات الأزلية، والسعادات الأبدية، والفتوحات المكية، والظهورات المدنية، والكماليات الإلهية، والمعالم الربانية، وواو الهوية، وسر البرية، شفيعنا يوم بعثنا، والمستغفر لنا إلى ربنا، الداعى إليك، والمقتدى به لمن أراد الوصول إليك، الأنيس بك، والمستوحش من غيرك، حتى تمتع من نور ذاتك، فرجع بك لا بغيرك، فشهد وحدتك فى كثرتك، فقلت له بلسان حالك لقوته بكمالك: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر]، الذاكر لك فى ليلك، والصائم لك فى نهارك، المعروف مع ملائكتك، أنه خير خلقك، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد صاحب الهمم العاليات، والأسرار القدسيات، فافتخرت به الأرض على السموات، القائم بك فى الحركات والسكنات، الصافى من الكدورات، والمعصوم من أحوال البشريات، والهادى إلى الطرقات، قريبا من رب السموات، ملين القلوب القاسيات، وأخصب الفلوات المجدبات، الحجة البالغة، والعزة الطالعة، والشمس الواضحة، سيدنا محمد، النبى الأمى، الطاهر الزكى، المزكى به الأعمال الصالحات، والمغطى به الذنوب الكاشفات، محمود الحركة، ومحل البركة، سيدنا محمد منبع الخيرات، ومجلى القلوب الصاديات، المتحلى بالصفات الربانيات، الجالس على بساط المشاهدات، والغائب عن الحس والمحسوسات فى عالم الشهادات، وكافى الأمة من العقوبات وشفيع الأمم، وقربت لنا الأشياء المبعدات، وناجيته فى الليالى المظلمات، يوم المضيقات، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الطاهرين المطهرين، العالمين المعلمين، المتأهبين إلى لقائك يارب العالمين،

اللهم صل وسلم على نبيك العظيم، ورسولك المبين، المنبأ وآدم بين الماء والطين، وبؤبؤ وجود الأنبياء والمرسلين، القائم على الصراط المستقيم، هاء العروة، وميم المروة، وحاء المحبة، ودال المودة وكاف الكفاية، شافى السقيم ومغنى العديم، الآية العظمى، والسر المكنى، والقريب المدنى، متخلقا بأسمائك الحسنى، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨﴾ [النجم]، وخاطبته بلا حجاب، وكلمته بلا عتاب، وصفيت له الشراب، ورددته إلى مواطن البلاد، ففرحت به أنفس العباد، فأصبحت الكائنات مسفرات، والأشجار مثمرات، والكل فى الرحمات المحمديات، فأبصرت به العيون المعمات، وأعتقت به الرقاب الموبقات، وقربت لنا الأشياء المبعدات، وأجبته فى الليالى المظلمات وهديتنا من الضلالات، وعرفتنا إياك بظهور أحمد الثبات، وأعطيته الكرامات الباهرات، ونورت به كون الكائنات، فلك الحمد يارب البريات، على عطاياك الجزيلات، لا نحصى ثناء عليك أنت العارف لنفسك بنفسك، والدال على نفسك بلطفك، ونحن الراجون لعفوك، وأنت الراحم بفضلك، فنسألك يا الله المشاهدات، فى الحضرات القدسيات، ولذيذ خطابك فى الليالى المظلمات، والغيبوبة بك عن شهوات البشريات، والموت للنفوس الفرعونيات، واللطف منك فى البحار اللجيات، والغرق بك فى البحار النوريات، يا مجيب الدعوات، اعصمنا من الجرم والمحرمات، ورضنا بالأشياء المقدرات، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، وروح أرواح عبادك، الدرة الفاخرة، والرحمة السابغة، والنعمة النافعة، بؤبؤ الموجودات، وحاء الرحمات، وجيم الدرجات، وسين السعادات، ونون العنايات وكمال الكليات، ومنشأ الأزليات، وختم الأبديات، المشغول بك عن الأشياء الدنيويات، الطاعم من المشاهدات،

والمسقى من الأسرار القدسيات، والعالم بالماضى والمستقبلات، سيدنا محمد - ﷺ - وعلى آله الأخيار، وأصحابه الأبرار، اللهم صل وسلم على الجامع الأكمل، والقطب الأفضل، طراز حلة الإيمان، ومعدن الجود والإحسان، صاحب الهمة السماوية، والعلوم اللدنية، اللهم صل وسلم على من خلقت الوجود من أجله، ورخصت لنا الأشياء بسببه، محمد المحمود، صاحب المكارم والجود، اللهم صل وسلم على من خلقته من نورك، وجعلت كلامه من كلامك، وفضلته على أنبيائك وأوليائك، وجعلت السقاية منك إليه ومنه إليهم، كمال كل ولى لك، وهادى كل مضل عنك، داعى الخلق، إلى الحق، تارك الأشياء لأجلك، ومعد الخيرات بفضلك - وخاطبته على بساط قربك: ﴿... وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء]، القائم لك فى ضيائك، والهائم بك فى جلالك، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك، المفتخر بجلالك، والمتكلم بصفاتك، الدال على رحمتك، والمترفع إلى أعلى سمواتك، والمنغمس فى أسرار أسرار تجليات، السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره، صل اللهم عليه وعلى آله وأصحابه الأقطاب، السابقين إلى حانات ذلك الجناب، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، الذى سخرت له الأكوان، وشهدت برسالته الجمادات والحيوان، ونباته فى السر والإعلان وخاطبته بقولك البرهان ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء]، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، النور البهى، والبيان الجلى، واللسان العربى، والدين الحنفى، الرحمة للعالمين، والمؤيد بالروح الأمين، والكتاب المبين، وخاتم النبيئين، ورحمة الله للخلائق أجمعين، اللهم صل وسلم على من أعطيته حتى رضى، وأحييت به الملأ الدنى والعلى، وأغنيت به المرضى، وجعلت نبوءته سناء فى سنى، ولولاه لم

يكن فقير ولا غنى، اللهم صل وسلم على نبيك، الخليفة فى خلقك المشتغل بذكرك، المفكر فى خلقك، والأمين لسرك، والبرهان لرسلك، الحاضر فى سرائر قدسك، والمشاهد إلى جلال جلالك، سيدنا محمد المفسر آياتك، والظاهر فى ملكك، والنائب فى ملكوتك، والمتخلق بصفاتك، والداعى إلى جبروتك، الحضرة الرحمانية والبرزة الجلالية، والسرائر الجمالية، العرش التقى والحبيب النبوى، والنور الزهى، والدر النقى، والصاح القوى، صل اللهم عليه وعلى آله وأصحابه، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم صل وسلم على أرحم الناس قلبا، وأعلمهم بك علما، الزاهد فيما زهدته، والتابع لما قلته فيما سطرته: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى﴾ إلى ﴿وأبقى﴾ [الحجر]، فبقى بقائك، ورضى بقضائك، صل اللهم وسلم على البشير النذير، الشفيق الرفيق، ريحانه الحضرات، ومجلى تجلى الذات، وخير المخلوقات، المؤدب بالآيات، الصادق فى التلفظات، الدانى إلى الرحمات، والهادى إلى الطرقات، والموصوف بالأسماء والصفات، وخير من خلقت يارب البريات، اللهم صل على نورك التمام، ونبيك الرحام، من غير حلول ولا ازدحام، بل تجليا لكونه واسطة الأنام، ونور الظلام لإبراز المرام، وعبدك الديان، ورسولك البرهان، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، نبيك المختار وحبيبك الستار، ونورك المدرار، الذى تحير فى إدراكه ذوو الأبرار، جوال الأفكار، وجوهرى الأذكار، وأمين الأسرار، وعبدك الغفار، المترقى إلى أعلى الأنوار، سيدنا محمد، صل اللهم عليه يارب العالمين، يا أرحم الراحمين، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذى أعطيته وكرمته، وفضلته ونصرته، وأغنيته وقربته، وأدنيته وسقيته، ونورته وطهرته، بنورك الأقدس، وملأته بعلمك الأنفس، وبسطته بحبك الأطرس، وزينته بقولك

الأقدس، فجر الأفلاق، وعذب خلق الأخلاق، نورك المبين، وعبدك القديم، وحبلك المتين، وحصنك الحصين، وفتحك المبين، وجلالك الحليم وجمالك الكريم، صل اللهم عليه وسلم، وعلى آله مصابيح الوجود، وكمال السعود، المطهرين من العيوب، اللهم صل وسلم على اسمك الأعظم، ونبيك الأكرم، وعبدك الأفخم، المبدأ من نورك الأفخم، حيث لا آخر ولا متقدم، النور المتزكى الأزهى، والسيد المعطى، والكنز الأبقى، والورد الأشهى، والسيف المحلى، سيدنا محمد، صل اللهم عليه وسلم يارب العالمين، اللهم صل وسلم على نورك الأزلى، وظهورك الأبدى، سيدنا محمد، بحر العلوم ونور العيون، وزين الشئون، وعين العيون، وبحر النجوم، وفرش العلوم، سيدنا محمد، الحميد فى الحركات، عبدك ونبيك ورسولك، سيدنا محمد، صل اللهم عليه صلاة تحل بها العقد، وسلم عليه سلاما يكون به السداد، وترويحا تنفك به الكرب، وترحما تزيل به العطب، وتكوينا تقضى به الأرب، يارب يا الله، يا حى، يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا كريم نسألك ذلك من فضائل لطفك، ومن غرائب فعلك، يا كريم، اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا، وبغيتنا ومقصدنا، الداعى إلى جنابك، الواعى لكلامك، اللهم صل وسلم على روح سيدنا محمد فى الأرواح، وعلى جسده فى الأجساد، وعلى قبره فى القبور، وعلى منظره فى المناظر، وعلى سمعه فى المسامع، وعلى حركاته فى الحركات، وعلى سكونه الأزهر، فى قيامه الأقمر، وعلى لسانه الأعذب، إنشاء سر الأزلى، والختم الأبدى، وصل اللهم عليه وعلى آله عدد ما علمت، وزنة ما عملت وملء ما علمت، اللهم يارب، يا كريم، يا رحمن يا رحيم، نسألك أن تصلى على سيدنا محمد كما أمرت الأولين، وصل وسلم عليه كما أمرت الآخرين، وفرضتها على العالمين، وقلت وقولك

العظيم: تنبيها لأمته على فضله العميم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب]. اللهم صل وسلم على سيدنا محمد عبدك ونبيك، ورسولك إلى خلقك، وكان قائما بالعبودية، تاركا للربوبية، بواب حضرتك القدسية، ومعدن سرائر الربانية، نبيك العظيم، ورسولك الكريم، سيدنا محمد بنى الرحمة، وشفيع الأمة، مفتاح القلوب الصادية، ومنبع الفضائل الباهرة، صاحب المكارم الخارقة، مصباح الدارين، ونبى الحرمين، وسر الكونين، راية الإسلام، وحبيب الرحمن، ورسول الملك الديان، المبعوث بالبرهان، المتوج بنور الإيمان، قوام الهمة، المنجى من الظلمة، فلك الحمد بما أعطيتنا، ولك الشكر بما خصصتنا، اللهم إنا نتوسل إليك بالحرف الجامع لمعانى كمالك، نسألك إياك بك أن ترينا وجه نبينا، وأن تمحو عنا وجود ذنوبنا بمشاهدة جلالك، وتغنينا عنا فى بحار أنوارك معصومين من الشواغل الدنيوية، راغبين إليك، غائبين فيك، يا الله، يا هو، يا الله يا هو، يا الله يا هو، أنت الله لا غير، اسقنا من شراب محبتك، واغمسنا فى بحار أحديتك، حتى نرسى فى بحبوح حضرتك، وتقطع عنا أوهام خليقتك بفضلك ورحمتك، ونورنا بنور طاعتك، واهدنا ولا تضلنا، وأبصرنا بعيوبنا عن عيوب غيرنا، بحرمة نبينا وسيدنا محمد، صل اللهم عليه وعلى آله مصابيح الوجود، وأهل الشهود، يا أرحم الراحمين، نسألك أن تلحقنا بهم، وتمنحنا بحبهم، يا الله، يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام ﴿...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة]، ﴿...وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة]، وهب لنا معرفة نافعة، إنك على ما تشاء قدير، يارب العالمين، يا رحمن، يا رحيم، نسألك أن ترزقنا وجه نبينا فى منامنا، وأن تصلى وتسلم على خيرنا وكلنا.

انتهى ما ألفيته وكتبته رجاء البركة من أصل فيه تصحيف حتى يفيض الله ما نصححه منه، لأنى كتبته من خط بعض الأكابر كما ألفيته، ولم أقصد بذلك سوى البركة بالمقول فيه والقائل، والأعمال بالنيات، والله يبلغ الأمنيات.

وهذه صلوات لبعض العارفين أيضا:

الأولى: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل صلاة ذاتك، على حضرة صفاتك، الجامع لكل الكمال، المتصف بصفة الجلال والجمال، من تنزه فى المخلوقين عن المثال، ينبوع المعارف الربانية، وحيطة الأسرار الإلهية، غاية منتهى السائرين، ودليل كل حائر من السالكين، محمد الأوصاف والذات، وأحمد من مضى ومن هو آت، وسلم عليه سلاما بدايته الأزل، وغايته الأبد، حتى لا يحصره عدد، ولا ينهيه أمد، وارض عن قوامه فى الشريعة والحقيقة، من الأصحاب والعلماء وأهل الطريقة، واجعلنا يارب منهم حقيقة، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الثانية: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، الأمين على الغيب، ماحى الشك والريب، المؤمن من العذاب، والأمنة للأصحاب، والمؤمن بما أنزلت عليه من الكتاب، صلاة دائمة بدوام ملكك، باقية ببقاء وجهك، وسلم تسليما كثيرا، اللهم إنك تعلم أن لا وصلة بينى وبينك إلا هو، ولا شفيع عندك سواه، ولا دليل عليك غيره، اللهم بجاهه لديك، أمن خوفى، وأقل عثرتى، وتولنى بعنايتك، وحببنى إلى خلقك، واكفنى بالنور والبهاء، وامح من قلبى ظلمة السوى، واغننى بك غناء الأبد، وابق على وجودى عن شهودى، واجعلنى من أخص

أوليائك، وأوحد أصـفيائك، واهدنى لأعظم الخلق وأحبـه وأطهره وأرضاه، خلقك الذى حليت به حبيبك وخليلك، الذى اصطفـيته لنفسك، واختـرته لحضرة قدسك، وجـعلته محمدا فى خلقك، اللهم اشـهدنى هويتى فى عين هويته، وأرنى إياى بلك، وقدسنى عنى بك، أنت مجـيب الدعوات، وموجد الأرضين والسمـوات، رب هب لى من كمالك، ما يجـبر نقصى، وكن أنت كافى وحسـبى، يا ودود، يا جواد، أحطنى وأعنى ما ابتليـتنى، وطهرنى من رجس طبيعة نفسى، ووفر حظى مما قـسمته لأوليائك من إرث نبوى، وفيض ملكوتى غيـبى، وسر إلهى قدسى، واجـعلنى من أخص اتباع نبيك، سـيدنا محمد، صل اللهم عليه وعلى آله وصحبه، صلاة وسلاما ترضيك وترضيه، وترضى بها عنا يارب العالمين، سبحان ربك رب العـزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الثالـثة: بسم الله الرحـمن الرحيم، اللـهم صل وسلم أفضل الصـلاة وأكملـها، وأنبلها وأجـملها، وأشـرفهـا وأطيبـها، وأزكاها وأنماهـا، وأتمها وأعمها، وأبركها، وأظمها، وأجلها، وأبهاها، وأنهاها وأعلاها، على أفضل الخلق، سـيدنا مـحمـد، عبـدك ونبيك، ورسـولك النبى الأمى، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه، وذريته وأهل بيته، كما هو أهله ومستوجبه، اللهم صل وسلم على سيـدنا محمـد، وعلى آل سيدنا مـحمد، صـلاة دائمة بدوامك، باقيـة ببقائك، لا نفاد لهـا دون علمك، عدد معلوماتك، وزنة مـعلوماتك، وملء معلوماتك، ومداد كلماتك، فى كل لحظة ولمحة، من الأزل إلى الأبد، وكلما ذكرك الذاكـرون، وغفل عن ذكره الغافلون، واجـزه عنا ما هو أهله، وصل على جميع الأنبياء والمرسلين، والملائكة والمقـربين، وعبادك الصالحين،

وعلينا معهم كذلك، والحمـد لله على ذلك، ورضى الله عن سادتنا أصحاب سيدنا رسول الله أجمعين.

الرابعة: اللهم صل وسلم على سيدنا محمـد، وعلى آل سيدنا محمد، روح الوجود، أوله وآخره، وظاهره وباطنه، أعـلاه وأسفله، جوهره وبسيطه ومركبه، صلاتك التى صليت علـيه فى حضرتك من حيث أنت، أنت أنت، ومن حـيث هو، هو، هو، حيث لا عـين ولا أين، ولا قبل ولا بعـد، فى غيب غيب الهوية، وطمس آثار البشرية، الـلهم روحنا بحقيقته وزين ظواهرنا بشريعته، صل اللهم عليه، وعلى آله وصحابته.

الخامسة: اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، صلاة تنزل من الحضرة الذاتية، إلى الحضرة الصـفاتية، إلى الحضرة الفعليـة، إلى الحضرة الملكوتية، إلى الحضـرة الملكية، فـيندرج ذلك فى ذلك، فنكون كـما كنا، وتكون كـما كنت، كما كنت، كما كنت، يارب العالمين. انتهت.

وهذه صلاة لبعض العارفين، تلوح أنوار القبول على صفحاتنا، وهى:

بسم الله الرحمـن الرحيم، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ ... (٦٩)﴾ إلى ﴿...عَلِيمًا (٧٠)﴾ [النساء]. الحمد لله رب العالمين حمدا كثـيرا طيبا مباركا فيه بجمـيع محـامده كلها، أولهـا وآخرها، وظاهرها وباطنهـا، عدد نعـماء الله كلهـا، ما علمنا منهـا وما لم نعلم، وعـدد خلق الله كلهم ما علمنـا وما لم نعلم وعدد مـا حمد به الحامـدون من الملائكة والمقربين والنبيـئين والمرسلين، والصديقيـن والشهداء والصالحين، حـمدا مضاعـفا فى مثله وأمثـاله، وأمثال أمثـاله، يدوم بدوام ملك الله الواحـد القهـار، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنـا ومولانا محمـد، عبدك ورسولك، النبى الأمى، وعلى آله وأصـحابه

وأهل بيته، أفضل صلاة وأزكى سلام، وأنمى بركة، فى الأولين والآخرين، وفى الملأ الأعلى إلى يوم الدين، اللهم اجعل أفضل صلواتك، وأوفى سلامك، وأنمى بركاتك، وأزكى تحياتك ورأفتك ورحمتك، على سيدنا ومولانا محمد، عبدك ورسولك، النبى الأمى، وعلى آله وأصحابه، أهل بيته، أفضل صلاة، وأزكى سلام، وأنمى بركة، وأقر عينه فى أهل بيته، وأصحابه وأمته.

اللهم افتق رتقنا بكوثر يقين معين ماء محبته، وانشر علينا فى جمعنا وفرقنا فى كل وقت ونفس رايات هدايته، وهب لنا عقلا نسمع منك، ونفهم آياتك وكلام رسولك، من العقل الذى خصصت به أنبيائك ورسلك والصديقين من عبادك، واهدنا بنورك، هدايةَ المخصوصين بمشيئتك، ووسع لنا فى النور توسعة كاملة، تخصنا بها برحمتك، فإن الهدى هداك، وإن الفضل بيدك، تؤتيه من تشاء، وأنت ذو الفضل العظيم، وأنت أرحم الراحمين، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد، عبدك النبى الأمى، وعلى آله وأصحابه وأهل بيته، أفضل صلاة، وأزكى سلام، وأنمى بركة، بعدد كل حرف جرى به القلم، واجزه عنا يارب ما هو أهله، واجزه عنا أفضل ما جازيت رسولا عن أمته، ونبيا عن قومه، وارحمنا به رحمة شاملة، كاملة، كافة، وحقق لنا الولاء منه باتباعه، وخذ بنواصينا إلى متن هديه، واقتفاء آثاره، واجمعنا به حالا ومآلا، بفضلك وكرمك، يا ذا الفضل العظيم، يا جواد يا كريم. اللهم اجعل أفضل صلواتك، وأتحفها وأنعمها، وأكرمها وأجلها، وأجملها، وأكملها، وأجزلها وأوفاها، وأرجحها وأنجحها، وأفلحها وأربحها، وأزكاها وأسناها، وأعلاها، وأغلاها، وأولاها وأتمها

وأرضاها، على سيدنا ومولانا محمد عبدك ورسولك، النبى الأمى، وعلى آله وأصحابه وأهل بيته، أفضل صلاة وأزكى سلام، وأنمى بركة، صلاة متصلة، أبدية سرمدية فى كل وقت وحين، عدد ما كان، وعدد ما يكون، وعدد ما هو كائن فى علمك، وعدد مواهبك له، ومراحمك عليه، ومباركك لديه، فى الآزال، والآباد، وارعنا برعايته، وارحمنا بحمايته، وتولنا بولايته، وأمدنا بالإقبال منك عليك بتوليك له، وقربنا وأقرب بنا، بتقريبك له وقربك منه، وارض عنا برضاك، وشفعه فينا بقبولك لشفاعته، وهب لنا منك الحظ الأوفر، فإنك قلت وقولك الحق «واسألوا الله من فضله» بحق من أنعمت عليهم، وقلت فى حقهم «ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليما»، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك ورسولك، النبى الأمى، وعلى آله وأصحابه، وأهل بيته، أفضل صلاة، وأزكى سلام، وأنمى بركة، عدد ما جرى به قلمك، ونفذ به حكمك، وأحاط به علمك، وعدد نعمائك، وإفضالك وآلائك، وعدد كلماتك التامات، وعدد ذوات مثاقيل جميع الكائنات، فى الليل والنهار، والعشى والإبكار، على مر الدهور والأعصار.

اللهم احفظنا واسترنا وانصرنا به فى الحركات والسكنات، وفى جميع الأوقات، واستهلك كثرتنا فى مرادك، وفرقنا فى ودادك، اللهم بحرمة سيدنا محمد، السيد الكامل، الفاتح الخاتم، أجلسنا على بساط القرب منك، بالقناعة عن غيرك، والبقاء بنورك، وهيمنا فى برزخ الصنع، ناظرين بك إليك ومنك، لا إلى غيرك، إنك على كل شىء قدير. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد، عبدك ورسولك، النبى الأمى، وعلى آله

وأصحابه، وأهل بيته، أفضل صلاة، وأزكى سلام، وأنمى بركة، صلاة تستغرق العد وتحيط بالحد، وتنمو وتزكو بنفائس شرائف لطائف جودك وكرمك، صلاة تفوق وتفضل صلوات المصلين عليه من أهل السموات وأهل الأرضين أجمعين، دارة عليه وعليهم بمراحمك، وعطفك ولطفك أضعافا مضاعفة، مستهلكة كثرات الأعداد، بالعطف واللطف، والفضل والإحسان، صلاة تبلغنا بها من كل أكمل الرضى، رضاك عنا يا أهل التقوى والمغفرة والرحمة والرضوان، وتطهرنا بها من كل دنس ورين، وسرا وعلانية، وتمحو بها الأين والبين، وتعصمنا بها من الزلل، فى القول والنية والعمل، وتنور بها أسماعنا وأبصارنا، وألسنتنا وعقولنا، وقلوبنا وأرواحنا وأسرارنا، وتغنينا بها عنا فى غيب غب الهوية، الأحمدية والمحمدية، وتمنحنا بذلك إقرار القرار، فإنه الحبل المتين، والنور المبين، وقدم صدق المؤمنين، ورحمة العالمين، وقائد الغر المحجلين، والنجم الثاقب، ونعمتك التى لا تحصى، والعروة الوثقى، والصراط المستقيم، اللهم اغمسنا فى فضله بفضله، واجعلنا من أهله يا حنان، يا منان، يا رحمن، ﴿...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة] اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك ورسولك، النبى الأمى، وعلى آله وأصحابه، وأهل بيته، أفضل صلاة، وأزكى سلام، وأنمى بركة، عدد خلقك، ورضى نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، ومنتهى رحمتك، ومبلغ رضاك، صلاة دائمة بدوامك، باقية ببقائك، لا منتهى لها دون علمك، ولا منتهى لعلمك، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يارب العالمين، عدد الشفع والوتر، وعدد السحاب والقطر، وعدد ذرات البر والبحر، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، سرمدا فى سرمد، يارب، يا الله، يا حى يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام يا بديع

السموات والأرضين، يا أرحم الراحمين، اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك، النبى الأمى، وعلى آله وأصحابه وأهل بيته، أفضل صلاة، وأزكى سلام، وأنمى بركة، صلاة تلحقنا بها بخلاصة خاصة أهل محبتك، وتملأنا بها بحبك وحب نبيك، سيدنا محمد ﷺ، واجعله أحب إلينا من أسماعنا وأبصارنا، وعقولنا وقلوبنا وأرواحنا وأسرارنا، وعجل بنا بالحب منك إليك - رب - لترضى، وافننا فى المحبة كلا وبعضا، واجعلنا لما تنزل من سماء القربة من الماء الطاهر أرضا، وأحينا به حياة طيبة، مستعملين بذلك وأنت العامل على الحقيقة نفلا وفرضا، والحمد لله مظهر كل وجود، حمدا طيبا مباركا فيه، غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا، حمدا يستهلك ذوات موجودات، الوجد، حمدا يوافى نعمه، ويكافى مزيده، حمدا به منه إليه، مطلقا من جميع القيود، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، كنز اختصنا به من خزائن الغيب والجود، يستنزل بها كل خير، ويدفع بها كل شر، ويفتق بها كل رتق مسدود، فإنه هو الموجد لكل شىء، وفى كل شىء هو المأمول والمقصود، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فى كل أمر نزل أو هو نازل، وفى كل حال ومقام خاطر، ووارد ومصدر وورود، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. انتهى ما نقلته من بعض مجاميع، وفيه بعض تصحيف، ولم أجد غيره فى الحال، وسأبحث عما يصحح به فى مظانه - إن شاء الله - والله ولى التوفيق.

وهذه ثلاث صيغ فى الصلاة على سيدنا محمد ﷺ، لشيخ شيوخنا، قطب الوجود، وشمس دائرة الشهود، الإمام المعظم، والعارف المقدم، سيدى أبو عبد الله محمد بن سيدى أبى الحسن البكرى الصديقى - نفعنا الله به وبسلفه الكريم.

الصيغة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، اللهم صل وسلم على نورك الأسنى، وسرك الأبهى، وحبيبك الأعلى، وصفيك الأزكى، واسطة أهل الحب، وقبلة أهل القرب، روح المشاهد الملكوتية، ولوح الأسرار القيومية، ترجمان الأزل والأبد، لسان الغيب الذى لا يحيط به أحد، صورة الحقيقة الفردانية، وحقيقة الصورة المزينة بالأنوار الرحمانية، إنسان الله، المختص بالعبارة عنه، سر قابلية التهيؤ الإمكانى المتلقية منه، أحمد من حمد، وحمد عند ربه، محمد الباطن والظاهر، بتفعيل التكميل الذاتى فى مراتب قربه، غاية طرف الدورة السنبوية المتصلة بالأول نظرا وإمدادا، بداية نقطة الانفعال الوجودى، إرشادا وإسعادا، أمين الله على سر الألوهية المطلسم، وحفيظه على غيب اللاهوتية المكتم، من لا تدرك العقول الكاملة منه، إلا مقدار ما تقوم عليها به حجته الباهرة، ولا تعرف النفوس العرشية من حقيقته إلا ما يتعرف لها به من لوامع أنواره الزاهرة، منتهى همم القدسيين، وقد بدأوا مما فى عالم الطبائع، مرمى أبصار الموحدين، وقد طمحت لمشاهد السر الجامع، من لا تجلى أشعة الله لقلب، إلا من مرآة سره، وهى النور المطلق، ولا تتلى مزاميره على لسان، إلا برنات ذكره، وهو الوتر الشفعى، المحقق المحكوم بالجهل على كل من ادعى معرفة الله، مجردة فى نفس الأمر عن نفسه المحمدى، الفرع الحدثانى، المتزعزع فى نمائه بما يمد به كل أصل أبدى، جنى شجرة القدم، خلاصة نستختى الوجود والعدم، عبد الله، ونعم العبد، الذى به كمال الكمال، وعابد الله بالله، بلا اتحاد ولا حلول، ولا اتصال ولا انفصال، الداعى إلى الله على صراط مستقيم، نبى الأنبياء، وممد الرسل،

عليه بالذات، وعليهم منه أفضل الصلاة، وأشرف التسليم، يا الله، يا رحمن، يا رحيم.

الصيغة الثانية:

اللهم صل وسلم على جمال التجليات الاختصاصية، وجلال التدليات الاصطفائية، الباطن بك غيابات العز الأكبر، الظاهر بنورك فى مشارق المجد الأفخر، عزيز الحضرة الصمدية وسلطان المملكة الأحدية، عبدك من حيث أنت، كما هو عبدك من حيث كافة أسمائك وصفاتك مستوى تجلى عظمتك وعلمك، ورحمتك وحكمك، فى جميع مخلوقاتك، من كحلت بنور قدسك مقلته فرأى ذاتك العليا جهارا، وسترت عن كل أحد من خلقك فى باطنه لك أسرارا، وفلقت بكلمة خصوصيته المحمدية، بحار الجمع، ومتعت منه بمعرفتك وجمالك، وخطابك القلب والبصر والسمع، وأخرت عن مقامه تأخيراً ذاتيا كل أحد، وجعلته بحكم أحديتك وتر العدد، لواء عزتك الخافق، لسان حكمتك، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وشيعته ووارثيه وحزبه، يا الله، يا رحمن، يا رحيم.

الصيغة الثالثة:

اللهم صل وسلم على دائرة الإحاطة العظمى، ومركز محيط الفلك الأسمى، عبدك المختص من علومك، بما لم تهىء له أحدا من عبادك، سلطان ممالك العزة بك، فى كافة بلادك، بحر أسرارك، الذى تلاطمت برياح التعين الصمدانى أمواجه، قائد جيش النبوة، الذى تسارعت بك إليك أفواجه، خليفتك على كافة خليقتك، أمينك على جميع بريتك، من غاية المجد المجيد، فى الثناء عليه الاعتراف بالعجز عن اكتناه صفاته ونهاية البليغ

المبالغ أن لا يصل إلى مبالغ الحمد على مكارم وهباته، سيدنا وسيد كل من لك عليه سيادة، محمدك الذى استوجب من الحمد بك لك إصداره وإيراده، وعلى آله الكرام، وصحبه العظام، ووراثه الفخام، الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى - سبعا، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾ [الصافات]. انتهى.

أقول: هذا الإمام البكرى، له الباع المديد فى التعبير عما حصل له به الذوق، وله فى الجناب النبوى أمداح تدل على ما له من حب فيه وشوق، ولولا الإطالة لذكرت شيئا من كلامه فى هذا الباب، وإن كان نقطة من بحره العباب، ولنذكر قصيدته الشهيرة، وهى مما يتوسل به لقضاء الحوائج - بعد الصلاة على النبى ﷺ - فى خلوة، وهى هذه، وأرويها عن الأديب الرحالة، الحافظ ابن بطوطة زمانه، سيدى محمد بن رأس العين - حفظه الله - عن ناظمها سيدى محمد البكرى - نفعنى الله به.

ما أرسل الرحمن أو يرسل ... من رحمة تصعد أو تنزل
فى ملكوت الله أو ملكه ... من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده ... نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها واصل لها ... يعلم هذا كل من يعقل
فلذ به فى كل ما يرتجى ... فهو شفيع دائما يقبل
وعذبه من كل ما تختشى ... فإنه المأمن والمعقل
وحط أحمال الرجا عنده ... فإنه المرجع والموئل
وناده إن أزمة أنشبت ... أظفارها واستحكم المعضل

يـا أكـــــرم الخلـق عـلى ربـه وخـيـر من فـيـهم به يسـأل
قـد مسنى الـكرب وكم مـرة فـرجت كـربا بعـضـه يذهل
ولن ترى أعـجـز منى فـمـا لشـدة أقـوى ولا أحـمل
فـبـالذى خـصك بـين الورى برتـبـة عنهـا الـعلى يـنزل
عـجـل بإذهاب الذى اشـتكى وإن توقـفت فـمن أسـأل؟
فحـيلتى ضاعت وصبـرى انقضى ولست أدرى مـا الـذى أفـعل؟
وأنـت باب الله أى امـرئ أتاه مـن غـيـرك لا يـدخل
صلى علـيك الله مـا صافـحت زهر الروابـى نسـمـة شـمـأل
مـسلـمـا مـا فـاح عطـر الحمى فـطـاب مـنه الـند والمـندل
والآل والأصـحـاب مـا غـردت سـاجـعـة أملودها مـخـضل

المدد يا رسول الله، المدد يا رسول الله، المدد يا رسول الله!

وحدثنى الرحـالة ابن رأس العين المذكور، أنه أخذها عن ناظمـها من لفظه، قال:

وسمعته يقول فى آخـرها: وصل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين.

قال: وسمعته مرة يقرأها حتى بلغ قوله:

يا أكرم الخلق علـى ربه - البيت كرره ثلاثا، ثم قـرأ بعده: قـد مسنى الفقـر - البيت أَعْنِى أنّه بـدل لفظ الكرب بالفقـر، ثم أعاد بالضـر، ثم أعاد الثالثة، فذكره بلفظ الكرب - كمـا هو فى أصل القصيدة. وقال لى المذكور:

سمعت الشيخ - رضى الله عنه - يكرر قوله: صلى عليك الله - البيت، ثلاث مرات، قال: وكرر قوله: عجل بإذهاب الذى اشتكى - البيت، مع البيت الذى قبله، وهو قوله: فبالذى خصك ثلاثا - أعنى أنه كرر البيتين ثلاث مرات، ومسح بيديه على موضع الألم. وكان سبب إنشائها، أنه كان - رضى الله عنه - رمدا، فقالها فبرئ، قال وهى مجربة لذهاب الضر، فمن كان به ضر فليقرأها ويمسح الضرر بعد قوله: فبالذى خصك بين الورى - البيتين، بعد أن يكررها ثلاثا، وحينئذ يمسح على موضع الشكوى - كما فعل الشيخ - رضى الله عنه؟ انتهى ما أخبرنى به الأديب ابن رأس العين - حفظه الله.

وتذكرت هنا ما كتب به الشيخ البكرى المذكور لقاضى مكة المشرفة، السيد محمد بن السيد حسن أفندى - رحم الله الجميع -، ونصه:

حمدا لمن جعل من طوالع التجلى النبوى، فى مطالع التحلى العلوى، سعودا، ورقى درارى ذرارى، صاحب الرسالة، فى معارج عز البسالة، صعودا، فأنجز للدهر، بعلماء عترة من نزل عليه سورة العصر، وعودا، وألمع من خلال حبك سماء الجمال المحمدى، كما أسمع من خلال سحب فلك الجلال الأحمدى، بروقا ورعودا، وشهادة للحق سبانه بأنه الإله الحق الذى لم يزل إلاها وترا صمدا معبودا، ولمحمد عبده ورسوله، بأنه الذى أعجز عن الإحاطة بكنه مقامه عقولا ونقولا ورسوما وحدودا، وصلاة وسلاما عليه وعلى آله وصحبه الذى جعل الله حوض معارفهم، مترعا مورودا آمين.

وبعد، فقد تمتع ناظرى، وتروح خاطرى، برقيم أرسلته يا علامة العلماء إلى، ومثال كأنما ألقى من سدرة المنتهى على، ولا بدع فقد علم الله

ما كـان بينى وبين المرحوك المغفـور مولانا والدكم من تراضع كئـوس الفضل عند ذلك البيت الأكرم، والحجر الأسـحم، والحجر والحطيم وزمزم، والحمد لله الذى أطلعك من فلك المقام سراجا وقمـرا منيرا، وجعلك لأبناء الفضائل حيث حلوا عاضدا ونصيـرا، ثم لا أقدر أن أصف طيب ما أرسلته إليك الآن من تحـية عطر طيـبهـا الملوان، ولا أكـتفى أن أقـول تنافح رضوان، وخـزان الجنان، والحور الولدان، والرفـاف والعبقـرى الحسان، وإنما أقـول: أرجو أن تكون نفـسا من أنفـاس الرحمن، على مـا يليق بعظمة ذلك الشـأن، ثم لله الحمد أن أبرز فى أواخر هذا القرن العاشر، خبيئة عنايته لعباده، وأهل سحابة رحمته لعباده، وأظهر من وراء أستار الغيب كافيا كافلا، وعزا للإسلام وأهله كافلا، وذلك مـولانا المقام العالى، إبراهيم باشـا - بلغه الله من أرفع المراتب فى الدارين مـا شاء وطاول بعـمـره الأبد، وحرسـه بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص]، ولقد وصل إلى هذا الفقير، إحسانه الوافر، ولا ريبة عندى بعد إذ الإرادة الإلهية السـبب الباطن - أنكم السبب الظاهر، مع ماجلبتـه الشريفة الأفضلية من المثابرة على تعظيم طائفة العلماء، ومعاملتهم بالعناية الزكية بعين الله على زمن جعل فيـه هذا الإنسان لعيون الأعيـان إنسانا، ودهربوجود هذا العزيز سواه إنسانا، ثم ما برزت به إشارتكم الواجبة الامتثال، بادر الفقير إلى تحـصيل شىء فى الحـال، وأرسله صحـبـة حاملهـا الرجل الصالح، الحـاج محمد، وهو خمسة أسفار ستتشرف بنظركم الذى به تستنير الأبصار عالما رب السمـاء والأرض، والطول والعرض، أن الفقـير لا عهـد له بشىء من ذلك، أولا لوعورة هذه المسالك، وثانيا - وهو الأول الحقيقى - الاعتماد على الملك المالك، والله تعالى يذلل لكم نواصى المطالب، ويزيد علو قدركم على مفارق

الكواكب، مسئولا إحسانكم فى دوام الجبر بالمراسلة، والتأنس بالمواصلة، وأنتم فى أمان الله تعالى وحفظه، وعنايته ولحظه. انتهى.

ومن بديع نظمه - رحمه الله - يخاطب سلطان المغرب، مولانا أمير المؤمنين، أبو محمد عبد الله الغالب بالله، الشريف الحسنى، صب الله عليه شآبيب رحمته:

ولما نأيتم ولم أستطع أسير لحضرتكم بالقدم
سعيت إليكم برجل الرسو ل وخاطبتكم بلسان القلم

وأخبرنى بعض الأصحاب الكتاب، أنه كتب بهذين البيتين أيضا، لمولانا أمير المؤمنين، أبى العباس المنصور، أخو الغالب بالله المذكور، جدد الله عليه حلل عفوه، وكان - رضى الله عنه - كتب إليه بالإجازة العامة، وكان المنصور أمير المؤمنين، كثيرا ما يفيض عليه - على بعد الدار - سجال نواله، يتحفه بما يقتضيه شرف أحواله، ولما مات رحمه الله، أجرى تلك العادة مع ابنه الشيخ الأستاذ زين العابدين - رضى الله عنهم أجمعين، وأوردهم من سلسال كرمه وعفوه، رضوانه المنهل المعين. وللسيد البكرى المذكور يخاطب بعض الناس:

إذا زرتم وتفضلتم وشرفتمونا بنقل القدم
فذاك عجيب ولا منقص دخول الموالى بيوت الخدم

وله رحمه الله من مطلع قصيدته (رائقة):

انظر بعينك مشرقا أو مغربا تجد الوجود عن الحقيقة معربا

وله - (رضى الله عنه) ديوان نظم يزرى بالدرر، اشتمل من كلامه على جملة كلها غرر، تتنسم نفحات الفتح الربانى التوفيقى من سطوره وطروسه، وتتبسم عن ثغور المنح الإيقانى الصديقى أزهار غروسه، أن السعادة أصلها التخصيص، ﴿... ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد]، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ... ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة]، فلا حاجة إلى زيادة التنصيص.

رجع (إلى ما كنا فيه)، وقال الشيخ الإمام العلامة، سيدى أبو عبد الله محمد الرصاع - رحمه الله - ما رأيت صلاة أحلى وأجمع، وأزكى وأمتع، من صلاة الشيخ الوالى العارف بالله، المحب فى رسول الله، سيدى على بن وفا - رضى الله عنه، ونفع به.

اللهم صل على النور الأول، والسر الأنزه الأكمل، عين الرحمة الربانية، وبهجة الاختراعات الأكوانية، صاحب الملة الإسلامية، والحقائق العيانية، نور كل شىء وهداه، وسر كل شىء وسناه، من فتحت به خزائن الحكمة والرحموت، ومنحت بظهوره أنوار الملك والملكوت، قطب دائرة الكمال، وياقوتة تاج محاسن الجلال، إنسان عين المظاهر الإلهية، ولطيفة تروحنات الحضرة القدسية، مدد الإمداد، وجود الجود وواحد الأحد وسر الوجود، واسطة عقد السلوك، وشرف الأملاك والملوك، بدر المعارف فى سموات الرقائق وشمس العوارف في عروش الحقائق، بابك الأعظم، وصراطك الأقوم، وبرقك اللامع، ونورك الساطع، ومعناك الذى هو بأفق كل قلب سليم طالع، وسرك النزه السارى فى جزئيات العالم وكلياته، علوياته وسفلياته، من جوهر وعرض ووسائط، ومركبات وبسائط، مغرب

أسرار الذات، ومشرق أنوار الصفات ومظهـر التجليات، بأنوار السبحات من سنا السرادقات، بأرواح التروحنات، المصلى فى محراب جمع الجمع بأحمد، والقاري بفرقان الفرق بمحمد، والقائم فى الملك بشرعه وجلاله، والراحم فى الملكوت برحمتـه وجماله، عين غيبك الكـاملة، وخلفيتك على الإطلاق فى مملكتك الشاملة، صل اللهم عليـه صلاة تعرفنى بها إياه فى مـراتبه وعوالمه، ومواطنه ومـعالمه، حتى أشـهده بعين العـيان، لا بالدليل والبرهان، وأعـرفه بالتـحقيق، فى كـل موطن وطريق، وأرى سـريان سره فى الأكوان، ومـعناه المشرق فى مجاليه الحسان، واجعل اللهم نور مددى من شمس حقيقته، ومن نور شريعته، حـتى أستضىء فى ليل جهلى بأنوار حقـائق معارفه، وأنس فى غربة مـسراى بأنس لطائفه، واحـملنى إلى حضرته القـدسية الأحـمدية على كاهل شريعـته المحمدية، وعمر أطوار نقص بأطوار كـماله والبسنى من خلع جلاله وجماله، وأفردنى فى حبه كمـا أفردته فى حسنه وإحسانه، وخصصنى بخصائص قربه وامتنانه، حتى أكـون وارثا له به، وناظرا منه إليه، وجامعا له به عليـــه، اللهم وصل صـــلاتك الأزليـــة الأحـدية، فى مظـاهرك الأبدية الواحدية، ما توحد تجليك، وتكثر الفـرد فى العدد، وأشرقت أنوار الصفات بتوالى المدد، واتسعت ربوبيـة الحكيم، وتقدست سبحات العليم، بتسـبيحات التمجيد والتكريم، بلسـان القدم، فى أزل الأزل، وتقدس الواحد فى صفتى الجلال والجمـال، وسلم عليه سلام الفردانـية، ما تعددت مراتبـه العددية فى وحدة مـراقى درجاته العلوية، فى مقـامات العبوديـة، بتوالى شهود الرحـمة الذاتيـة، واندراج الأنوار الصـفـاتـيـة، فى المجـالات الأطوارية، والمطارات الملكية، وسجـدت له الأرواح الروحانية، فى محراب الآدمية، جـامع حيطته المحيطة الأحمـدية، بالأنوار السبوحية، الكاتبـة بالأقلام المعنوية، فى الألواح الشبهودية، بالأسرار الخفية، عن الإدراكات البشرية، وصل عليه صلاة وسلاما

يتقدس فيهما عن عوارض الإمكان لوجوب اتصافه بالكمالات، وعموم عصمته فى جميع الخطرات، ما تنزه شامخ عزه عن النقص السلوب، وثبت راشخ مجده بالذات والوجوب، وارض عن أصحابه أئمة الهدى ونجوم الاقتدا، ما تعاقبت أدوار الأنوار، وأشرقت أسرار الأسرار، وسلم تسليما كثيرا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وفى بعض النسخ زيادة قوله: يا مولاى يا واحد، يا مولاى يا دائم، يا على يا حكيم.

انتهت هذه الصلاة العظيمة الشأن، نقلتها من خط شيخ شيوخنا العلامة الأوحد، سيدى أبى الفضل سيدى خروف التونسى - رضى الله عنه، وقابلتها من خط غيره، حتى صححتها على ما كتبتها عليه هنا، نسأل الله أن ينفعنى بها، ويتداركنى بعفوه، بجاه سيدنا محمد - ﷺ.

رجع إلى ما كنا فيه، ومن نثره - رحمه الله: خطبه التى سارت بفصاحتها الركبان، ولهج ببلاغتها الشيب والشبان، وكان منها ما نسجه على بعض سور القرآن، بطريق الاقتباس، الذى لا يلحق سامعه شك فى تبريزه ولا التباس، وقد سمعت مولانا العم، الإمام مفتى تلمسان، وخطيب جامعها الأعظم، عمنا سيدى سعيد بن أحمد المقرى - رضوان الله عليه - يخطب ببعضها، ومما علق بحفظى منها بعد الصدر:

أيها الإنسان، إن الله تعالى قد وهبك من عنايته حظا اقتضى شرفك موفورا، وأبرزك من العدم إلى الوجود، ومن الغيب إلى الشهود، وعرفك ذلك بقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ①﴾ [الإنسان]، استودع عالمك المختص من بدائع الحكمة الإلهية، ما يحار فيه

عقل متجليه، ونضد جواهره النفسية، فى سلك الازدواج فكل عضو إلى ما يليه، وصرف فيه من وجوه الإتقان، ما دل عليه بتعريف ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ②﴾. فيا أيها المبتلى إلى كم الاضطجاع على فرش البطالة، يكفيك من هذا النوم، غرقت يا مغرور، فى بحر الغرور، ولم تحسن العوم، لله در قوم أشفقوا من هول المطلع ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ⑪﴾. تأملوا - رضى الله عنهم - بإبصار البصائر الصافية واعتبروا، وعلموا أنهم مجزيون بأعمالهم فانتهوا وائتمروا، وجردوا ملابس الكسل عن الطاعة فجدوا وشمروا، عاملوا الله بالصدق فرضى عنهم، ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ⑫﴾، سلك بهم سائق التوفيق أهدى المسالك، حملهم على جادة الجد علمهم بما هنالك، فلو رأيتهم فى الجنة وقد حفت بهم الولدان والملائك، لرأيت قوما مبرورين ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ⑬﴾ فلله طيب أنفاس هؤلاء القوم حين يتجلى لهم فى حضرة قدسه - رب الأرباب، ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ... ㊸﴾ [الأعراف]. بأعمالكم فطوبى لكم ﴿...وَحُسْنُ مَآبٍ ㉙﴾ [الرعد]. ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ⑮﴾ [الإنسان]. أكثروا من الصالحات، وأسيت، فنعم ما فيه سعوا وبئس ما فيه سعيت، أقبلوا على الناصحين بقلوبهم فوعوا وأنت أعرضت عنهم ونأيت، فما أعظم حسرتك إذا عاينت منازلهم قد أزلفت ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ⑳﴾ [الإنسان]، فما لك يا حيران تتلى عليك آى القرآن ولا تزدجر بعظاتها، ولا تفرق، ركبت فى بحر التسويق، ولم تبال بالتخويف، خشى عليك أن تغرق، أما علمت أنه لابد لك من موقف القمر فيه يخسف، والبصر فيه يبرق، فهنالك يمتاز الفرقان، فنهار أولئك بالشقاوة أظلم، وليل هؤلاء بالسعادة أشرق، فريق

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ... ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم] وآخرون ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان]. ويقرأ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ إلى ﴿...مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء]، وسمعته - رضى الله عنه - يخطب بخطبة أخرى للقاضى عياض - رحمه الله، اقتبس فيها آيات من سورة الكهف (وغيرها) وأوردها ابن الخطيب فى (الإحاطة)، فى تاريخ غرناطة وقال: إن القاضى عياضا لا يخطب إلا بإنشائه، وهى[1]:

الحمد لله الذى سبق كل موجود قدما، ووسع كل شىء رحمة وعلما ونعما، وهدى أولياءه، طريقا نهجا أمما، و﴿...أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف]، أحمده على مواهبه وهو أحق من حمد، وأسأله أن يجعلنا أجمع ممن حظى برضاه وسعد، وأستعينه على طاعته وهو أعز من أستعين وأستنجد وأستهديه توفيقا فإن ﴿...مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف]. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له شهادة فاتحة لأقفال قلوبنا، راجحة بأثقال[2] ذنوبنا منزهة له عن التشبيه والتمثيل بنا، ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن]. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ورسوله أنزل عليه الفرقان، وبعثه بالهدى والإيمان، وأخزى بدعوته دعوة أولياء الشيطان، وأقعدهم ﴿...مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن]. أيها السامع، قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته، فتأمل حدوده وتدبر محكم آياته، ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ

(١) الإحاطة ج٤ ص ٢٢٦.

(٢) هذا الصواب من الإحاطة، والذى فى المطبوع: «بأتقال» بالتاء.

لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) ﴾ [الكهف]. أين الذين عقوا على الله وتعظموا واستطالوا على عباده وتحكموا، وظنوا أن لن يقدر عليهم حتى اصطلموا، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩) ﴾ [الكهف]، غرهم الأمل وكواذب الظنون، وذهلوا عن طوارق الغير وريب المنون، ﴿ ...وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) ﴾ [القصص]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) ﴾ [الجن]. فهذبوا - رحمكم الله - سرائركم بتقوى الله، وأخلصوا، واشكروا نعمته ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ... (٣٤) ﴾ [إبراهيم] واحذروا نقمته واتقوه ولا تعصوا، واعتبروا بوعيده: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥) ﴾ [طه]. وأنهضوا لطاعته الهمم الفائزة، وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزة، وانتظروا قوله ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف]. ذلك يوم تذهل فيه الألباب، وترجف القلوب رجفا، وتبدل الأرض وتنسف الجبال نسفا، ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا صرفا، ﴿ ...وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) ﴾ [طه]. ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) ﴾ [الكهف]، اللهم انفعنا بالكتاب والحكمة وارحمنا بالهداية والعصمة، وأوزعنا شكر ما أوليت من النعمة، ﴿ ...رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [الكهف]. انتهى.

وقد وقع للقاضى - رحمه الله - أثناء كتاب الشفاء مواضع من نثره، هى من الفصاحة بمكان، وقد رأيت لتلميذه الشيخ الإمام أبى زيد، عبد الرحمن بن القصير الغرناطى، تنبيها عليها فى هامش متن النسخة التى بخطه، فمن ذلك قوله فى الشفاء عند ذكر وجه إعجاز القرآن، ومن وجوه

إعجازه المعدودة، كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]. - وقال: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ... ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت]. وسائر معجزات الأنبياء - عليهم السلام - انقضت بانقضاء أوقاتها، فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته، على ما كان عليه اليوم مدة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة لأول نزوله، إلى وقتنا هذا، حجته قاهرة، ومعارضته ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان، وحملة علم اللسان، وأئمة البلاغة وفرسان الكلام، وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادى للشرع عتيد، فما منهم أتى بشىء يؤثر فى معارضيه، ولا ألف كلمتين فى مناقضته، ولا قدر فيه على مطعن صحيح، ولا قدح المتكلف من ذهنه إلا بزند شحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه فى العجز بيديه، والنكوص على عقبيه - انتهى.

وكتب المذكور على هذا الكلام مشيرا إليه فى الطرة ما نصه: من كلمات القاضى أبى الفضل - رحمه الله - الفصيحة الجزلة. انتهى. ومن ذلك قوله - قبل هذا بأوراق: اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كتاب الله العزيز، منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة وجوه، أولها - حسن تأليفه، والتئام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم، ما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان، ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب، ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة، وفيهم غريزة

وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، ويخبون بديها فى المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويطوقون الصعاب، ويذهبون الأحن، ويهيجون الدمن، ويجرئون الجبان، ويبسطون يد الجعد البنان، ويصيرون الناقص كاملا، ويتركون النبيه خاملا، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجهورى والمنزع القوى، ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف فى القول، القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية، وكلا البابين، فلهما فى البلاغة، الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقدح الفالج، والمهيع الناهج، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلوا صرحا لبلوغ أسبابها، فقالوا فى الخطير والمهين، وتفننوا فى الغث والسمين، وتقاولوا فى القل والكثر، وتساجلوا فى النظم والنثر، فما راعهم إلا رسول كريم، ﴿ ...لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) ﴾ [فصلت]، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وأظهرت فصاحته على كل مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه، وهم أفسح ما كانوا فى هذا الباب مجالا، وأشهر فى الخطابة رجالا، وأكثر فى السجع والشعر سجالا، وأوسع فى الغريب واللغة

مقالا، بلغتهم التى بها يتحاورون، ومنازعهم التى عنها يتناضلون، صارخا بهم فى كل حين، وقارعا لهم بضعا وعشرين عاما على رءوس الخلائق أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [يونس]. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ إلى قوله ﴿وَلَن تَفْعَلُوا ... (٢٤)﴾ [البقرة]، ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ... (٨٨)﴾ [الإسراء] الآية: و﴿ ...قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ... (١٣)﴾ [هود]. وذلك أن المفترى أسهل، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب، واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب، ولهذا قيل فلان يكتب كما يقال له، وفلان يكتب كما يريد، وللأول على الثانى فضل، وبينهما شأو بعيد، فلم يزل يقرعهم - ﷺ - أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وآباءهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، مخادعون أنفسهم بالتشغيب والتكذيب، والاعتراء والافتراء، وقولهم ﴿ ... إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤)﴾ [المدثر]، و﴿ ... سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢)﴾ [القمر]، ﴿ ... إِفْكٌ افْتَرَاهُ ... (٤)﴾ [الفرقان]، و﴿ ... أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٥)﴾ [الأنعام]، والمباهتة والرضى بالدنية، كقولهم: ﴿ ...قُلُوبُنَا غُلْفٌ ... (١٥٥)﴾ [النساء] و﴿ ...فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ... (٥)﴾ [فصلت]، و﴿ ... لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]. والادعاء مع العجز بقولهم: ﴿ ... لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ... (٣١)﴾ [الأنفال]. وقد قال الله تعالى لهم: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا ... (٢٤)﴾ [البقرة]. فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخائفهم كمسيلمة كشف عوراه لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح الكلام، وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من

نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولوا عنه مدبرين، وأتوا مذعنين، من بين مهتد وبين مفتون، ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبى ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ... ۝٩٠﴾ [النحل] - الآية، - قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، ما يقول هذا بشر؟ انتهى.

وكتب بطرته ابن القصير المذكور ما نصه: فصل فيه فصاحته من القاضى أبى الفضل - رحمه الله - بديعة، فى غاية من الإتقان والسياق، حاز بها قصب السباق، وأغلق فيها رهن السباق. انتهى.

وكتب المذكور على قول القاضى، والطبع الجهورى، ما نصه: كذا فى النسخة التى انتسخت منها، وذلك غلط من الناسخ وإنما هو الجوهرى والله الموفق للصواب - انتهى.

وإذا وصلنا إلى هذا الموضع من نثر القاضى - رحمه الله، فلنقتصر على هذا المقدار، فإن نثره أكثر من هذا كله، والله المسئول فى العون.

وأما نظمه - رحمه الله - ففى طرف من البلاغة عال، ولنذكر بعضه مستمدين عون الكبير المتعال، فيقول من مشهور نظمه، ما فى الشفا - بعد كلام تقدمه من نثره - نصه: وجدير لمواطن عمر بالوحى والتنزيل، وتردد بها جبريل ومكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله - ﷺ ما انتشر، مدراس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيئين، حيث انفجرت النبوة

وأين فاض عبابها، ومواطن طويت فيها الرسالة، وأول أرض مس جلد المصطفى ﷺ ترابها، - أن تعظم عرصاتها، وتتنسم نفحاتها، وتقبل ربوعها وجدراتها:

يا دار خير المرسلين ومن به ... هدى الأنام وخص بالآيات
عندى لأجلك لوعة وصبابة ... وتشوق متوقد الجمرات
وعلى عهد إن ملأت محاجرى ... من تلكم الجدران والعرصات
لأعفرن مصون شيبى بينها ... من كثرة التقبيل والرشفات
لولا العوادى والأعادى زرتها ... أبدا ولو سحبا على الواجنات
لكن ساهدى من جميل تحية ... لقطين تلك الدار والحجرات
أذكى من المسك المفتق نفحه ... تغشاه بالآصال والبكرات
وتخصه بزواكى الصلوات ... ونوامى التسليم والبركات

انتهى.

وكتب عليه ابن القصير المذكور، ما نصه: برد الله ضريحه، وقدس فى الجنان روحه، لقد أحكم فى هذا الفصل المقال، ووجد مجالا للمدح فقال: انتهى.

وكتب على اللفظة التى قوله مدارس آيات ظاء، إشارة إلى نظر فى اللفظة، كما كتب مثل ذلك على قوله: وتخصه بزواكى الصلوات، ونوامى التسليم والبركات. انتهى.

ولا أدرى ما موجب النظر فى قوله، وتخصه بزواكى إلى آخره، هل

تحريك الياء من بزواكى ونوامى، إذ لا يتزن البيت إلا به، ومثله يستعمل للضرورة، أم ما عند العروضيين فى مثل قوله الصلوات حسبما هو مقرر فى محله، فالله تعالى أعلم أى ذلك أراد. وقد وقفت لبعض المتأخرين من أهل فاس - حاطها الله - على تأليف بديع، يتعلق بالقطعة المذكورة، هأنا أورده بجملته لوجهين: الأول أن ذلك الإشكال المشار إليه فيه، لم يزل يعرض للأفضال، وقد سمعت غير واحد ممن لقيته يشير لذلك. والثانى ما اشتمل عليه من الفوائد - وإن كان بعضها زائدا على ما يتعلق بالقطعة - حسبما تراه بالعيان، والله المستعان.

ونص ذلك:

الحمد لله ذى الجود والكرم، الممتن علينا بإحسانه فى إيجادنا من العدم، وعلمنا بفضله ما لم نكن نعلم، وهدانا السبيل إما شاكرا معظما لما عظم الله - سبحانه - فمقرب ومنعم، وإما غافلا تهاونا بأوامره ونواهيه فمنتظر للبلايا النقم، ﴿... كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ... ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء]، على ما سبق به القضاء وحتم، ثم الصلاة والسلام أولا وآخرا على سيد العرب والعجم، وعلى آله وصحبه الذين أكمل الله - تعالى - بهم الدين وأتم، والتابعين لهديهم من أولى العلم بدور الزمان وأسد العرين وشموس الهدى وأنوار الظلم، صلاة وسلاما يمحوان عنا - إن شاء الله تعالى - ما تأخر من ذنوبنا وما تقدم. وبعد: فقد وقفت على مكتوب لبعض فقهاء الوقت ومدرسيه، كتبه بخطه، وعين فيه اسمه واسم أبيه وجده وما يشهر به، ناولنيه لننظر فيه، بعد أن قرأه على من أوله إلى آخره، وذلك فى ربيع النبوى عام ثمانية وتسعمائة، وقد فعل ذلك مع جملة من أصحابه غيرى، وربما استحسن ذلك بعضهم فنسخه،

ثم أذن لى أن أحمله لننظر فيه، فلما نظرته وتأملته، وجدت مقتضاه وحاصله، التعقب على أولئك السادات من أئمتنا وعلمائنا الماضين، منهم الفقيه القاضى أبو الفضل عياض، والعالم العلم القاضى أبو بكر بن العربى، والفقيه الإمام المحقق أبو عبد الله محمد بن مرزوق - رضى الله تعالى عنهم أجمعين ورحمهم، فأطال الكلام معهم، وتحكم عليهم بعقله، وتشبع فى ذلك كله بما لا يملكه، وتصرف تصرف من ظهر له الحق، فلا يرجع عنه ويتركه وهو فى ذلك كله، يزعم أنه ظهر عليهم بالدلائل والحجج البينات، ومن قرأ كلامه وتأمله، علم أن بضاعته فى العلم مزجاة، ثم إن الله تعالى بفضله وإحسانه - أظهر حقوق هؤلاء العلماء، على يد أقل خلق الله وأضعف الضعفاء، فأفاض - سبحانه وتعالى - من بركاتهم، وأشرق من سنى أنوارهم لديه، فشعشع حقهم وأضاء واستنار، وتبين خطأ المعترض على أولئك الأولياء والعلماء الكبار، وتألف من كلام هذا المعترض وكلام خديم أولياء الله السادات - ما ملأ مجموعه بطن هذه الورقات، وسميته بـ (الإعلام للقريب والنائى، فى بيان خطأ عمر الجزنائى)، والله تعالى أسأل التوفيق فى القول والعمل، والنجاح فيما نرجوه من نيل المقصود وبلوغ الأمل، وجعلت كلام المعترض مقدما حتى ينتهى، ثم نتبعه من كلامى بما يفتح الله سبحانه - وهو خير الفاتحين.

نسخة من كلام المعترض:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسول الله، قال عمر ابن عبد الرحمن بن يوسف، الشهير بالجزنائى هذا الكلام، وهو محتو على ثلاث مسائل، نص الأولى منها مسألة لما ذكر الإمام القاضى عياض - رضى

الله تعالى عنه - زيارة الرسول ﷺ فى الشفا، وأنشد لنفسه أبياتا أجاد فيها، غير أن بيتا فيها ضعيف المعنى، ينافى ما قصده من تفخيم الزيارة وتعظيمها، وهو قوله:

لولا العوادى والأعادى زرتكم أبدا ولو سحبا على الوجنات

فجعل العوادى والأعادى، تصد عن زيارة الحبيب، والحبيب إذا تمكنت محبته من القلب، لا يصد عن زيارته شىء، ولو أتى ذلك على إتلاف نفسه، وسئل اللخمى فى مجلسه: هل المشى إلى الحج أفضل، أم القعود عنه أفضل - مع اتفاقهم على سقوط الحج؟، فأراد الشيخ أن يجيب - وكان فى مجلسه رجل واعظ، فقال: اسمع يا فقيه، فأنشد الرجل الواعظ:

إن كان سفك دمى أقصى مرادهم فما غلت نظرة منهم بسفك دمى

فاستحسنه الناس، قلت: ألا قال عياض كما قال ابن رشيد:

هو القصد إذ غنت بنجد حداتنا وإلا فما نجد وبدر ورياه

وتالله لو أن الأسنة أشرعت وقامت حروب دونه ما تركناه

قلت: فالصواب فى ذلك أن يستبدل صدر ذلك البيت، ويتعذر

لكن عظيم الذنب أثقل جشتى عنكم فلم أقدر على الحركات

عن عدم الزيارة بما يليق، قلت: فلو قال:

حق على أزوركم وأزوركم أبدا ولو سحبا على الوجنات

أما الفؤاد فعامر بودادكم متلهب من شدة الزفرات

قال أحمد بن محمد المقرى - وفقه الله: وقع أبو العباس الونشريسى،

حافظ الحفاظ بخطه قبالة قوله، قلت: فالصواب إلى آخر ما نصه: ولقد أحسن من قال: وهل يعارض موج البحر بالوشل - انتهى.

رجع إلى كلام الجزنائى قال: فهذا هو الذى يليق بمقامه - ﷺ، إذ فيه وجوب الزيارة له - ﷺ، إلا أن الجثة أثقلها المعاصى كما قال الشاعر:

لا غرو أن ثقيل الذنب أقعدنى عنكم زمانا فلم أنهض ولم أقم

والقلب عامر بمحبته ﷺ، وهذه غفلة من القاضى - رحمه الله تعالى، وإلا فما ذكرناه هو الذى يليق بمقامه - ﷺ - انتهى.

والمسألة الثانية نصها: كما وقعت منه غفلة أيضا حيث ذكر الصلاة على النبى - ﷺ - وعظم شأنها، ونقل عن الإمام الشافعى وابن المواز أن من لم يصل على النبى ﷺ فى صلاته، فصلاته باطلة، ثم أخذ يضعف هذا القول، ثم قال: وقد شنع الناس هذه المسألة على الشافعى - ولا مستند له، وهذا لا يليق بما قصده من تعظيم شأن الصلاة عليه - ﷺ، والذى يليق به أن يعظم شأن الصلاة عليه ﷺ ويقول: حتى قال الشافعى وابن المواز أن من لم يصل على النبى ﷺ فى صلاته، فصلاته باطلة، ثم يقول: وهذا هو الصواب، لأن الصلاة على النبى - ﷺ إن لم تكن واجبة، فلا تزيد الصلاة إلا شرفا وكمالا، فهذا هو الذى يليق بالمقامين، ولو كان حيا لم يسعه إلا الموافقة على ما قلناه، والسلام على من يقف عليه. انتهى كلام المنتقد على القاضى - رحمه الله - هاتين المسألتين.

قال أحمد بن محمد المقرى - أخذ الله بيده - كتب الشيخ سيدى أحمد الونشريسى هنا حاشيتين، نص الأولى منهما: قوله - يعنى الجزنائى: كما وقعت منه غفلة الخ، قلت يا هذا المسكين، ما أشر بلائك، وأقل حياءك،

قررت قول القاضى أبى الفضل وجاريته بما استحق من الثناء العطر عندك، آجرك الله فى مصيبتك، وأعقبك خيرا منها، الله يحفظ عقولنا من الفساد، أين مقامك يا هذا من مقام شيخ المحدثين بدمشق أبى عَمْرو ابن الصلاح - رحمه الله - لما ورد عليه كتاب «المشارق»، أنشد بديهة بإنصافه ودينه وعلمه:

مشارق أنوار تبدت بسبتة ... وذا عجب كون المشارق بالغرب

ولكن لا يعرف الفضل لذوى الفضل إلا ذو الفضل. وقوله: لو كان حيا لم يسعه، الخ، انظروا لهذا الكلام البشيع كيف صير به فخر الإسلام القاضى أبا الفضل محجورا عليه فى الكلام، وقولوا: الحمد لله الذى عافانا مما ابتلاه به. انتهى.

ونص الثانية قوله ونقل إلى آخره، قولت القاضى عن ابن المواز ما لم يقله، فابن المواز وإن وافق الشافعى فى الوجوب، فهو بمنجاة من القول ببطلان صلاة من لم يصل على رسول الله - ﷺ - إذ الوجوب عنده غير شرطى كما فى كثير من نظرائها فى أبواب العبادات والمعاملات، ولا غرابة فى هذا، قال فى المعونة: الصلاة على رسول الله - ﷺ، ليست بشرط فى صحة الصلاة خلافا للشافعى. انتهى.

وقال فى الإكمال: وقال الشافعى بإيجاب الصلاة على النبى ﷺ فى كل صلاة، وإن لم يفعل ذلك، بطلت صلاته، وهو قول لم يقل قبله، وخالف الشافعى فى المسألة من أصحابه، ووافقه إسحاق عليها.

وحكى بعض البغداديين عن المذهب فى المسألة ثلاثة أقوال: الوجوب والسنة والفضيلة، وقد حمل بعض شيوخنا البغداديين مذهب ابن المواز على

الوجوب فى الصلاة كمذهب الشافعى. وكلامه محتمل للوجوب على الجملة كما قالت الجماعة. انتهى.

قلت: فقوله كمذهب الشافعى، التشبيه فى الوجوب، لا فيه وفى إبطال تركها فى الصلاة.

قال فى نوادر الإجماع، وأجمعوا أن المصلى إذا ترك الصلاة على النبى ﷺ ناسيا فى التشهد الأخير، أنه فى النسيان معذور، وفى العمد مذموم، والصلاة مجزئة فيهما معا إلا الشافعى، فإنه قال: إذا ترك الصلاة على رسول الله - ﷺ - قبل التشهد الأخير منها لم تجزه. انتهى.

قلت: فتحصل من هذا أن الآتى بالصلاة على رسول الله - ﷺ - فى الصلاة ممتثل للأمر بالإجماع، إلا عند من يرى أن الوجوب متعلق عند ذكره - ﷺ - فإنه لا يكفيه عنده الإتيان بالمأمور به فى الصلاة - والله أعلم. وهذا كله فى طلب الإتيان بها فى الصلاة، وأما فى جانب تركها فى الصلاة، فلا اختلاف عندنا وعند الجماهير فى صحتها - مع الإخلال بالكمال، فإذا تقرر هذا، فما معنى قول المعترض على عياض: لأن الصلاة على النبى - ﷺ - إن لم تكن واجبة، فلا تزيد الصلاة إلا شرفا؟ قلت: كون الإتيان لا يزيدها إلا شرفا هو حسن، والإجماع منعقد عليه من كافة الأئمة، وليس الكلام والنزاع فيه، إنما الكلام فى طرف الترك - حسبما تقرر، فإذا علمت هذا فكلام المعترض لا يتنزل على هذا الطرف، وإنما يتنزل فى مقابلة من يقول بإنكار الصلاة على رسول الله - ﷺ - فى الصلاة، ولا قائل بذلك إجماعا، فبقى قوله ضائعا من الفائدة لا موقع له أصلا، فتأمله بإنصاف وإمعان نظر وتحقيق. انتهى كلام الإمام الوانشريسى - رحمه الله.

ولنرجع إلى كلام صاحب التأليف، فإنه قال: بعد كلام الجزنائى، السابق ما نصه: انتهى كلام المنتقد على القاضى - رحمه الله - هاتين المسألتين، قلت فى الجواب عنها - أى عن المسألة الأولى: ما تعقبه هذا المعترض واستدركه من الإصلاح والتكميل والاعتذار عن الشيخ أبى الفضل عياض - رحمه الله تعالى ورضى عنه - فى البيت الذى نقله عنه فى الشفا، وهو الخامس من الأبيات الثمانية التى مطلعها:

يا دار خير المرسلين ومن به　　　هدى الأنام وخص بالآيات

إلى أن قال:

لولا الأعادى والعوادى زرتها　　　أبدا ولو سحبنا على الوجنات

فقال هذا المنتقد: بل الصواب أن يستبدل صدر هذا البيت، ويعتذر عنه بما يليق به بعد أن نسب الشيخ - رضى الله عنه - إلى القصور والغفلة، فأصلح البيت المذكور، وهو الخامس، وزاد عليه، وكان حق هذا الفقيه أن لا يتكلف هذه المشاق من إصلاح واعتذار، ونسبة الشيخ لما نسبه إليه، حتى يثبت فى الرواية، ويصحح المتن، ويبنى على يقين من كلامه، فإن البيت المذكور نقله من الشفا - مصحفا، وأصله فى النسخ الصحيحة: لولا الأعادى والعوادى زرتها، فنقله هو (زرتكم)، فجعل الخطاب فيه للنبى - ﷺ - وليس هو كما زعم، وإنما الخطاب فيه للمدينة، والضمير ضمير مؤنث، والدليل عليه قوله: (يا دار)، فجعل المنادى المدينة - وهى الدار، وقال فى البيت الثانى عنده: (لأجلك لوعة وصبابة)، فالرواية أيضا - بكسر الكاف لخطاب المدينة، وفى البيت الرابع: (لأغفرن مصون شيبى بينها)، فهو ضمير مؤنث، عائد على المدينة، وفى البيت الخامس الذى وقع فيه النقد على غير

أصل زرتهـا لا زرتكم، فزرتكم من قـول المنتقـد لا من قول الشـفا، أسـسه وركب عليه ما أحب من كلامه.

فهذه دلائل واضحة، تدل أن الخطاب إنما هو لمؤنث، وضمير عائد على المؤنث، ولما كـانـت هذه المدينة من أعظم مـشـاهـد الإسـلام، وأخت مكة وشقيقـتها فى الفضل والإكرام والاحترام، ومـهبط وحى رب العالمين، وتردد جبـريل عليه السلام بين جـدراتها بالتنزيل ومناسك الدين، حق لهـذا الإمام العالـم، الولى الصـالح أبى الفضل عياض - رحمـه الله تعالى ونفع به - أن يشتـاق إلى رؤيتها وزيارتهـا، ويعفر مـصون شيـبه فى تربها وبين جـدراتها وعرصـاتها، تبـركا بأرض ضمت جـسد المصطفى - ﷺ - وشـرف وكرم، ومـجد، وعظم، فـتبـين من ذلك أن الغفلـة التى وصف بها المنتـقد إمـامنا الأعظم، وعـالمنا العلم الأعلم، عـادت عليـه، وزاد بالخطأ، فـتعـين عليـه الاعتذار والاستغفار، مما نسبه إلى الشيخ - رحمه الله ونفع به.

انتهى الكلام على هذا البيت فـيما يرجع إلى تصحيفـه وتحريفه، ويبقى الكلام على مـعنى البيت نفسـه - وهو البيت الذى ضـعف معناه المعـترض، فنقـول - والله المستعـان: إن عيـاضا - رضى الله عنه سـبتى الدار، يشـاهد مصـائب البحر ورزاياه فى كـل يوم، مساء وصـباحا، لا تحـصى ولا تخفى عليه، وراكب البـحر أبدا مغـرور وليس بمحمـود - وإن سلم، ومع كونه إن حدثتـه نفسه - رضى الله تعالى عنه - لـزيارة قبره ﷺ - ملاحظا للشـريعة واقفـا معهـا، وهذا كله يخطر ببال الناظم فى حـال نظمه فى أقـرب زمان، ولحظة عين، فرأى - رضى الله تعالى عنه - أن المانع من الزيارة لا يدوم على حال، فـارتضى محـبوبه - ﷺ، واتبع هديـه القويم، وصـراطه المسـتقيم،

وغلب السلامة فى الزمان المستقبل، ورجا أن ما تعذر فى الوقت يتحول، وحسن ظنه بمولاه أن يبلغه أمله، فيوفى بعهده، ويعفر مصون شيبه كما رجاه وأمله. وقوله (زرتها أبدا)، فكأنه يقول: أزورها أبدا على كل حال كان فى الطريق معارض أو لم يكن، من صحة أو مرض، أو غنى أو فقر على قدمى إن قدرت، أو مجررا على وجهى، وهذا هو الغاية فى كمال الحب، والنهاية فى الفقه والورع والتواضع - رضى الله تعالى عنه.

وأما البيت الذى أنشده، الواعظ فى مجلس اللخمى، فقد أوقعه الواعظ فى مجلسه، وأسكت القوم حسن نظمه، وبديع ألفاظه، ويبقى الكلام فى قائله، فلا شك أن قائله حبه مدخول مشوب معلول، لكونه طالبا فيه حظ نفسه، وبلوغ أملها، ونيل شهرتها، وتشفى غليله بنظرة من محبوبه لحظة زمان، فقائل هذا البيت أصابه قنط واضطراب فى نفسه، لكثرة ما هو يتجرعه ويقاسيه من شأن محبوبه، فأراد أن يجهز على نفسه ويريحها من تعب ما هى فيه، فرأى من رشاد أمره، وحسن عاقبته، أن يبيع نفسه بنظرة من محبوبه، نافيا عن بيعه وشرائه معرة العين بقوله: (ما غلت) فهو فى بيعه هذا، مبتهج مسترخص لما اشتراه، ولا تعرف صفقات المعاوضات وسائر المعاملات أبدا إلا هكذا، فالمحب الصادق فى حبه، لا يطلب المعاوضة من محبوبه، ولا يتشوق إلى بلوغ غرض منه أصلا، لأن من حجة محبوب هذا البيت أن يقول لمحبه: لو كان حبك صادقا ولا دخل فيه، ما رتبت سفك دمك على نظرة فى وجوهنا ولفوضتم لنا أن نحكم فيكم بما شئنا من سفك أو غيره، على قاعدة كل محبوب أن الحكم له، فلما حجرتم علينا فيما رتبتم، وعوضتم لأنفسكم واحتطم لها، صار تلذذكم وتنعمكم بنظرة فى وجوهنا لحظة من زمان،

وكأنها مشترطة فى أصل عقد معاوضتكم، والمحب إذا احتاط هذا الاحتياط خرج بذلك عن قاعدة المحبين وسننهم، وصار حبه - كما قلنا - مدخولا مشوبا معلولا.

قال ابن عطاء الله فى حكمه - رضى الله تعالى عنه: ليس المحب، الذى يرجو من محبوبه عوضا أو يطلب منع غرضا. وقال أبو عبد الله القرشى: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، حتى لا يبقى لك منه شيء، يعنى لا يبقى لك تشوف لنيل حظ أو بلوغ غرض من محبوبك.

قال سيدى محمد بن عباد - رحمه الله تعالى ونفع به: وأما من رجا العوض، وطلب الغرض من محبوبه، فليس هو من مقام المحبة فى شيء. وقال أبو محمد رويم: من أحب العوض من محبوبه، بغض العوض إليه محبوبه. فهذا كله مما يضعف البيت الذى جلبه المعترض دليل على ضعف معنى بيت عياض، ومما يزيده ضعفا ووهنا، خطابه - قائلا لمحبوبه بمثل ذلك الخطاب، فكأنه يقول له مخاطبا: أما ترى ما أنا فيه، وما أتجرعه من أجلك، وما أقاسيه؟ فإن كان منتهى حالى معك قتلى، وسفك دمى، فمتعنى بنظرة منك وأستريح، وليس من سنة المحبين أن يخاطبوا محبوبهم بمثل هذا الخطاب الخشن، وإنما حظ المحب التواضع والتقرب من محبوبه، والتملق له والتذلل، والتمسك وخفض الجناح، ولين الجانب، والتحبب له بكل ما أمكن، وإطلاق المحب على قائل هذا البيت، محمول على المجاز، والحب الصادق الحقيقى: حب ابن رشيد الذى جلبه المعترض - وهو قوله:

وتالله لو أن الأسنة أشرعت ... وقامت حروب دونه ما تركناه

وقول عياض - رضى الله تعالى عنه:

لولا الأعادى والعوادى زرتها أبدا ولو سحبا على الوجنات

وقول إبراهيم بن أدهم - رضى الله تعالى عنه:

هجرت الخلق طرا فى رضاك وأيمت الوليد لكى أراك

فلو قطعتنى فى الحب إربا لما حن الفؤاد إلى سواك

ونقل أبو القاسم القشيرى عن بعضهم أنه قيل له: ما كان سبب حالتك هذه؟ فقال: كلمة سمعتها من خلق لخلق، عملت فى هذا البلاء الذى رأيت، قيل: وما هى؟ قال: سمعت محبا خلا بمحبوبه - وهو يقول له: أنا أحبك بقلبى كله، وأنت تعرض عنى بوجهك كله، فقال له المحبوب: إن كنت تحبنى، فأى شىء على؟ فقال: يا سيدى أملكك جميع ما أملك، ثم أنفق روحى حتى أهلك، فقلت: هذا خلق لخلق، وعبد لعبد، فكيف مخلوق لخالق، وعبد لمعبود؟ فكان هذا سببه. فحب هؤلاء هو الحب الصادق المتمحض، الذى لا دخل فيه ولا شوب ولا علة، إذ لاَحَظَّ لنفوسهم فى هذا الحب إلا ما يؤلمها من السحب على الوجنات، وما يتحملونه من المخاوف والترويعات، ومعانقة الأسنة والحروب وأنواع المهلكات، وهجران الخلائق طرا مع البنين والبنات، والخروج عن الأموال والأنفس وجميع المستحسنات، كل ذلك فى رضى محبوبهم، فحب هؤلاء وزان واحد، وشربهم من عين واحدة، وكلهم يعبر عن ليلى بما يجد، فدليل بواطنهم عنوان عباراتهم.

وقول المعترض: فجعل عياض الأعادى والعوادى تصد عن زيارة الحبيب وتمنعه، هو كما قال، لأنه - رضى الله تعالى عنه - ملاحظ للشريعة، معتن

بها، واقف معها، فكانت الأعادى والعوادى الموجودتان فى زمانه برا وبحرا، مانعتين له من الزيارة، فكما هو - الآن - القاصد إلى الحج، أو إلى زيارة قبره - ﷺ (من قطرنا) - ممنوع شرعا، فلا يبعد أن يكون كذلك فى زمانه - رضى الله تعالى عنه - لوجود المانع المذكور فى الزمانين، والعلة فى ذلك: الإلقاء باليد إلى التهلكة، ولا يحمل أن يكون المانع له من الزيارة حظ نفسه من أشغال الدنيا وكلفها وتكاليفها، والحرص على محابها، وقول المعترض: إن من تمكن الحب من قلبه، لا يصده عن زيارة محبوبه صاد - ولو أتى ذلك على إتلاف نفسه، وأن هذا هو الحب الكامل عند المعترض، ولذلك أتى ببيت الواعظ دليلا على ضعف معنى بيت عياض، وهذا من المعترض إجمال فى محل التفصيل.

وصواب هذا الكلام أن يقال المحبون لهم مذاهب، فمنهم من هو على هذه الصفة التى قال المعترض: لا يقدر أن يصبر عن محبوبه طرفة عين، ولا يملك نفسه ولا يمكنه ذلك حتى يهلك ويتلف نفسه، فأصحاب هذا المذهب أوقاتهم غير محفوظة عليهم، لا يقيدون بقيود الهدى، ولا يؤثرون السلامة على الردى فهم مقهورون على فعلهم، معذورون فى حبهم، وهذا هو مذهب المحبين من المجانين، وعليه اقتصر المعترض، والمذهب الآخر، أوقاتهم كلها محفوظة عليهم أبدا آناء الليل والنهار، يدورون مع عمود الشرع حيث دار، فإذا تقرر هذا وسلمه كل ذكى عاقل، سليم الصدر، سيد منصف فاضل، علم منه أن إمامنا العالم العلم، أبا الفضل عياضا - رحمه الله تعالى - سلك فى حبه مذهب العقلاء من المحبين، واقتدى بإمامه الولى الصالح، إمام الزاهدين الذى نوه بذكره، وأثنى عليه فى المحافل العظيمة سيد

المرسلين، وحلاه بحلى يعجز الوصف عن مثلها، وتكل الأقلام عن إحصاء فضلها، دان نفسه وعمل بعد الموت، فوصف بالكيس المعروف فى السماء، المجهول فى الأرض، المسمى بأويس منعه من رؤية رسول الله - ﷺ - وزيارته، فرض وجب عليه الوفاء به، وهو خدمة أمه، وقلة ذات يده.

فمسألة عياض - رضى الله عنه - مقيسة على قضية أويس، بجامع أن كل واحد من السيدين، لو ارتحل إلى زيارته - ﷺ - لكان عاصيا، وفعل ما يكرهه الله ورسوله، فهذا يلقى بيده إلى التهلكة، وهذا يترك أمه مضيعة، فخرج من هذا، أن المعترض لم يشم من بيت الواعظ رائحة حظ نفس قائله، وطلب راحتها، وبلوغ أملها ونيل شهوتها، ومن ثم ضعف بيت الواعظ عن رتبة الاستدلال، وانتقى الضعف عن معنى بيت عياض، وبقى على ما هو عليه من الكمال، وتبين خطأ المعترض، وقلقه لشهوة الرد، حتى قال ما قال وما به انفرد.

وقول المعترض: حق على أن أزوركم وأزوركم - فى إصلاحه وتكميله على عياض، هو قول عياض: «أزورها أبدا» فأفرغه فى قالب الإصلاح والتكميل، وكرر قول عياض، ونسبه إلى نفسه، انتهى الكلام على البيت ومعناه.

الكلام على المسألة الثانية - بعد الحمد لله - اختصر هذا المعترض بعض ألفاظ من الشفا يحتاج إليها الناظر فى هذا المعنى، قال فى الشفاء - بعد أن ذكر حكم الصلاة على رسول الله ﷺ، وما يترتب عليها من الثواب، واختلاف العلماء فيها، وما اختار كل واحد منهم، فذكر مذهب مالك، والشافعى، وسفيان والقاضى أبى بكر، والقاضى أبى محمد بن نصر،

والطبرى، والطحـاوى، والخطابى، ثم قال: وشذ الشافعـى فى ذلك، فقال: من لم يصل على النبى - ﷺ - بعد التشهد وقـبل السلام، فسدت صلاته، وإن صلى عليه قبل ذلك لم تجزه.

قال القاضى - رحمـه الله - ولا سلف للشافعى فى ذلك ولا قدوة ولا سنة يتبعها، وقد خالف الإجماع من السلف الصالح قبله. قال: وقد بالغ فى الإنكار عليه جماعة من العلماء، منهم: الطبرى، والقشيرى، وغير واحد من العلماء، وقد شنع الناس عليه فى هذه المسألة جدا[١].

انتهى كلامه فى الشفاء. قلت: لم يقتصر صاحبنا على الخطأ فى المسألة الأولى حتى شفعها بأختها، فقوله: ثم يقول وهو الصواب إلى قوله: لو كان حيا لم يسعه إلا مخالفة فهمكم، وقولكم وتحكمكم عليه، ويجب ذلك عليه وجوبا مؤكدا، لأن مـوافقته لكم، على ما قلتم وفهمتم بعـد تصحيح روايته وتثبيـته فيما نقـله عن أئمة الهدى، وحفظه عن الشـيوخ، وسطره فيما كـتبه ورواه، وسلم له ذلك فحـول أهل وقتـه وعلمائه، ومن بعدهـم - إلى وقتنا هذا، عصرا بعد عصر، وقرنا بعـد قرن، وجيلا بعد جيل - فكل من تصفح منهم كـلامه: من علم كـتبـه، أو شعـر أنشده، أو بحث أورده، أو غـريب نسبه، أو مشكل فتـحه، أو كتاب ألفه. شهد له بغزارة علمه وسـلامة فهمه، ووفور عقله، مع ما ثبت له - رضى الله تـعالى عنه - من كونه لا يخاف فى الله - تعالى - لومـة لائم فى قضائه وحـكمه، حتى جـئتم أنتم - بارك الله تعالى فيكم، فغصتم على ذلك المعنـى الدقيق، ونسجتم ذلك النسيج الرقيق، أو شفـعتم تلك المسألة بأخـتها التى هى عندكم فى حـيز القطع والتحـقيق،

---

(١) الشفاء للقاضى عياض ٢/ ٦٠.

فأرشدتم الشيخ - أرشدكم الله تعالى - إلى أن يقول فيما قلتم وتحكمتم وفهمتم، هذا هو الصواب، وقلتم لو كان حيا لم يسعه إلا موافقتنا بلا اضطراب، حاشاه ثم حاشاه أن يوافقكم على مثل هذا، فيكون متلاعبا بالدين عمدا واعتمادا، ويحرف الكلم عن مواضعه قولا واعتقادا، وإياك التهاون بالعلماء وأهل الفضل، فقد رأيتم ما رأيتم من قبل، وهنا انتهى الكلام على المسألتين جميعا.

فإن قال أبو حفص - وهو المنتقد - تعظيم عياض - رحمه الله تعالى - وتفخيمه فى الأبيات المذكورة كل ذلك التفخيم، وتعفير شيبه فى تربها وأرضها - ليس ذلك لذاتها، بل لأجل من حل بها حيا وميتا - ﷺ، فاشتياق عياض - رحمه الله تعالى، وزيارته لها، اشتياق له وزيادة له - ﷺ - فلا فرق إذن بين زرتكم أو زرتها، فلم عظمتم علينا هذا الأمر جدا؟ قلنا لكم: قولكم هذا صحيح فى نفسه، وحملنا قولكم أولا على التصحيف وهو المتبادر إلى الذهن، وكلامكم هذا يدل على تبديل الرواية على جهة العمد، فالتصحيف أبدا أخف من التحريف، وصاحبه أعذر، لأن التحريف محض خيانة وكذب، وهو لا يليق بكم ولا يحمل قولكم عليه. انتهى.

المسألة الثالثة نصها - بعد الحمد لله - وقع السؤال فيما مضى وتقدم: هل ليلة القدر أفضل من ليلة مولده - ﷺ؟ فتولى الجواب فى المسألة الإمام الأسنى، فريد دهره، ووحيد عصره، العالم الكبير، العادم النظير، الذى له على أهل زمانه أعظم الحقوق، وهو الشهير بابن مرزوق، فذكر فضائل ليلة القدر، وأطنب فيها غاية الإطناب، ثم ذكر فضائل ليلة مولده - ﷺ، وأتى فيها بأعجب العجاب، ثم إنه صرح بأن ليلة مولده - ﷺ - أفضل، واستدل

على ذلك بما استدل، فقيل له ليلة القدر فـضائلها الباقية، تتكرر فى كل سنة آتية، وفضائل مولده - ﷺ - لـم توجد إلا فى تلك الليلة، فقال: بل تتكرر فى كل ليلة تقابلها، وأخذ يتطلب الأدلة، فاستدل أنها توجد فيما يوافق تلك الليلة تلك الفضائل بحديث صـحيح، وزعم أنه لم يبق بعد هذا الدليل قولة لقائل، وذلك أنه سئل عن صيام يوم الاثنين - عليه الصلاة والسلام - فقال: فيه ولدت، وفـيه أنزل على. فجعل ذلك دليلا على أن تـلك الفضائل تتكرر وتستدام.

قلت: أما الليلة التى ولد فيها سـيد الأولين والآخرين، فلا يَعْدِلُها فى الفضل شىء، فإنه - ﷺ - رحمة للعـالمين، وليلة تقدر بعض رحماته، ولا يخالف فى ذلك أحد من المسلمين، وإنما الكلام فيما يقابلها - وهى ليلة اثنى عشـر أيهما أفـضل؟ فالذى عول عليـه الإمام، أن ذلك مـوجود فى كل ليلة تقابلها، وأبدأ فى ذلك وأعاد، وطول فى ذلك حـتى خرج عن المعتاد، ورأى أن فضيلة الليلة التى ولد فيها سيد الثقلين هـى موجودة فيما يقابلها، واستدل بحديث يوم الاثنين، وأكثر فى ذلك حتى قـال: ما معناه ومن عنده شىء غير هذا، فهذا وقت الميدان، فهذا مقتضى قوله، وطول بذلك اللسان؟

وعندى أن ما ادعاه غيره متعين، وما استدل به غير بين، وذلك أن ليلة مولده - ﷺ - ظهرت فيـه أمور خارقة للعادة بالعيان، كـانقضاض الشهب، وتنكيس الأصنام، وارتجاج الإيوان، وهـتف الجن، وإخماد المجوس، وغـير ذلك مما ظهر للعين وبرز للمحسوس، وهـناك فضائل باطنة، استأثر بها الملك القدوس، فكما أن هذه الخارقات لم تظهر إلا فى تلك الليلة السعيدة، كذلك الفضائل الباطنة، ومن ادعى وجودها فى غيرها فدعواه بعيدة، فإن ذلك رجم

بالغيب، ولا يسلم مدعيا بغير دليل من الغيب، وما استدل به من حديث يوم الاثنين فليس له فى ذلك دليل، وذلك بين ظاهر لكل حاذق نبيل، لأنه يلزم منه أن يكون يوم من الاثنين تكون فيه تلك الفضائل، وهذا لا يقوله هذا الإمام ولا يقوله قائل، وأيضا فإنه لا خلاف أن يوم الجمعة أفضل من يوم الاثنين، فإذا اضمحل هذا الدليل ولم يبق له أين - انتهى.

قال أحمد بن محمد المقرى - وفقه الله - كتب الإمام الوانشريسى بخطه على قوله: فإذا اضمحل هذا الدليل ما نصه: قلت: اضمحلال الدليل لا يكون إلا بمصادمة دليل له أقوى، وأنه لم تأت بمطلق دليل أصلا فضلا عن دليل أقوى، وقصارى ما رددتموه به مجرد الدعوى، وهو لا يفيدكم فائدة، وما ألزمتموه يلتزمه عنه، ودليله ماأبداه من الحديث الصحيح، وهو بين لمن معه مسكة إنصاف، ولا سيما - والفضائل عملية، ولا تؤخذ بقياس، ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾، فإذا تقرر هذا، فاسمع يا عمر، إذا بدت رايات النصوص فى ميادين الكفاح، طاحت أعلام المقاييس فى مهاب الرياح، وعجبا من هذا الرجل كيف يحكم باضمحلال دليل الخصم فى أفضلية يوم الاثنين، ويدعى أفضلية يوم الجمعة عليه بالكتاب والسنة والإجماع، وأى دليل له من الكتاب يسلم له، وأى إجماع يسلم له ويقبل منه، حتى يزيف به دليل الخصم، وقد طلب بتحقيق هذا الإجماع نقلا عن الأئمة، فاشتغل بالروغان والحيدة، وقد حكى بعض الأكابر إجماع الأمة على أفضلية ليلة القدر على يوم الجمعة، وعلى يوم عرفة، فما حيلتك أيضا فى رد هذا الإجماع وإنكاره. انتهى كلام الوانشريسى.

ولنرجع إلى كلام الجزنائى فنقول: بعد قوله "ولم يبق له أين" ما

نصه: ومما قال هذا الإمام أيضا - رضى الله تعالى عنه - أن الإمام أبا بكر بن العربى - رحمه الله - قال: من فضل الله تعالى على هذه الأمة أن أعطاها ليلة القدر، فجعل لها عاما بألف شهر، ثم قال الإمام ابن مرزوق: هكذا وقع لهذا الإمام وصوابه: جعل لها ليلة بألف شهر - وإن كانت كما قال، إلا أن الواقع ما ذكرناه، وهذا أبلغ فى التفضيل وسعة الإحسان. انتهى.

قال أحمد المقرى - وفقه الله: كتب الشيخ الوانشريسى - رضى الله عنه عند قوله - ومما قال هذا الإمام إلى آخره - ما نصه: قَوّلْتَ الرجل - يا أخى ما لم يقل: اذكروا أمواتكم بخير.

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تصف أحدا منهم بما فيكا

انتهى. ولنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول: قال الجزنائى بعد قوله: وسعة الإحسان ما نصه: فعرض لى فى كلام هذين الإمامين - رضى الله تعالى عنهما - أشكال، وذلك أن ابن العربى جعل العام بمثابة ألف شهر، وابن مرزوق جعل الليلة بمثابة ألف شهر، وكل واحد منهما لا يساعده القرآن، فإن الله - تعالى - يقول: ﴿...خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾ [القدر] ولم يقل بمنزلة ألف شهر، فقد تكون خيرا من ألف شهر بأضعاف كثيرة - كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④﴾ [الضحى]. فأنت ترى فضيلة الآخرة على الدنيا، لا سيما عند من يرى أن الألف لم يقصد به العدد، وإنما أراد الدهر كله - كما قال تعالى: ﴿... وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ... ⑨⑥﴾ [البقرة] - إنما أراد ها هنا: الأبد، ولم يرد العدد، والسلام على من يقف عليه، ولم أرد بما قلته الانتقاد عليهم - رضى الله تعالى عنهم، وإنما أردت ظهور الحق من حيث هو (حق)، قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية،

العبـد المذنب عمر من عـبد الرحمن بن يوسف الجـزنائى - لطف الله تعالى بالجميع - مسلما على من يقف عليه، والحمد لله رب العالمين.

أقول - والله سبـحانه وتعالى المستـعان - قد سلم هذا المعتـرض صحة حديث يوم الاثنين، غير أنـه استبعد الاستدلال به بل أبطله، واسـتبعاده يدل أنه مزكوم عن فهم معنى ذلك الحديث، واحـتجاج العالم المحقق ابن مرزوق به على ما صرح به من استـدامه التفضيل فيما يقـابل الليلة السعيدة، هو فى مـحله على ما نقله عنـه، وهو ظاهر جلى، وبيان ذلك أن جـوابه - ﷺ - للسائل بعد أن نبىء ونزل عليـه الوحى، وبين جوابه وولادته أزيد من أربعين سنة، فـجوابه - ﷺ - أدل دلـيل، لكل فطن نبـيل، على إثبـات الفضـيلة والشرف لليـلة السعيـدة وصبيـحتـها، واتصال ذلك وتكرارهمـا فى كل ليلة تقابلهما من وقت جوابه للسائل، ثم بعد إلى قيام الساعة. وقول المعترض فى المسألة الثالثة - قبل هذا: ومن ادعى وجودها فى غيرها، فدعواه بعيدة وذلك رجم بالغـيب، ولا يسلم قائلهـا بغير دلـيل من العيب، هو كـلام صدر من المعترض بغـير تأمل، لم يدر فيه مـا يقول، يستوجب عليه خـلع لسانه، بعد تعزيزه وهد أركانه، لأنه أثبت فـيه سوء الفهم والبعـد عن الصواب ووجوب العـيب، والرمى بشـبه الكذب - وهو الرجـم بالغيب، لمن قـال باسـتدامـة التفضيل وتكراره فى كل زمان يقابـل بالزمان الذى ولد فيه سيد الخلق، وأتى بمن التى هى للعموم، فـعمت كل شخص، ومن جملتـها نبينا - ﷺ، لأنه أخبرنا - وخبره صدق، وشهادته حق، بتكرار الفـضيلة واستدامتها، إلى قيام الساعة فى جوابه لـلسائل عن صيام يوم الاثنين فقال: فـيه ولدت، وفيه أنزل على. فراعى - ﷺ - فـضيلة اليـوم الذى ولد فيه، ولاحظ شـرفه من يوم

ولادته إلى حين الجواب، فكسف يصف هذا المعترض من ادعى تكرار الفضل والشرف بسوء الفهم والعيب، والرجم بالغيب، ونبينا - ﷺ، مدعيه. وقوله: يلزم منه إلى قوله: وهذا لا يقوله قائل. وقوله: أيضا لا خلاف أن يوم الجمعة أفضل من يوم الاثنين، فاضمحل هذا الدليل، ولم يبق له أين، وجعله الخوارق الظاهرة، والفضائل الباطنة، مقصورة على تلك الليلة، فجوابه عن هذه الفصول الثلاثة أن يقال له: أنت بمثابة رجل يطلب ولده وهو على عنقه، لأن الحديث المسلم صحته عندك، يخبرك أن إلزامك تلك الفضائل فى كل اثنين إلزام صحيح عامل، ونفيك الخلاف عن يوم الجمعة قول باطل، وجعل تلك الخوارق مع الفضائل قاصرة على تلك الليلة شيء لا يفهمه عاقل، لكون الحديث المذكور نصا صريحا فى ولادته - ﷺ - يوم الاثنين نهارا، والذى تقرر عند علمائنا - رضى الله تعالى عنهم - أن الأزمان والبقاع لا فضيلة فيها لذاتها، ولكن لما خصت به، وحل بها، فكما فضل الموضع الذى ضم جسده - ﷺ - على جميع أقطار الأرض وبقاعها إجماعا، فكذلك الزمان الذى ولد فيه، فضل جميع الأزمان إجماعا، لأن شرف كل زمان ومكان، بحسب ما شرف به، فيوم الجمعة له فضل جسيم، وشرف عظيم، لكون آدم - عليه سلام الله تعالى - خلق فيه، وأهبط وتيب عليه، فروعى شرفه، وفضله من ذلك الوقت إلى وقتنا هذا بعد قرون وأعصار لا تعد ولا تحصى، فيكون هذا الزمان الذى ولد فيه سيد الخلق، أولى أن يراعى بالتعظيم والإجلال، وبالدعاء فيه والابتهال؟ انتهى.

قال أحمد بن محمد المقرى - وفقه الله - كتب الإمام الوانشريسى - صب الله عليه شآبيب رحمته - على قول هذا المؤلف، فيكون هذا الزمان إلى آخره - ما نصه: قلت: قال بعض أهل الحقائق: لصاحب الوقت يومان.

يوم بأرواح يباع ويشترى   نقدا وآخر لا يسام بدرهم

وفصل الفضل بينهما:

وما تفضل الأيام أخرى بذاتها   ولكن أيام الملاح ملاح

فافهم الإشارة، انتهى كلام الوانشريسي.

قال أحمد بن محمد المقرى - وفقه الله - أشار الإمام الوانشريسى بقوله: بعض أهل الحقائق إلى أشهر أسلافنا، الإمام العلامة، القاضى بالحضرة الفاسية - أيام المتوكل عنان، الشيخ العارف، القدوة المؤلف، الكبير الشهير، أبو عبد الله المقرى التلمسانى القرشى - رضى الله عنه، فإن ذلك نص كلامه فى كتاب الحقائق والرقائق له، وهو كلام منور وبالله التوفيق.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من كلام المؤلف الراد على الجزنائى، قال - بعد قوله والابتهال - فإن رتب الشرف أبدا مختلفة: فليس يوم ولد فيه سيد الأنبياء والرسل، كيوم خلق فيه آدم عليهم أجمعين سلام الله - فى الشرف سواء، فأين قولكم يوم الاثنين لا يكون فيه تلك الفضائل، ولا يقول هذا الكلام قائل؟ وأين قولكم: فإذا اضمحل هذا الدليل، ولم يبق له أين؟ وأين تحجيركم تلك الفضائل مع الخوارق على تلك الليلة؟ فلا تقف أيها الرجل ما ليس لك به علم، ولا تتبع من أمور دينك إلا الأمر المهم، وواجب عليك أن لا تختصر شيئا من كلام العلماء، ولا تنقله بالمعنى ولا بالمقتضى - إن أردت تعقبه، فإن النقل أمانة، والتحريف خيانة، وبعد تعقبك إياه ينظر الناس فيه، فيقرأ ويسمع، والحق وأولى أن يتبع، ومن هناك ينكشف عن المسألة الغبار، ويتبين الفرس الجنيب من الفار، وما ذكرتم أيضا فى آخر كتبكم عن الإمام ابن العربى - رحمه الله تعالى - حين تكلم عن ليلة القدر فقال: من فضل

الله تعالى على هذه الأمـة، أن جعل لها عامـا بألف شهر، وإن كان - كـما قال. ثم إنكم، بارك الله تعـالى فيكم - أفرغـتم كلامهـا فى قالب الإشكال والتعقيد، ليتـهيأ لكم الرد عليهما والتعقيب، فقـلت: عرض لى فى كلامهما إشكال، فإن الأول جعل العام بمثابة ألف شهر، والثانى جعل الليلة بمثابة ألف شهـر، وكل واحد منهمـا لا تساعده الآية، لأن القـرآن لم يقل: بمنزلة ألف شهر، وإنما قال ﴿...خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ - قلت: ظاهر كلامك أن القرآن لم يقل بمنزلة، أنهـمـا قالاه، وهمـا لم يقـولا بمنزلة ولا بمثـابة، ولم يتلفظا بواحد منهما.

قال أحمد المقرى - وفقـه الله - كتب الوانشريسى هما ما نصه: قلت: صحة الرد عليه، تتوقف على تحقيق متن كلام الشيخ ابن مرزوق - رحمه الله - انتهى.

رجع إلى كلام المذكور، قال - بعد قوله مـنهما - ما نصه: وإنما القائل لذلك أنت، لتـركب عليـه اعتـراضك، وهلا قلت - كـما قـال من سبـقك بالسيادة، ولين الجانب، فقلت: صوابـه كذا، فتكون مثله فى السيادة والأدب أو تقارب، وأنت أيهـا السيد والأخ - فى الله تعـالى - دع الولوع عنك بمثل هذا، وأقبل على شأنك، وانظر إلى سنك.

قال أحمد المقرى - وفقـه الله - كتب الوانشريشى على قوله سنك، ما نصه، قلت: ويرحم الله القائل:

أبعد الأربعين تروم هزلا فما بعد العشية من عرار

انتهى.

رجع، قال المذكور: واعلم أن العلماء هم أهل الله - تعالى - وخاصته وحماه، فلا ترع حول الحمى، تقرب إلى الله - تعالى - بغير هذا، وليكن هذا آخر النصح إليكم. والسلام.

خاتمة: ذكر هذا الفقيه أبو حفص عمر، كلاما ختم به المسألة الثالثة المتقدم ذكرها، ونص ذلك الكلام: ولم أرد بما قلته الانتقاد عليهم - رضى الله تعالى عنهم - وإنما أردت ظهور الحق من حيث هو حق، قال ذلك وخطه بيده الفانية، عمر بن عبد الرحمن بن يوسف، الشهير بالجزنائى، مسلما على من يقف عليه، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

قلت: هذا الكلام فى نفسه فى غاية الحسن والأدب، والتواضع مع هؤلاء العلماء والأولياء الجلة - رضى الله تعالى عنهم أجمعين. ثم إنى تأملت هذا الكلام وألفاظه الواقعة فى المسائل الثلاث المتقدمة، فوجدتها تنافى ما قصده من ظهور الحق والأدب معهم، والتواضع والدعاء لهم - رضى الله تعالى عنهم. فمن ذلك: قوله: ومن ادعى وجود هذه الفضائل فى غيرها، فدعواه بعيدة، وذلك رجم بالغيب، ولا يسلم قائلها بغير دليل من العيب. ومنها ليس له فى حديث يوم الاثنين دليل، وذلك بين ظاهر لكل حاذق نبيل، ومنها هذا الكلام لا يقوله قائل. ومنها: وطول بذلك اللسان، وأبدأ وأعاد، حتى خرج عن المعتاد. ومنها: فاضمحل دليل يوم الاثنين، ولم يبق له أين. ثم ختم كتابه - وكان ختامه مسكا، مخبرا عن القاضى أبى الفضل عياض - رحمه الله تعالى، ورضى عنه - بقوله: وهذا لا يليق بما قصده، والذى يليق به أن يقول كذا وكذا، ثم يقول: هذا هو الصواب، ولو كان حيا لم يسعه إلا الموافقة على ما قلناه والسلام. انتهى.

قلت: الظواهر إذا تكررت وتظافرت، قامت عند علمائنا - رضى الله عنهم - مقام النص، يقول هذا الفقيه: لم أرد إلا ظهور الحق، كلام جرى على لسانه، فهو محمول على المجاز، والحقيقة ما اقتضته ظواهر هذه الألفاظ، وشهدت به القرائن الحالية، ودل عليه سياق كلامه - وهو شهود نفسها وتعظيمها، ورؤية حظها، واتباع هواها، وانفراده لا بزعمه فى وقته بالسؤدد، ومساواته لهؤلاء العلماء المعترض عليهم فى العلم والحفظ والفهم، بل يرى أن له شفوفا عليهم فى اعتقاده لكونه غاص على ما أغفلوه، وعلم ما جهلوه، فكان ذلك سببا للحط من أقدارهم الرفيعة، وغضا لهم عن مناصبهم العلية، وبحصول ذلك فى نظره نسب لبعضهم العيب، ورماه بما يقارب الكذب الذى هو الرجم بالغيب، ولبعضهم القصور والغفلة، ولآخرين البعد عن الصواب، وعدم فهم الكتاب، مع أنه وضع خمسمائة مجلد بعد خروجه من بلده غريبا مهاجرا، ويرى فى ذلك كله أنه على المنهاج القويم، وصراط الله المستقيم، وليت شعرى ما معنى قوله فى الإمام ابن مرزوق: وأبدأ وأعاد حتى خرج عن المعتاد، ما هذا المعتاد عنده؟ وما حده؟ فإن العلم نور الله عز وجل، فإذا أشرق من صدر صاحبه واسطاع أيملك حصره أو يستطاع؟

وقد قدمنا فى هذه الخاتمة، ما ختم به أبو حفص كتابه بما فيه كفاية، وأعظم دلالة على جرأته فى نقله، وتحكمه بعقله، وقلة أدبه، وسوء فهمه، فأغنى ذلك عن شرح بقية ألفاظه الحسنة، وجمل من كلماته المستحسنة، ثم نسأل الله جل وعلا - بجاه الخلق عنده - أن يختم لجميعنا بالحسنى، وأن يسامحنا أجمعين، ولا يؤاخذنا بما قلنا، وعملنا وظننا، إنه على ذلك قدير،

وبالإجابة جدير، وصل أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا، على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله، وخاتم النبيئين، وسيد المرسلين، وشفيع الملأ المذنبين، وأن يعم بهذا الدعاء والدينا، وجميع المسلمين آمين، آمين يارب العالمين.

ثم بعد فراغى من هذا المجموع، نبهنى بعض الفضلاء، أن يقع الجواب عن المسألة - وهى قوله فى المسألة الثانية، (كما وقعت من القاضى أيضا غفلة، حيث ضعف قول الشافعى وابن المواز)، ثم قال: (وهذا لا يليق بما قصده من تعظيم الصلاة عليه - ﷺ) إلى قوله: (ثم نقول وهذا الصواب، ولو كان حيا لم يسعه إلا الموافقة على ما قلناه والسلام). فأقول - والله سبحانه المستعان - أن الجواب عن هذه الجملة التى اكتنفت طرفى المسألة الثانية: أولها وآخرها هو أن يقال لهذا المعترض: إن نظرت بعينى بصيرتك وأنصفت، لم تجد منافاة بين ما قصده - رضى الله تعالى عنه ونفع به - من تعظيمه الصلاة على رسول الله ﷺ، وبين تضعيفه قول الشافعى، وبيان ذلك: أن قصده للتعظيم قصد صحيح، لأن تعظيم الصلاة عليه - ﷺ - تعظيم ذاته ومحبته، واتباع سنته، وسنة السلف الصالح بعده، واتباع هديهم القويم - سرا وإعلانا، ﴿... لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ... ﴿٣١﴾﴾ [المدثر]، فيجب اتباعهم - على كل حال فيما نقلوه، وقعدوه وأصلوه، وحسنوه أو وهنوه، فإنكار المعترض على القاضى - رحمه الله تعالى - تضعيف قول الشافعى وابن المواز - اعتمادا منه على ما حسنه له عقله ووهمه، وانتهى إليه فكره وفهمه، جهلا منه أن الإجماع انعقد من السلف الصالح قبل الشافعى وابن المواز على صحة ما قاله القاضى - رضى الله تعالى عنه - واختاره وأمضاه، وعلى إبطال ما أشار إليه المعترض وحسنه

وارتضاه، وإن كان الشافعى وابن المواز - رضى الله تعالى عنهما - وأفاض علينا من بركاتهما، وقد بلغا هناك من العلم والاجتهاد، المبلغ العظيم، ولكن كما قال مولانا فى كتابه الكريم: ﴿... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف]، فلما جعل المعترض ذلك، ونظر فى المسألة بفرد عين، لم ير بها الإجماع منصوصا مسطرا، فمن أجل ذلك، صير المنكر معروفا، والمعروف منكرا، ثم إنه بكيسه، وحسه وحدسه، ولم يقنع بهذا كله، ولم يحتشم مما قال حتى أشلى(١) القاضى - رحمه الله تعالى - على نفسه، مع جلالة قدره، وعلو منصبه، أن ينتقض ما أخذه الله تعالى من العهد والميثاق، على الذين أوتوا العلم ليبيننه للناس، ولا يكتمونه، بأن يوافق المعترض عن قوله وفهمه، فيحسبه عليه الكرام الكاتبون ويكتبونه، فيقوله بذلك قول الزور، ويوقعه فى الحذور، حاشاه متلاعبا بالدين عمدا واعتمادا، ويحرف الكلام عن مواضعه قولا واعتقادا، وهنا انتهى الجواب عن هذه الجملة المنسى الكلام عليها، وبعد كتب هذا الجواب، عرضت لى مسألة أخرى، فأجبته هنا، وذلك أن المعترض ذكر فى المسألة الثالثة ما نصه: (وعندى أن ما ادعاه ابن مرزوق غير متعين، وما استدل به غير بين، وذلك أن ليلة مولده - ﷺ - ظهرت فيه أمور خارقة. إلى قوله: (فاضمحل هذا الدليل، ولم يبق له أين)، انتهى الجواب عنها، فأقول - والله سبحانه المستعان: محل الحاجة من هذا الكلام، هذا الإلزام، وذلك أن قوله - عليه السلام - لسائله عن صيام يوم الاثنين مجيبا: (فيه ولدت، وفيه أنزل على) - تعظيم وتشريف لذلك اليوم، وأن الفضائل التى نفاها المعترض عن ذلك اليوم، هى بكمالها كامنة فى ذلك اليوم لولادته فيه، كما أخبر - ﷺ، وقد تقدم الجواب عن هذه المسألة بكمالها، وأن الزمان الذى ولد فيه سيد الخلق، فضل جميع الأزمان إجماعا. فقال هذا

(١) أشلاه: أغراه وادعاه.

المعترض: هذا كلام لا يقوله قائل، ويعنى بذلك أن تلك الفضائل، لا تكون فى ذلك اليوم؟ وقوله: لا يقوله قائل، معناه قائل يعتبر قوله، ويلاحظ علمه ونقله، كأن هذا الكلام عنده فى حيز القطع والتحقيق، ومن قال غيره فهو عنده فى غاية الضعف والتلفيق، هذا هو الظاهر البين من كلامه، فلما عم هذا النفي ولم يخص، جاء الإشكال والتلبيس والإجمال، فيحتمل أن يكون الكلام المنفى عنده، قول النبى عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يكون الكلام المنفى كلام غيره، فإذا تقرر هذا وسلمه كل ذى عقل سليم تعين الوقوف، وجاءت الحيرة، وتردد النظر، واشتدت الفكرة: أيهما يغلب، هل حرمة النبى ﷺ، فيكشف ظهر المعترض، ويبالغ فيه بالضرب الوجيع، لأن الجاه عظيم، وحماية كريم عرضه حق واجب على كل مسلم سليم، وإلى هنا بلغت إذايته، وكادت تتكشف للمسلمين سريرته، من إطلاقه العنان، وعدم ضبطه الكلام وإمساكه اللسان، فكيف بمن دون هذا النبى، من الأولياء والعلماء والصلحاء، فمنهم الصديق الأكبر، أبو حامد الغزالى، والولى الصالح أبو بكر بن العربي، والفقيه القاضى ولى الله - تعالى - أبو الفضل عياض، والفقيه الإمام العالم العلم الشهير، أبو عبد الله بن مرزوق - رحمهم الله تعالى أجمعين، ونفعنا ببركاتهم، فما منهم واحد إلا وقد أهانه، وغض من منصبة العظيم.

قال أحمد المقرى - وفقه الله - كتب هنا الشيخ الوانشريشى ما نصه: قلت: ويرحم الله الشيخ أبا القاسم ابن عساكر حيث يقول: اعلم يا أخى أن لحوم العلماء مسمومة، وأن من أطلق لسانه فى العلماء بالثلب، بلاه الله قبل موته بموت القلب - انتهى.

رجع إلى كلام المؤلف المذكور، قال - بعد قوله العظيم - ما نصه: فانظر عاقبة أمره، هل تزيد اعوجاجا، أو يتداركها ربنا عز وجل فتستقيم؟ غير أن الغزالى - رحمه الله تعالى - لم أقف على نص معارضته إياه، ولكن ذلك شائع عند أهل الفضل من علمائنا، وذكر لى بعض الأكابر من أهل العلم، أن الصمم الذى أصابه، إنما كان من وقوعه فى الغزالى، قبل هذه السنة - أعنى سنة كتب هذا المجموع.

قال أحمد المقرى - وفقه الله: كتب الوانشريسى على قوله من وقوعه فى الغزالى ما نصه:

ستعلم ليلى أى دين تداينت وأى غريم للتقاضى غريمها

انتهى.

رجع، قال المذكور: فبعدما فرغ من معارضته، أصابه - والعياذ بالله - ما أصابه، فإن قال هذا المعترض: أشققت على قلبى فى دعوى العموم، وإن ذلك يعم المعصوم وغير المعصوم؟ وهذا من سوء الظن المنهى عنه، إن بعض الظن إثم، وما أشرتم إليه، لم أقصده ولم أنوه، ولم يخطر لى ببال؟ قلت له فى الجواب: فسألتك هذه، هى من باب خطاب الوضع، فلا نتعرض لنيتك وقصدك، ولا نسألك عنهما، ولكن حيث وجد هذا اللفظ أو مثله منك، أو من غيرك، وجد ما يقابله من أدب فى الظهر، أو حد فى العنق، وقضية سيدى عمر الرجراجى - رحمه الله تعالى ونفع به - مشهورة، وذلك أنه كان مولعا بسوق الكتبيين فى كل جمعة، فجاءه الدلال بكتاب فيه سيرة النبى ﷺ، وكان خط الكتاب ركيكا جدا، فقال رجل - إلى جنبه - ما هذه إلا سيرة سوء، فسمعه من حضر، وأدوا عليه، فأفتى فقهاؤها بقتله، فحلف

الرجل أنه لم ينو، ولم يقصد عيبا، ثم حلف الشيخ رضى الله تعالى عنه - بعد أن توجه إلى القبلة: إنه لصادق فى يمينه، وما أغنى عنه ذلك شيئا، إن ضربت عنقه فى الوقت، فكما وجب القتل هنا على هذا مع كونه لم يصرح بسبب هذا النبى الأمى، فكذلك يجب الأدب الوجيع على من غض قلامة ظفر من منصبه العلى - إن كانت القضية مثل هذه، وإلا فلا فرق فى القتل بين من تعرض لسبه، أو غض غضا بينا من منصبه - ﷺ، وشرف، وكرم، وسواء كان ذلك فى قوله - كان فى هذه القضية، أو فعله أو خلقه، أو خلقه أو دينه، أو نسبه أو ضحكه أو مزاحه - ﷺ، وسواء كان ذلك تلويحا، أو تغلب حرمة الظهر، فإن ظهر المؤمن حمى، وفى الصحيح ادرءوا الحدود بالشبهات. وهذا كله موكول إلى القضاة والحكام، فرب شخص يكفى فى زجره فتل أذنه، وآخر ألف سوط على قول العوام؟ انتهى. وحكايته مع الفقيه الإمام، العالم المفتى، أبى العباس أحمد بن زكرى التلمسانى الدار، معروفة مشهورة، وذلك أنه وصل إلى مدينة فاس بعض كلامه، فوضع عليه المعترض المذكور بطاقة كلها مفقرة، وحملنى مع رجل إلى منزله، وقرأها علينا كلها، لا يدرى من سمعها أهى هجو أم غيره؟ فكان يقرؤها علينا - والعسل والسكر يقطر من فمه، وعاب كلامه كله، ثم بعد ذلك، لقيه رجل من طلبة الفقيه أبى العباس أحمد المذكور، فتكلم معه فى مسألة من علم الكلام، وطال الكلام بينهما، وسمعت من وراء الناس أن الطالب ظهر على المعترض المذكور بالحجج والدلائل، وربما شنعوا فى ذلك الوقت عنه شيئا قبيحا، وتمشى ذلك فى الألسنة، ثم إن يوما بعد صلاة العصر، قامت الأولاد وصبيان المكاتب فى صحن جامع القرويين، يصيحون صيحة واحدة بكلمتين مفقرتين، يقولون فى الكلمة الأولى: عمر، ثم يكملون القافية الأخرى على وزنها فقر ترتعد منها

الفرائص، بقى كذلك إلى أن جن الليل، فخرجـوا وكتبوا الكلمتين على غلق حانوته فى الـشهود بحـجر أبيض، غلظ الإصـبع، يقرؤه كل أحـد، وبقيت حانوته مغلقة أياما حتى محـا ذلك جيرانه وغيرهـم، ولـم يعلـم أن انتصار الله تعالى لهـؤلاء السادات، أتم انتصار لهم من انتـصارهم لأنفسهم، فلمـا فقر عليهم، وعـرض قوافيــه على الناس فى الأسواق، فـقر عليه، وكـتبت تلك القوافى على بابه فى الإغلاق - جزاء وفاقا؟

قال أحمد المقرى - وفقه الله: كتب الإمام الوانشريسى على هذا المحل، ما نصه:

قلت: ولقد أحسن القائل فى هذا المعنى ما شاء:

(ومن يمت فله الرحمن ينتصر)

انتهى.

رجع إلى كلام المؤلف المذكور، قال: فاهتد أيها المعترض بهدى ساداتك ومن تقدمك، وأنصف أصحابك كإنصـافهم، واعترف بخطئك الظاهر البين، فإن الاعتـراف، يمحو الاقتراب وإن لـم تعتـرف وتقر لمن هو دونك فى المنزلة والمكانة، وغلبك الهوى والشيطان ولم تعـصمهما، فشمـر عن ساعد جدك، وأجب عـما كـتبـته بخطك، وقل مـا شئت من هجـومك ونوعه من نـثرك ونظمك، وأمْل ذلك على حفظتك، تجده غضا طريا قريبا من خاتمتك.

ثم إن هذا المعترض لما بلغه كلامنا وكـتبنا الذى فى هذا المجموع، فلما قرأه وتبين له خطؤه وسوء أدبه على العلماء، وقلة حيائه عليهم، واشتد نكير غير واحـد من علماء الوقت عليه ضجت نفـسه من ذلك، وأنفت وضاقت،

وأخذ يكتب بالرد علينا فى ألفاظ يغفلها الكاتب، ولا يحسبها كل سيد فاضل إلا طغيان قلم، فيعظم هو شأنها، ويشنع أمرها، ويطوف بها على الحوانيت، ولا يقتصر على القول وحده، بل يكتب فى ذلك كتبا مفقرا، ويقرؤه على الناس فى حوانيتهم بنفسه، وقد فعل ذلك مع الفقيه العالم المحقق، مفتى مدينة تلمسان، سيدى أحمد بن زكرى - رحمه الله تعالى، وقد رأى لذلك أعجوبة عظيمة تقدم ذكرها، وهو يعلم أو لا يعلم أن ذلك من الغيبة المتفق على تحريمها، ورحم الله الشيخ أبا القاسم بن عساكر حيث قال: اعلم يا أخى أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله تعالى فى هتك أستار مستنقصيهم مشهورة معلومة، وأن من أطلق لسانه فى العلماء بالثلب، ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب. ومقصوده بهذا الطواف على الحوانيت، وأعلام الناس بأنى كتبت المحظور - بالضاد، فأسقطت قرن الظاء فى الكتب، ويكتب الكلمة فى آخر السطر، وتكميل بقيتها فى السطر الثانى - تنفيرا للناس عن النظر فى هذا الكلام، وتقبيحه فى أعين الناس، وإطفاء نور الله الذى أظهر منه حقوق أولئك العلماء والسادات المعترض عليهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره - على رغم أنفه ولو كره، وقد صرحت فى هذا المجموع فى مسائل، أنه يلزمه فيها خلع لسانه، وثقب أشداقه، وهد أركانه - وكشف ظهره للأدب الوجيع، ولم يتكلم على مسألة واحدة منها، ولم يعتذر وكأنه لم يرها أصلا، وتعامى عنها، ومن هذا المعنى ما كتبه بخطه، ولم يدر فيه ما يقول، ولو حضر بين يدى السلطان، أو من بيده تنفيذ الأحكام الشرعية، لأوجب عليه الأدب الوجيع، للعبه بالأحكام الشرعية كيف يشاء. ...

قال بخطه: إن يوم الجمعة أفضل جميع الأيام، بالكتاب والسنة

والإجماع، وليت شعرى ما هو هذا الكتاب؟ ومن نقل هذا الإجماع؟ ثم قال أيضا بخطه: لا خلاف أن يوم الجمعة أفضل من يوم الاثنين، ثم قال: وأما الزمان الذى ولد فيه سيد الخلق، فقد فضل جميع الأزمان، ولا خلاف فى ذلك بين المسلمين، وهو يزعم أنه أحدهم، فتدخل الليالى والأيام الفاضلة عند الناس، كيوم عرفة، ويوم الأضحى، وليلة القدر، وعشر ذى الحجة، والأشهر الحرم، وغير ذلك حتى يوم الجمعة، وقد نص المعترض عليه أنه أفضل من يوم الاثنين من غير خلاف، ومن جميع الأيام بإجماع، فيدخل يوم مولده - ﷺ - لأنه عنده مفضول بإجماع، فانظر إلى هذا التناقض والتدافع والتهاتر، فيجب عليه أن يبين من قاله من العلماء ويعين اسمه، فإن قال المعترض لم نزل نسمع العلماء والخطباء، أن يوم الجمعة هو سيد الأيام، ومظنة انحطاط الذنوب والآثام، وقد شاع فى الإسلام حظه وخطره، وانتشر فى العالمين ذكره، فمن ثم أخذت أنه أفضل من يوم الاثنين، قلنا له فى الجواب: هيهات، لقد حكيت، ولكن فاتك الشنب! وها هو الكون كله من العرش إلى الثرى، وما تحت الثرى، وجميع ما فى العالم كله، علوه وسفليه، من ملك وجن وإنس، وجميع الحيوانات كلها، والجمادات وغيرها، تخبرك أن لا يوم أفضل، ولا أشرف، ولا أعظم خطرا، ولا أعلى قدرا، من يوم الاثنين، الذى ولد فيه سيد الثقلين، وقلت أنت - وقولك هذا حق: لا يعادل زمان ولادته - ﷺ - فى الفضل شىء أى زمان وكتبت بخطك، وقلت - ولا يخالف فى هذا أحد من المسلمين، وأن المسلمين كلهم متفقون على هذا، ونحن نعتقد أنك أحد المسلمين، فكيف تعد نفسك منهم، وتقول أن يوم الجمعة أفضل من يوم الاثنين من غير خلاف، فيوم الجمعة - وإن كان معظما قديما وحديثا، وخصه الشرع بخصائص لم توجد فى يوم سواه،

وتلك الخصائص لا تحصى كثرة، وأعظمها فريضته المعلومة، وما يتبعها من السنن والآداب وخصال الفطرة، كما خصت بساعة الإجابة، وكون ميتها لا يروع ولا يسأل، وقيام الساعة، وغير ذلك، فالخصوصية التى خص بها هذا اليوم العظيم، لا تؤذن بأفضليته من كل الوجوه، وقول الخطباء والوعاظ: هو سيد الأنام، وخير يوم طلعت عليه الشمس، محمول على التحريض منهم على القيام بحقه، وتعمير أوقاته كلها بما يليق بكل وقت من العادة، وليس ليوم الجمعة مزاحم عند المعترض إلا يوم الاثنين، وما هو يدعى أن المسلمين كلهم متفقون على أفضلية يوم الاثنين، إذ فيه ولد سيد الثقلين، وبإقراره فى كتبه - بخطه، اتفقت المزاحمة عن يوم الاثنين، واستقل - والحمد لله - بالأفضلية التامة على كل حال، التى أجمع عليها المسلمون كافة، وباستقلاله وانتفاء المزاحمة عنه، انتفت حجة المعترض وانقطعت واضمحلت، ولم يبق لها وجود لمن أنصف، ورجع إلى الحق واعترف، وما خصت به الجمعة من البركات والخيرات، وتضاعف الحسنات، ومحو السيئات، استمدت ذلك كله - جداولها وأنهارها من البحر العظيم - وهو بحر يوم الاثنين، ومن فيضان بحر نور ذلك اليوم العظيم، كان سبب قبول توبة آدم حين توسل بمحمد - ﷺ - فوجد محمد ﷺ - سر وجود آدم، عليهم أجمعين صلوات الله تعالى وسلامه.

ثم إن المعترض ذكر فى هذا المجموع بخطه - مسائل جملة، وجزم بالحكم فيها، ولم يعين صاحب ذلك الحكم، ولم ينسبه لأحد من العلماء، فأردت تجريدها هنا، وحصرها وتبيينها، وأطلب من المعترض ما يخلصه ويبرئه من الجواب عنها، فأقول - مستعينا بالله سبحانه وتعالى عليها - المسألة

الأولى، ذكر - بخطه تصريحا - أن النبى ﷺ ولد ليلا، وتلك الليلة صادفت ليلة اثنى عشر من ربيع الأول، وأن هذا هو المشهور، فيجب عليه أن يعين من شهره من العلماء، المسألة الثانية، ذكر أن الليلة التى ولد فيها سيد الخلق، خصت بفضائل: ظاهرة وباطنة، فشرح الفضائل الظاهرة وسكت عن الباطنة لم يشرحها ولم يذكرها ولم يصفها، - غير أنه جزم عليها بالحكم، وأن الملك القدوس استأثر بها فى علم غيبه، ولم يظهرها لأحد من خلقه، فيجب عليه أن يعين من أين علم هذا، فإن هذا الحكم الذى حكم به، لايعلم إلا من طريق النبوة، لأنه من الأمور التوقيفية، ولا سبيل له إلى الحرز والتخمين فيها. المسألة الثالثة: ذكر عن ابن مرزوق - رحمه الله تعالى - أنه يقول هذه الفضائل التى خصت بها ليلة مولده - ﷺ - تتكرر، وتستدام فى كل ليلة اثنى عشر من ربيع فى كل سنة آتية، وقلتم: هذا الذى عول عليه هذا الإمام، فيجب عليه أن يعين من أين نقل هذا عنه، وهو - رضى الله تعالى عنه - روى حديث يوم الاثنين وولادة النبى - ﷺ - فيه، فنسب كلامه - رضى الله تعالى عنه - إلى التدافع والتناقض، وهو لا يليق بمقامه.

المسألة الرابعة، ذكر أيضا عن القاضى أبى الفضل - رحمه الله تعالى - أنه نقل عن الإمام الشافعى وابن المواز أن من لم يصل على النبى ﷺ، فصلاته باطلة، فيجب عليه أن يعين من أين نقل هذا عنه.

المسألة الخامسة: ذكر أيضا - بخطه - أنه لا خلاف أن يوم الجمعة أفضل من يوم الاثنين، ثم ذكر أيضا فى المكتوب الثانى، أن أفضل الأيام يوم الجمعة بالكتاب والسنة والإجماع، فيجب عليه أن يعين من قال هذا الكلام، ومن نقل هذا الإجماع، وذكر لى رجل من أصحاب المعترض وأهل سره، أن

شيخنا البركة سيدى أحمد بن يحيى[1] الونشريسى - حمد الله عاقبته، وجبر صدعه، وأمن روعته، جرت بينه وبين المعترض مسألة، وذكر المعترض أنها مجمع عليها، فطلبه شيخنا بالمستند، فراغ المعترض عن الجواب، واستعمل طريق الحيدة، وألقى عليه مسألة - وكأنه يلقمه فيها حجرا يشغله بها عن طلب حقه بالمستند، ومضمن المسألة أن يبين له أى اليومين أفضل: أيوم الجمعة، أم يوم الاثنين؟ فإن كان الأمر على ما ذكر لى هذا القائل، الذى هو صاحب المعترض ومن أهل سره فأنا أكون بينه وبين سيدنا، كالحاجز بين المتنازعين فى حق من الحقوق، فأبلغه غرضه - إن شاء الله - بالجواب عن مسألته فى عين نازلته، جوابا يشفى علته، ويقطع حيدته، على أن يبلغ شيخنا غرضه، بتعيين المستند، ومن نقل ذلك الإجماع، ويناجزه بأحد جوابين: أما أن يدعى أنه وهم فى دعوى الإجماع، وإما أن يشمر عن ساعد جده، ويلح على علماء الوقت فى السؤال، عسى أن يفتح عليه منهم فيما يبريه، ويظهر صدقه فى دعوى الإجماع، وإن لم يفعل شيئا من هذا، نسب إلى الظلم والكذب، والروغان عن الحق، وذلك لا يليق بطالب العلم، سيما وقد بلغ هذا المعترض من السن تسعين عاما أو قاربها، والجواب عن المسألة التى ألقاها على شيخنا البركة - والله سبحانه الموفق للصواب بمنّه - أن جماعة من أكابر أئمتنا وعلمائنا المحققين المحدثين، اتفقوا على ولادة النبى - ﷺ - يوم الاثنين، فإن قلت: اليوم إذا أطلق - هكذا عم الدورة كلها، فمن أين تتحقق أحد زمانى الدورة؟ قلت: القرينة هنا تمنع من إرادة الليل، لأن جوابه - ﷺ - لمن سأله عن صيام يوم الاثنين، فقال له: فيه ولدت وفيه أنزل على، أخرجه مسلم فى صحيحه فى آخر كتاب الصيام، فتعين صرفه إلى محل الصوم، لا إلى الليل الذى هو محل النوم، كما عينت القرينة أيضا

---

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «أحمد يحيى».

قول الفقهاء: وأجاز مالك صوم يوم الجمعة منفردا. فكما عينت القرينة هنا الزمان المنحصر فيه الصوم، وهو ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فكذلك عينته فى جوابه - ﷺ - لمن سأله عن صيام يوم الاثنين، إذ لا فرق بين المسألتين، فإذا تقرر هذا عند السائل، وفهم شرح هذا الحبيب، وسلم صحته تعينت القضية أنها نهارية - لا محالة، ولا يكابر فى هذا الكلام وصحة نقله، إلا رجل مصاب فى عقله، ويبقى المعترض على حقه فى سؤاله: أى الزمانين أفضل؟ فنقول - والله سبحانه المستعان - قال بعض العلماء من فقهائنا وأئمتنا الماضين، المسلم له فى فقهه، المشهود له بثقته وأمانته وحفظه، ما نصه: أعملت النظر فى ظواهر النصوص الواردة فى هذا الباب، فإذا هى أكثرها تشهد لولادته - ﷺ - نهار يوم الاثنين، ولم يبق ليوم الاثنين مزاحم إلا يوم عرفة، ويوم الجمعة، فموجب أفضلية يوم الجمعة، نبينا محمد ﷺ، وهى ولادة آدم فيه، وقبول توبته، وهبوطه إلى الأرض، وقيام الساعة، فيه رحمة لأمته، لئلا يطول مقامهم تحت الأرض، وهو العيد الذى اختصت به أمته كرامة له، كما اختصت اليهود بالسبت، والنصارى بالأحد، ويوم عرفة جاء فيه ما روينا فى الصحيح من قوله: ما رُئى الشيطان يوما هو فيه أذل ولا أحقر من يوم عرفة، لما يرى من نزول الرحمات، وتجاوز الله - تعالى - عن الذنوب العظام والسيئات، فيوم عرفة ويوم الجمعة، من المواهب الربانية، التى منحها وأنعم بها على نبينا - ﷺ، فثبتت أفضلية يوم الاثنين، قال: وفضله باق مستمر، وشرفه ثابت، ومراعاة حرمة زمان ولادته مستمر. ثم قال: إذ لا نزاع فى الحديث الوارد فى يوم الاثنين وصحته، ولا يرد عليه شىء من الأسئلة الواردة فيما تقرر من المتون، وعند الأصوليين وأهل النظر. انتهى.

قلت: وبانتفاء اليومـين المزاحمين اللذين هما: الجمعة وعـرفة، استقل بالأفضلية يوم الاثنين، الذى ولد فيه سيد الثـقلين، وثبتت أفضليته على سائر الأيام، وبطلت حجة المعترض، وانقطـعت واضمحلت، ولم يبق لها وجود، ومـشى إجمـاعه الذى لا مـستند له فـى هبوب الرياح، عندمـا بدت رايات النصوص تقـفو أثره بالعـويل والصياح، فـإن كانت المسألـة التى جرى فيـها الكلام بين سيـدنا وبين المعترض، التى ادعى فيـها الإجماع، هى مـسألة يوم الجمعة هذه، فها هو قد سمع المعتـرض فيها ما قد سمع، وإن كانت غيرها، فالمعترض مـرتهن بالمستند، فإن أتى به معزوا لعالم مـرضى أمين على علمه، مسلم له فى علمه ودينه، فـقد برئ، وعلم صدقه وأمانته، وكـان مأمونا فى نقله، معمولا بقوله، وإن بقى على روغانه وحيدته، ظهر وهمه أو كذبه على العلمـاء، وقد كنت حـين فرغت من هذا المجـموع، أطلعت عـليه الأسـتاذ الفـقيـه، الخطيب البليغ، أبـا عبـد الله محـمـد بن غازى، فـرآه وأعـجبـه واستـحسنه، وربما دعا لـى بخير، ثم بعـثت به إلى شيخـنا وسيدنا، البـركة العالم، العلم الشهير، سيدى أبى العـباس أحمد الوانشريسى أبقى الله تعالى بركته، فبقى عنده أياما عديدة ينظره ويتأمله، وقد كنت بعثت به إليه - ومعه ورقتان منفصلتـان منه، تكلمت فيهما على بيت جلبه المعـترض، ليضعف به كلام القـاضى أبى الفضل عـياض - رحـمه الله، وهو البيـت الذى ذكره فى الشفا - وهو قوله: لولا الأعادى والعوادى - البيت.

قال أحـمد المقرى: هنا انتـهى التأليف المذكـور، ثم وجدت متـصلا به كلام المؤلف المذكور، ما نصه: الحمـد لله، وكان من قضاء الله تعالى وقدره، حين وقع لأبى حفص ما وقع من اعتراضه على الإمام العالم العلم، ولى الله

تعـالى، أبى الفـضل عيـاض - رحـمه الله تعـالى ورضى عنه، وناولنى مـا اعترض به عليه ليبيت عندى، فتأمله ونساعد عليه، فقيد على اعتراضه بعض كلمات، ثم بعـثت بها لسيدنا أبى العـباس الونشريسى - رحمـه الله تعالى، فلمـا نظرها، أعجـبتـه وأثنى عليهـا ثناء حسنا، وكـتب لى بذلك، فسـرنى وفرحنى، وأشار عـلى بأن أكمله ونضيف إليه شـيئا من فصول كـنت ذكرتها له، حتى يجتمع منه مجمع حسن - فى نظره الجـميل، فكان - كما قال بنيته الصالحـة، وزادنى ذلك نشاطا وقوة فى نفـسى ببركتـه والكتب التى كتب لى بخطه، وأثبتـه فى آخر ورقة من أول هذين المجمـوعين، ثم إنه - رضى الله تعالى عنه - تعقب على خمس مسـائل من المجموع المذكور، وكتب على كل مسـألة منها حـاشية حـسنة جيدة، بـاعتبـار ظاهرها، وأمرنى أن نبـدل منها ألفاظا، وقد كنـت كتبت ما كتـبت، وفرغت منه، وأردت أن أجمعـها حتى ينظر فيـها، وبدأت بجمـعها بـالحاشية الـرابعة من حواشـيه كيف تيـسر فى الوقت، كتبت جميعها بصبغ يخالف شرحها، ليسهل ذلك على الناظر فيها، والخمس المسـائل المتعقبـة، هى مجموعـة فى ورقتين، على كل مسـألة منها حاشية - رحمه الله تعالى بخطه، فأزلتهـما من الأصل، وأبدلتهما بغيرهما، وجعلتهما فى آخر هذا المجموع، فينظر فى الحاشية وأصلها. انتهى.

قال أحمد المقرى - وفقه الله: ثم وجدت بعده ما نصه: «لوامع الدرر، على أبدع الطرر» - الحمد لله وحـده، وصلى الله على سيدنا ومولانا مـحمد وعلى آله وصحبـه وسلم تسليما، ومما يجب أن يكتب عـقب هذا المجموع، قضيتنا مع شيخنا الفقيـه العالم العلم، أبى العباس أحمد الونشريسى - أبقى الله تعالى بركـته، وحسن عاقبـته، وذلك أنه اطلع على مجمـوعنا المسمى بـ «الإعلام للقريب والنائى، فى بيـان خطأ عمر الجزنائى»، فأعجـبه جدا وأثنى

عليه ثناء حسنا، وكتب عـليه بخطه، غير أن بيتنا واحدا جلبه المعـترض عمر المذكور، ليستشهد بـه على ضعف معنى بيت عياض - رضى الله تعالى عنه، وبيت عياض قد تقدم - وهو قوله:

لولا الأعـادى والعــوادى زرتهـا أبدا ولو سـحـبـا عـلى الوجنات

والبيت المستشهد به على ضعف بيت عياض، هو ينسب إلى أبى الطيب الواعظ كان مـعاصرا لـلخمى - رحمـه الله تعالى، وكان يحـضر مـجلسه، والبيت هو قوله:

إن كان سفك دمى أقصى مرادكم

فما غلت نظرة منكم بسفك دمى

فلما تأملت البـيت المستشهـد به، ظهرت لى فيه وجـوه تحطه عن رتبة الاستـدلال، ويبقى بيت عياض - رحـمه الله تعالى - على مـا هو عليه من الحسن والكمال، فاسـتطردت الكلام على تلك الوجوه، ولم أجد بدا من أن أبسطها، وطال الكلام فيها، فجاء شيخنا - أعزه الله تعالى - وعابه بالطول، وتعقب علينا فـيه ألفاظا، وكـتب عليها حـواشى وطررا تقتضى - بزعـمه - خطأنا فى تلك الألفاظ، وعاب عبارات منها لخشونتـها وسماجتها، وأمرنا أن نبدلـها ونتلطف فـيها، لأن فـيهـا قلة أدب على المشايخ - رضى الله تـعالى عنهم، وكنت كتـبت ذلك وسطرته، فأبقيتـه على ما هو عليه حتى ينـظر فيه الناظر ويتأمله، وأنا أذكـر - إن شاء الله - تلك الحواشى بنصهـا، مرتبة على كلامنا، ثم نذكر جوابنا عليها كل حاشية بجوابها.

الحاشية الأولى رتبها - رضى الله تعالى عنه على قولنا: فكما هو الآن، القاصد إلى الحج، أو إلى زيارة قبره - ﷺ، من قطرنا، ممنوع شرعا، فلا يبعد أن يكون ذلك فى زمانه - رضى الله عنه - لوجود المانع المذكور فى الزمانين، والعلة فى ذلك الإلقاء باليد إلى التهلكة. انتهى.

ونص الحاشية: قلت: قولكم ممنوع شرعا، فيه تحامل على المذهب، لأن الذى عليه الناس فى انتفاء السبيل الآمنة بوجود المانع والقواطع فيها، إنما ينهض إلى سقوط فرض الحج، ويبقى على الإباحة والندب والكراهة، وأما منعه وتحريمه فلا - خلافا للشذوذ، فلا يسعكم الاقتصار عليه. وإن قلتم: قصدنا بالمنع الكراهة، فخلاف الظاهر، ومما لا يخطر بالبال إلا بالأخطار، ويقال لكم أيضا: اقتصرتم على الكراهة، ولم تعرجوا على الإباحة والندب - وهما مما للمكلف فيه مجال، فالكلام غير محرر فلا يسلم مطلقه من القلق والعجرفة، وكلاهما مما لا ينبغى، فتأمله - منصفا واقفا مع الحق - انتهت.

قلت فى الجواب عنها: لعلكم - رضى الله تعالى عنكم - أشرتم فى قولكم: تحامل على المذهب، إلى إعمال القاعدة المشهورة، الجارية على ألسنة العلماء كثيرا فى المجالس العلمية وغيرها، وهى قولهم: الوسائل حكمها حكم المقاصد، وكأن المقصود عندكم هو الحج، والوسيلة هى الذهاب والقصد إليه، فالحج عندكم لا يوصف بكونه ممنوعا شرعا فى زماننا، وغايته سقوط فرضيته - كما صرحتم به لقيام الموانع والقواطع الموجودتين فى زماننا، وكلامكم هذا فى غاية الحسن والصواب، ويبقى الكلام فى القاصد والذاهب إلى الحج فى وقتنا، فوصفناه نحن بكونه ممنوعا شرعا لإلقائه بيده إلى التهلكة، فقلتم أنتم - رضى الله تعالى عنكم - نحن نقول بمنع الحج الذى

هو المقصود، فكذلك فى وسيلته التى هى: الذاهب والقاصد - عملا بالقاعدة، فيتعين على هذا، خطأكم وتحاملكم على المذهب - على كل حال.

وهذه القاعدة - سيدى - تعقبها الإمام، العالم الدارك، أبو العباس القرافى - رضى الله تعالى عنه فضعفها ووهنها وعطلها عن الإعمال، وسلك بها طريق الإهمال، لكونها خولفت فى بعض الصور، ولم تطرد عنده لمعارض عارضها، حتى يقوم الدليل والبرهان على ذلك المعارض أنه مقصود فى نفسه، وإلا، فالقاعدة منخرمة عنده.

قال رحمه الله فى الفرق الثامن والخمسين ما نصه: تنبيه! القاعدة: أنه كلما سقط اعتبار المقصد، سقط اعتبار الوسيلة، فإنها تبع له فى الحكم، وقد خولفت هذه القاعدة فى الحج فى إمرار الموسى على رأس من لا شعر له، فيحتاج إلى دليل يدل على أنه مقصود فى نفسه، وإلا فهو مشكل على القاعدة. انتهت.

فإذا تقرر هذا وعلم صحته بعد الوقوف عليه، ظهرت براءتنا من التحامل على المذهب، وبقى كلامنا على ما هو عليه محررا من أن القاصد إلى الحج، أو إلى زيارة قبره - ﷺ - من قطرنا فى زماننا ممنوع شرعا، وسلمنا - والحمد لله - من القلق والعجرفة بشهادة من سلم له فى العلم والدين والإنصاف والمعرفة.

الحاشية الثانية: رتبها على قولنا: فرأى عياض - رحمه الله - أن زيارة قبره - ﷺ - لا يدوم على حال، وغلب السلامة فى الزمان المستقبل، ورجا أن ما تعذر فى الوقت يتحول. انتهى.

ونص الحاشية: قولكم: غلب السلامـة... الخ، الأمور المتسقبلة كلها وهمية، فلا يتصور معـها غلبة، وإذا كانت الأعذار موكولة إلى نظر المكلف، فلم تبعثـرون عنها بالحدس والتخمـين، وذلك كله ضرب فى حديد بارد، لا يومن معـه من الوقوع فى الخطأ والخطل، والدين النصيحـة، ونعوذ بالله من الفضيحة. انتهى.

قلت فى الجواب عنها ما نصه: المتبادر إلى الأذهان، أن الأمور المستقبلة الوهمية، كلها عدمية، وهى ضد الحـقائق الوجودية، وباعتبار تصور وجودها فى الأذهان، فلابد من تقاسمها الثلاث، وهى الظن والشك والوهـم، فالوهم مـرجوح أبدا، والظن راجـح، والمساوى شك، وقـد نص على هذا علمـاؤنا المحققون - رضى الله تعالى عنهم، وسـيدنا - رضى الله تعالى عنه - أجمل فى كلامه، وحجر ما هو واسع، وحصر الأمـور المستقبلة كلها، وحكم عليها بأنها وهمـية، وليس ذلك بتحـقيق، وهو لمن تأمله وأبقـاه على إطلاقه يؤدى إلى أمر فظيع، وحال شنيع، على ما يقتضيه العقل، ويحكم به العلم، فتفسد بذلك الأحـوال، ويختل النظام، وتجىء الحـيرة، ويتـشتت العـقل، ويتغـير الخاطر، ويتنكد العيش، ويشتـد القنط الذى هو من العقوبات، وينقطع الأمل الذى هو من أعظم الرحـمـات، ثم لنا أن نقـول إن هذه الغلبـة التى أنكرها سيدنا فى الأمور المسـتقبلة قد تتأكد فتـبلغ درجة المندوب، وربما بلغت درجة الواجب، لأن ذلك يصـير من باب حـسن الظن بالله تعـالى، وقد جـاء فى الصحـيح عنه - ﷺ: إذا تطيـرت فلا ترجع فنهى - ﷺ - هذا المتطيـر عن الرجـوع لئلا يقع فى مـهواة سـوء الظن بالله تعـالى، وأمره أن يمـضى على رسله، ويغلب السلامـة فى الأمور، ويحسـن ظنه بمولاه - جل وعلا، وهذا

نص صريح، أو كالنص فى تغلب السلامة فى الأمور المستقبلة، فأين هذا من قول سيدنا: والأمور المستقبلة لا يتصور معها غلبة، ومما يزيد كلامنا هذا قوة وبيانا، ما ثبت عنه - ﷺ - أنه كان إذا سمع فألا حسنا، ظهر السرور فى وجهه واستبشر. قال علماؤنا - رضى الله عنهم - لأن ذلك من باب حسن الظن بالله تعالى، وبذلك فسروه، وعليه حملوه، ففيه أيضا تغليب وقوع ما سمعه - ﷺ - على نحو ما سمعه، وهذا كله من باب حسن الظن بالله تعالى. وقوله - رضى الله عنه - وإذا كانت الأعذار موكولة إلى أمانة المكلف، فلم تبعثرون عنها إلى آخر الطرة.

قلت: هذا التبعثر الذى أوجبت نصيحة سيدنا التحذير منه، والنهى عنه - وكأنه عنده من جملة ذنوبنا الموقعة فى الخطأ والخطل، وأنواع المعاييب والزلل، فيجب عنده أن نقلع عنها فى الوقت، نتوب قبل أن تحل بنا فضيحة، أو تنزل بنا قارعة، فإن الإصرار على الذنوب، موجب لحرمان المثوبة، وتعجيل العقوبة، ونسأل الله - تعالى - العافية، كما نسأله - جل وعلا - بحرمة هذا الشيخ العالم، الولى الصالح، الوجيه عند الله تعالى، المقرب منه، أبى الفضل عياض - رحمه الله تعالى ونفعنا ببركته - أن لا يجعلنا ممن يقلع عن هذا الذنب، ولا يرجع عن هذا التبعثر، وأن يميتنى مُصِرًّا عليه، حتى نلقاه، فإنه العالم بالنيات، والخبير بالطويات، يعلم ما احتوت عليه سريرة كل واحد منا، وأنتم - سيدى وبركتى - إذا نظرت بعين الإنصاف، الذى هو من شيمة السادة والأشراف، لم تجد فى اعتذارنا عن الشيخ - رضى الله تعالى عنه - عيبا ولا كذبا، ولا فحشا ندلسه به ولا قلة أدب، ولو قدرنا وفرضا - أن هذه القضية اتفقت لكم، ووقع منا هذا الاعتذار، والتبعثر عنكم وفى جانبكم، فلا نشك - أنا ولا غيرى ولا نرتاب،

أن نفسكم تطيب بذلك غاية الطيب، وتبتهج به غاية الابتهاج، وتشكرنى عليه، وتدعو لى بكل خير، لأنه اعتذار حسن، لائق بمقام السادات وأهل الفضل مثلكم، وإن كان هذا معكم - بارك الله تعالى لنا فى عمركم، مع وجودكم وقيام ذاتكم، يحسب أنكم ممن يخاف ويرجى، مرجو الثواب الجسيم، والأجر العظيم - عند الله تعالى، فما الظن بمن ألصق خده بالتراب، وانقطعت عنه الأسباب، وكان مقربا وجيها عند رب الأرباب. وبعد: فتأمل هذا الاعتذار والتبعثر، والنظر فيه وتكراره على الألسن عند ناظره ومتأمله، فيكون غرضه - قل تكراره أو كثر، لأنه من الأعمال، فيا فرحاه ويا بشراه، من يعرض اعتذاره هذا، وتبعثره فى كل أسبوع مرتين على سيد هو عند الله تعالى بهذه المثابة، أتراه يخيب أمله، أو ينقطع رجاؤه، أو يضمحل عمله؟ وقد جاء فى الأثر، إن من الحسنات ما هو مقبول ومردود إلا الصلاة على رسول الله - ﷺ، فإنه مقبول غير مردود.

قال علماؤنا - رضى الله عنهم - وإدخال السرور على قلب المؤمن، وما يفرحه ويشرح صدره، مثل الصلاة على رسول الله - صلى الله عليه سلم فى القبول وعدم الرد. فإذا تقرر هذا وتعين صدقه بان، وظهر الحق الذى لا شك فيه واستبان، فحسن من سيدنا أن يقول: ضرب فى حديد بارد، والدين النصيحة، نعوذ بالله من الفضيحة؟ فليت شعرى أى مناسبة بين الكلامين؟ وأى اقتراب بين البابين؟

الحاشية الثالثة: رتبها على قولنا، وأما البيت الذى أنشده الواعظ فى مجلس اللخمى - رحمه الله تعالى وهو قوله: إن كان سفك دمى - البيت، فقد وقع فى محله، وأسكت القوم حسن نظمه، وبديع ألفاظه، ويبقى الكلام في قائله، فلا شك أن قائله إلى قولنا أبدا إلا هكذا، انتهى.

قال - رضى الله عنه - فى حاشية فى هذا المحل ما نصه: قلت: كيف يكون حب من عاوض على نظرة واحدة من محبوبه بإراقة دمه المعصوم فى مرضاته، أنزل من حب أولئك، حتى يكون مدخولا معلولا، مع تصريحه برخص العوض وتفاهته، ونفاسة المعرض، وإن كان أقل درجات الوصال بالعطف على المحب، والرقة عليه؟ لا أدرى ما هذا؟ بل قد يقال مقام هذا الواعظ - وهو أبو الطيب أقوى، ولهذا قال المازرى: واستحسن اللخمى هذه النادرة من جهة طريق التصوف، لا من جهة طريق الفقه - يشير إلى أن المحبين، وأصحاب الأحوال - كهذا الفاضل، لا ينكر فى حقه عدم المبالاة بالمهج والأنفس فى رضى محبوبه، ونيل مطلوبه - والله تعالى أعلم. انتهى.

قلت فى الجواب عنها ما نصه: نحن وسيدنا وفاق على وجود المعاوضة الصادرة فى البيت من قائله، ووجود تلك المعاوضة المتفق عليها نحن وأنتم، هى عين الدخول والشوب والعلة، لأن من حجة المحبوب أن يقول: لو كان حبك صادقا - ولا دخل فيه، ما بذلت سفك دمك على نظرة فى وجوهنا، ولفوضتم لنا أن نحكم فيكم بما شئنا من سفك دم أو غيره على قاعدة كل محبوب أن الحكم له، فلما عوضتم لأنفسكم، واحتطتم لها، صار تنعمكم وتلذذكم بنظرة فى وجوهنا، كأنه مشترط فى أصل عقد معاوضتكم، والمحب إذا احتاط هذا الاحتياط خرج بذلك عن قاعدة المحبين، وصار حبه كما قلنا مدخولا، مشوبا معلولا، وما أنكره سيدنا من قولنا: حبه مدخول مشوب معلول، ثم قال: لا أدرى ما هذا - على جهة الإنكار؟ جوابه: أن الأستاذ الإمام الأوحد، أبا القاسم القشيرى - رحمه الله تالى - ادعى الإجماع على ما قلناه، وصحح قولنا، نص عليه فى التحبير فلينظر هناك. قال فى التحبير

ما نصه: وأجمعوا أن كل محبة تكون على ابتغاء بذل عوض تكون معلولة، حتى تكون صافية من كل طمع. انتهى.

قال ابن عطاء الله، فى حكمه - رضى الله عنه: ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضا، أو يطلب منه غرضا.

وقال سيدى محمد بن عباد - رحمه الله تعالى: أما من رجا العوض، وطلب الغرض من محبوبه، فليس هو من مقام المحبة فى شىء.

وقال أبو عبد الله القرشى: حقيقة المحبة: أن تهب كلك لمن أحببت، حتى لا يبقى لك منه شىء.

وقول سيدنا فى آخر هذه الحاشية: ولا ينكر فى حق هذا الفاضل، عدم المبالاة بالمهج والأنفس فى رضى محبوبه، ونيل مطلوبه.

قلت: لا يتصور رضى المحب للمحبوب، إلا مع التفويض التام، المطلق العام للمحبوب، حتى يحكم بما يشاء، مع الإلقاء باليد إليه، وعدم الاختيار معه، وسلب الحول والقوة وعدة التدبير معه، أما حيث يحتاط لنفسه، ويختار لها فى معارضته ما تبتهج به نفسه، وينشرح به صدره، فليس هو من المحبين، فضلا أن يكون حبه مدخولا معلولا، بشهادة العالمين الوليين الصالحين، أبى العباس بن عطاء الله، وأبى عبد الله بن عباد. فقول سيدنا: فى رضى محبوبه، ونيل مطلوبه، كلام جرى على لسانه من غير تدبر ولا تأمل، فرضى المحبوب الذى ذكر، هو فى الحقيقة راجع لرضى نفسه، لا لرضى محبوبه. انتهى.

الحاشية الرابعة، رتبها على قولنا. فإطلاق المحب على هذا الواعظ،

محمــول على المجاز إن كان هو قائل البيــت، والحب الصادق الخالص، حب رشيد فى قوله:

وتالله لو أن الأسنة أشـــرعت　　　وقامت حروب دونه ما تركناه

قال رضى الله تعــالى عنه ما نصــه: قلت: دعوى المجــار لا سبــيل لها هنا، ولا مجاز، لأن المجاز ما تجوز به عــن موصوف، ولا يجوز فى كلامه، ولقائل أن يقول إن كلام ابن رشيد خرج مخرج المبالغة والتكنية، فالمعتبر فيما كان من هذا القــبيل، مــعناه لا لفظه فيصــير المجــاز فى جهتــه أظهر - والله أعلم. انتهت.

قلت فى الجواب عنها ما نصه، قد تقدم لنا أن من شرط المحب الصادق فى حبه، أن يكون مفوضا لمحبوبه، وأن لا يختار معه، وأن يترك مراده وهواه لمراد محبــوبه، فإذا كان كذلك، كــان إطلاق الحب عليه حقيــقة، وإن انتفت هذه الشروط، واختار لنفسه ما يليق بــها من المعاوضة المذكورة وغيرها، واتبع حظ نفســه وهواه، كان إطلاق الحب عليه مــجازا - وهذا سيــدى، فى غاية الظهور والبيان، فــأين قولكم: دعوى المجاز لا سبيل لهــا هنا؟ وقول سيدنا: ولقائل أن يقول: إن كلام ابن رشيد خرج مخرج المبالغة والتكنية.

قلت: فى الجــواب عن ذلك: هما من خــواص الشعــراء، وكثــيرا مــا يستعملونهما فى كلامهم، وليس ذلك من شأن المحبين، ولا هو فى طبعهم، ولا هو من أخلاقهم، وهم منزهون عن المغــالاة والكذب فى حبهم، ودعهم صالحين كــانوا أو طالحين، فلا يحملون فى دعــواهم الحب إلا على الصدق، سيما هذا السيد الذى هو: ابن رشيــد الذى أشرتم إليه، فكلامه أبدا محمول على الصــدق فى كل حــال دون يمــين، فكيف ينــسب له مــا لا يليق يه من

المغـالاة والكذب فى حبـه - مع كونه أقـسم بالله العظيم، وحلف يمينـا قال فـيهـا: وتالله لو أن الأسنة أشرعت - البيت، فـلا سبـيل لدعوى المغـالاة والكذب لهذا السيد، إذ لا يليق ذلك به.

وأما الشعـراء، فذلك من شأنهم وشنشنتهـم ومن أخلاقهم، ويرون أن أحلى الكلام عندهم، وأرقه وأعذبه، أكذبه، فيستميلون بذلك القلوب الخشنة الكثـيفـة حـتى تحن وترق، ويسـتـمطرون بذلك المنح والـعطايا فى الأيدى الممسكة، المجبـولة على البخل، حتى تبذل العطـاء الجزيل، وهذا الباب باب واسع، رحب المجـال، وبحـر لا ساحل له، والحـكايات فى هذا المعنى، لا تنحصر ولا تحصى، ولا تتناهى قضاياهم وأخبـارهم فيها ولا تستقصى، وقد أخبرنا مولانا، فى كـتابه العزيز فى مغالاة الشعراء وعـدم صدقهم فى قولهم وكلامهم، فقال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾ [الشعـراء]؟ فالمغالاة والتكنيـة التى ذكر سيدنا، هى من خواص هؤلاء القوم. انتهى.

الحاشيـة الخامسة، رتبـها على قولنا، فخرج مـن هذا، أن المعترض لم يشم من بيت الواعظ رائحـة حظ نفس قائله، وطلب راحـتها وبـلوغ أملها، ونيل شهوتها. انتهى.

قال - رضى الله عنه فيها: ما نصه:

قلت: قوله رائحـة حظ نفس قائله إلى آخره، لا يخـفى على من جبله الله - تعالى - على توقـير المشايخ وتنزيههم، وتعظيم أقـدارهم، ما فى هذه العبارة من خشونة وسماجة الأدب، مع الفاضل أبى الطيب، فليحسن العبارة ويتلطف فى الإشارة، وقد طولتم فى غيـر محل الطول، وهو مظنة التمشدق

والتنيهق بما لم تمس إليه حاجة، ولا سيما مع عدم الذوق، ومكابدة الشوق، وعدم تقدم المثول بين يدى شيخ ما هو فى الطريقة فتاح، فما أرى خوضى وخوض أمثالى فى هذا المقام الشريف، العزيز الوجود، الصعب المنال، إلا محض تطفل وتعالج ما تيسر فى المقدور، وتشبع بما لا يملك. أستغفر الله، أستغفر الله. انتهت؟

قلت فى الجواب عنها، ما نصه: هذه اللفظة، التى شنعها سيدنا، وعظم أمرها، ونسبنا فيها إلى الخشونة والسماجة، وسوء الأدب، هى عند المحققين لفظة مشتركة على وجهين، وجه منها محرم بإجماع لا يليق أن يتصف به المشايخ والوعاظ، وأهل الفضل من أهل العلم والخير، ووجه آخر، قد يجوز ذلك فى حقهم، وليس فى حقهم بمحرم، وغايته الإخلال ببعض الكلمات، فالوجه الأول المحرم كثيرا ما يتعاطاه عوام الناس فيما بينهم، فيصفون من توفرت فيه أسباب الكبر والعجب، أو بعضها من علم أو مال أو جاه أو جمال، أو شدة أو شجاعة أو فصاحة، أو صوت حسن، أو ما أشبه ذلك، فيقولون فلان يرى لنفسه حظا، ويعنون بذلك تكبره عليهم، وعلى أقرانه وأبناء جنسه، وهذا الوجه، نحن وسيدنا - متفقون على قباحته وسماجته وخشونته - كما قال، ولم أقصد أنا لهذا الوجه، ولم أعنه، ولم يخطر لى قط ببال، ولا فى كلامنا ما يدل عليه، والذى قصدته وعنيته، وانصب كلامنا وتوجه إليه، ما يتعاطاه أئمة الخير والصوفية كثيرا، وأصحاب الأحوال، وقد ملئوا بذلك دواينهم وكتبهم، فالمنقطعون منهم إلى الله تعالى الزاهدون فى الدنيا، لا يشاهدون فى تصرفهم غير الله تعالى، ولا يؤثرون على أنفسهم سواه، فإذا وقعت من بعضهم غفلة وميل لحظ نفس من اتباع

شهـوتهـا، ونيل غرض من أغـراضهـا، أدبهم على ذلك، فبـعضـهـم يؤدبه بالضرب الوجيع ظهرا وبطنا، وبعضهم بالحـجب عن مقامه الذى هو فيه، أو مقام توجـه إليه، وبعضهم بحرمـان الطاعة أو بالفتور عنهـا، وبعضهم بقطع شـراك نعله فى ذهابه إلى المسـجد، وكلهم يطلعـهم الله تعـالى - على تلك العقوبة، ويفهـمه ذلك الأدب - رحمة منه - سبحـانه ولطفا، كل على قدر مقامه، وما يستوجبه من الله - تعالى.

ذكر الأستـاذ القشيرى - رضى الله تعـالى عنه - أن رجلا من الزهاد، كان يشـتهى الخبـز والعدس زمـانا طويلا، فكان يمنع نفسـه، ويجاهدها فى ذلك، فاتفق أن وجـده يوما فأكله، فلمـا فرغ من أكله، ونالت نفسـه حظها وشهوتهـا منه، أبصر فى حانوت بقال قوارير من زجاج - وفـيها خل، فظن أنها خـمر، فـقال: منكر وجب على تغـييره، فـفتح الحـانوت، وأخذ تلك القـوارير يصبـها دنا دنا فى الأرض، فـجاء صـاحب الحانوت، وحـمله إلى الحاكم، فضربه مائتى خشبة، وطرحه فى السجن، فلما قدم الأستاذ - وأظنه أبا عثمان - فسأل عنه، فـقيل له: هو فى السجن، فلما دخل عليه، قال له: ما هذا؟ قـال له: شبعـة خبز وعـدس، وجلد مائتى خـشبة، وسـجن أربعة أشهر، فقال له: نجوت مـجانا، حيث كان ذلك على سطح بدنك، ولم يكن فى باطنك، فشفـعه إلى الحاكم وأطلقه، وحسبك تأييـدا لهذا الباب الواسع، الذى لا تحصى قـضاياه، ولا تنضبط آدابه، ولا تتـبع مزاياه، قضيـة آدم عليه السلام الله تعالـى، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩)﴾ [طه]. فلما نسى - عليه السلام - هذا الوعد لما سبق فى سابق علمه، مد يده إلى رغبته، ومـال إلى حظ نفسه وشهوته، فلقى ما لقى

(١) الذى فى المطبوع: «ونالت نفسها».

من مفارقة الجنان، والوقوع فى الهموم والأحزان، وفى القضية طول واعتبار، ولمتأمليها زيادة إيمان واستبصار.

قال بعض العلماء: والله ما أهبط الله سبحانه آدم من الجنة لينقصه، وإنما أهبطه منها ليكمله، فإذا تقرر هذا، وعلم منه صدقنا فيما أشرنا إليه من حظ النفس، وتفسيره على مذهب القوم - رضى الله تعالى عنهم ونفعنا ببركاتهم - ظهرت براءتنا فيما نسبنا إليه سيدنا من الخشونة والسماجة وسوء الأدب، وأمره بتبديل العبارة، والتلطف فى الإشارة، ولكن كل واحد يجازيه الله تعالى على قدر نيته، و﴿ ... كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ... ﴿٨٤﴾ ﴾ [الإسراء]. وقول سيدنا: وقد طولتم فى غير محل الطول، جوابه أن هذا الكلام، وهذه العبارات، وهذه الأفهام - وهى فضل الله العظيم، وفضله - سبحانه - يؤتيه من يشاء كيف يشاء، والناس أبدا مختلفون ومتفارقون فى هذا المعنى، ويستحيل أن يكونوا كلهم على طبع واحد، أو خلق واحدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ... ﴿٢﴾ ﴾ [الإنسان]، وقد جعل الله سبحانه هذا العلم، أمانة عند صاحبه، وعرض سبحانه تلك ﴿ ... الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] كل ظلوم وجهول منا، فإذا علم صاحب هذه الأمانة، أنه لا يحصل إفهامه بإلقائه العلم، أو كتبه أو بيانه، إلا بمقدار يعلمه، وكتم منه شيئا كان كاتما للعلم، خائنا له، مسئولا عنه، حيث لم يبلغ ما لا يشك أنه يصل إلى أفهام السامعين، أو الناظرين المتأملين، فكيف يعيب سيدنا علينا ما نحن مسئولون عنه، وهو موكول إلى نظرنا وأمانتنا، فإن قصرنا عن يقيننا، كنا غاشين خائنين.

ولقائل أن يقول: الحواشى أبدا هى محل الاختصار، والإشارة فيها بأدنى شىء يكتفى به، مع أنكم تخاطبون فيها من تظنون أنه يفهم إشارتكم، فلم طولتم ذلك الطول؟ وقول سيدنا أيضا: وهى مظنة التمشدق والتفيهق - إلى آخر تلك الجملة، جوابه أن التعليل بالمظان عند علمائنا - رضى الله عنهم، كاف فى الأحكام، سواء وجدت تلك العلة أو لم توجد، فمن أين علمتم أن قصدنا إنما توجه للتمشدق والتفهيق، فالقلوب لا سبيل لكم إلى تشريحها وانشقاقها - حتى تعلموا ما فيها، فلم يبق إلا سوء ظن، و﴿... إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ⑫﴾ [الحجرات]، وأنتم قد أنزلكم الله - سبحانه - منزلة شريفة، وأحلكم محلة منيفة، فكونوا حيث أنزلكم، ولا تفتحوا هذا الباب المغلق الذى سده الله - سبحانه - ورسوله على المسلمين، فتكونوا أنتم فاتحين له، فتنحطوا عن منزلتكم بفتحه، وتصيروا منهيين بعد أن كنتم ناهين.

الحاشية السادسة فيها طول، ورتبها سيدنا على كلام المعترض - وكلام المعترض فيه أيضا طول، وإذا اختصرنا، أخللنا ببعض معانيه، فنذكر محل الحاجة من الحاشية، وجوابنا عليه - إن شاء الله تعالى.

قال رضى الله تعالى عنه: وحكى بعض الأكابر - إجماع الأمة على أفضلية ليلة القدر على يوم الجمعة، وعلى يوم عرفة فما حيلتك أيضا فى رد هذا الإجماع وإنكاره؟ انتهى.

قلت: هذا خطاب من سيدنا المعترض - كما قدمنا، وجوابه أن المعترض يقول بلسان حاله: نحن نقول فى إجماعكم بالموجب، وندعى أن الليل غير النهار، فلا يتم احتجاجكم علينا، ولا يتوجه إلا لما كان من جنس المجمع عليه، كليلة عرفة، وليلة الجمعة، وليلة النصف من شعبان، وليلة

الفطر والأضحى، ونحن لا نقول فأفضلية هذه الليالى على ليلة القدر، والذى قلناه وكتبناه بخطنا، إجماع الأمة على أفضلية يوم الجمعة، فلا يحسن احتجاجكم علينا، إلا لو نقلتم الإجماع على أفضلية يوم عرفة، أو يوم عاشوراء، أو غيرهما من الأيام - مما هو من جنس ما ادعينا نحن فيه الإجماع، وهى الأيام لا الليالى، وبتمام الكلام على هذه الحاشية، تم[1] الكلام على جميعها، ونسأل الله العظيم بجاه سيد الخلق، أن يسامحنا بما قلنا، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، ولا يلطم به وجوهنا وبطوننا وظهورنا، وأن يختم لجميعنا بالحسنى، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا محمد، خاتم النبيين، وسلم كثيرا، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

قال جامع هذا عبيد الله أحمد بن محمد المقرى - وفقه الله: هذا آخر ما وجدت من كلام هذا الرجل، وأوردته بطوله - لأنه لا يخلو من فائدة، على أن فى بعض كلامه للنظر مجالا، وخصوصا ما نذكره فى شأن آدم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فإن النفوس تنفر منه، وقد حذر العلماء من مثله، والأعمال بالنيات.

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله من نظم القاضى عياض - رحمه الله، فنقول من نظمه - رحمه الله، قوله:

إذا ما نشرت بساط انبساط
فعنه - فديتك - فاطو المزاح
فإن المزاح قد حكاه
أولو العلم قبل عن العلم زاحا

(١) فى المطبوع: «ثُم».

ومنه قوله:

لك الخير عندى لهذا البعاد فعقل يهيم وقلب يراع
يعز علينا تنائى الديار وذاك سلامك لى والوداع
لكم أمل كان لى فى اللقاء وأمنية قد طواها الزماع
فلم أجن منها سوى حسرة فوجد جميع وأنس شاع
لئن حمل القلب ما لا يطاق فما كلف الجفن لا يستطاع

ومن ذلك قوله - رحمه الله ورضى عنه - وقد أنشدناه غير واحد من أشياخنا، بسندهم إلى الإمام الرحال، أبى عبد الله بن جابر الوادى آشى، عن القاضى أبى العباس بن الغماز، عن الخطيب أبى الربيع بن سالم، قال: أنشدنى القاضى أبو عبد الله بن زرقون، قال. أنشدنا القاضى أبو الفضل عياض، فى خامات زرع يتخللها (شقائق) نعمان هبت عليه الريح:

انظر إلى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

قال: وحسبك بهذين البيتين، دليلا على سبقه وشاهدى عدل لمفضله بسبقه - أقول لنا: وقد أطبق الناس على استحسان هذين البيتين، مع ما فيهما من التضمين، على رأى - حسبما نبه على ذلك بعض المتأخرين ممن شرح الشفاء وقال الحافظ أبو الربيع ابن سالم: أنشدنا أبو عبد الله بن زرقون، قال: أنشدنى القاضى أبو الفضل عياض لنفسه:

يا من تحمل عنى غير مكترث
لكنه للضنى والسقم أوصى بى

تركتنى مستهام القلب ذا حرق

أخا هوى وتباريح وأوصاب

أراقب النجم فى جنح الدجى سهرا

كأننى راصد للنجم أو صابى

وما وجدت لذيذ النوم بعدكم

إلا جنى حنظل فى الطعم أو صاب

قال أبو زيد بن القصير فى كتابه الذى ألفه فى مناقب من أدركه من أعيان عصره، وقد ذكر أبا الفضل عياض، فقال فيه بعد كلام: ومن شعره عند صدره من قرطبة بعد تقييده ما قيد بها من الروايات، وطلب بها من العلم ما طلب، وقد تنفس مودعه بزفرات الفراق، وأراق كل واحد منهم من الدمع للبين ما أراق:

أقول وقد جد ارتحالى لطيتى

وزفت على وشك الفراق ركائبى[(1)]

وقد غمصت من كثرة الدمع مقلتى

وصارت هواء من فؤادى ترائبى

ولم تبق إلا وقفة يستحثها

وداعى للأحباب لا للحبائب

(1) قلائد العقيان، ص ٦٨٩.

رعى الله جيرانا بقرطبة العلى
وسقى رباها بالعهاد السواكب[1]
وحيى زمانا بينهم قد ألفته
طليق المحيى، مستلان الجوانب
أإخواننا بالله فيها تذكروا
معاهد جار، أو مودة صاحب
غدوت بهم من برهم واحتفائهم
كأنى فى أهلى وبين أقاربى

وقال الشيخ محمد بن البرذعى - رحمه الله: كان شيخنا الإمام العلامة، أبو عبد الله بن رشيد شديد البحث عن تمام هذه الأبيات السبعة المذكورة، وقال لنا: لم أقف عليها، ولا وجدت من ذكرها، أو كلاما هو من هذا المعنى، فاتفق أن وجدها صاحبنا أبو محمد البسيلى، فى الكتاب المعروف بقلائد العقبان. انتهى.

ومن نظمه - رحمه الله - يعتذر لمرض عرض له:

عسى تعرف العلياء ذنبى إلى الدهر
فأبدى له جهد اعترافى أو عذرى[2]

(١) فى الأصل: «الصوائب» والمثبت رواية قلائد العقيان.
(٢) قلائد العقيان، ص ٦٨٧.

فقد حال ما بينى وبين أحبة
ألفتهم ألف الخمائل للقطر
هم أودعوا قلبى تباريح لوعة
فنأيهم أذكى وأنكى من الجمر
على أن لى سلوى بأن فراقهم
وإن طال لم يمزج بصد ولا هجر
سأفرغ للريح الشمال لعلنى
أُحَمِّلُهَا شوقا تَلَجْلَجُ فى صدرى
تبلغ منها للوزير تحية
معطرة الأرجاء دائمة النشر
تظلله من حر كل هجيرة
وتؤنسه فى وحشة البلد القفر
وتنبئه أنى أكن صبابة
بحسن بدا فى غير شعر ولا شعر
أهز بها عطفى من غير نشوة
وأرخى بها ذيلا من التيه والكبر
وأنى أشدو فى النوادى[1] بذكره
كما شدت الورقاء فى الغض القطر

(١) فى المطبوع: «النواحى» والمثبت رواية قلائد العقيان.

أجل وعساها أن تبلغ مهجتى

فأبلى بها عذرى وأقضى بها نذرى

ومن نظمه - رحمه الله:

لإتيان مال مال كل مؤمل ولكنها سبل صعاب المسالك

كذلك جنات النعيم ودونها صراط وكم ناج هناك وهالك

ومن نظمه - رحمه الله:

أترانى وما عسى أن ترانى آخذا مرة أمان الزمان

سلبتنى صروفه كل علق من شباب وصاحب وأمان

كلما حزت يغيتى بفلان علقت كفه بذاك الفلان

عمرك الله هل سمعت بحى لم ترعهم روائح الحدثان

كل يوم طليعة لفراق ومن العجب أن ترى للتدانى

فاسأل الشعريين عنها وحسبى شاهدا ما تقوله الشعريان

ودع الفرقدين إن جهلاها فستدهى بأمرها الفرقدان

وله أيضا:

يا خليلى فاحملا بعض قولى للتى غادرت فؤادى عليلا

بلغا عنى الثريا سلاما واذكرانى لها وقولا جميلا

خلت أنى ملكتها وإذا بى فى يديها تخيلا مستحيلا

لست أنسى وكيف لى أن أنسى حين ألقى الدجى عليها السدولا

هل إلى نظرة سبيل فإنى لست أبغى إلا إليها سبيلا

وله يخاطب الفتح صاحب القلائد عن كتابين كتبهما له معاتبا:

أبا النصر إن شدوا رحالك للنوى
فإن جميل الصبر عنك بها شدوا[1]
وإن يتركوا قلبى مقيما ويرحلوا
فماذا ترى فى مهجة معكم تغدو؟

وقال أيضا:

ليهن العلى إن زفت الشمس للبدر
وحلى جيد الملك بالأنجم الزهر
وقرت عيون المجد أية قرة
بيوم تعالى أن يكون من الدهر
لدن ساعة أفضت إلى كل بغسة
كما اعتلق الغواص بالدرة البكر
قران كلا السعديين فيه تلاقيا
كما يلتقى فى المقلة الشفر بالشفر
لتجر المنى فى حلبتيه مغذة
فحق لها فى مثل ذلك أن تجرى

(١) قلائد العقيان، ص ٦٨٥.

بسعد أمير المؤمنين تطلعت
أساريره تندى بمائية البشر
نهناه نجل الملك حظا ممتعا
بعز إلى عز، وقدر إلى قدر
تمن بها الأيام ثم ترودها
على بدئها ما فيه من كرم البر

وقال أيضا - رحمه الله:

سمح الزمان بليلة غراء جامعة السرور
أجنت أكف جناتها قطف الأمانى والحبور
ما فض طين ختامها فيما تقدم من دهور
دارت على فلك السعو د بمثل أشباه البدور
من كل ما ملأت مها بته العيون أو الصدور
ما إن ترى إلا أميـ ـرا حازا إرثا عن أمير
تخذوا القلوب أسرة وثووا بها عوض السرير
فعليهم وقف العلا ء وإن تدوولت الأمور

وقال أبو الحسن بن شاكر الشقورى: أنشدنى القاضى عياض لنفسه:

ولله قوم كلما جئت زائرا
وجدت نفوسا كلها ملئت حلما

إذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلة

ويزداد بعض القوم من بعضهم علما

أولئك مثل الطيب، كل له شذى

وأجمه أذكى أريجا شما[1]

قلت: كذا ذكر غير واحد من الشقورى، وفى ذلك - عندى نظر، يتبين بما تراه الآن، وذلك أن ابن خاتمة، ذكر فى مزية ألْمرية فى ترجمة الإمام أبى القاسم بن ورد ما نصه: وحكى أبو عمر بن عات قال: رأيت أن أبا بكر بن العربى، حدث أبا القاسم بن ورد، أن أبا حامد كان ينشد فى آخر مجلسه:

إذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلة

ويزداد بعض القوم من بعضهم علما

فوصله أبو القاسم بن ورد ببيتين، أحدهما قبله - وهما:

ولله قوم كلما جئت زائرا وجدت شخوصا كلما ملئت فهما

أولئك مثل الطيب كل له شذى وأجمعه أذكى أريجا إذا شما

قال ابن العربى: أريجا لغة أهل خراسان. قال ابن خاتمة: وقد أنهيت هذه الأبيات إلى خمسة، أنشدنى صاحبنا، الفقيه العدل، المشارك أبو عبد الله

(١) فى المطبوع: «ومجموعه يزداد ريجا إذا شما» ولا يستقيم به الوزن والمعنى، والبيت من الطويل، وأثبتنا البيت الآتى بعد وهو تكرار لهذا البيت وذلك لصحة وزنه ومعناه. وجاء بهامش المطبوع: «ريجا: ن: أريجا: ل وهو الصواب إذ لا يعم «ريج» عندنا بمعنى «أريج».

محمد بن محمد بن الحاج الأنصارى، قال: أنشدنى الشيخ المدرس، الحاج الرحال: أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد الرباطى التازى، نزيل فاس، أنشدنى تقى الدين بن دقيق العيد:

ولله قوم كلما جئت طارقا
رأيت شخوصا كلها ملئت فهما
إذا اجتمعوا جاءوا بكل طريفة
ويزداد بعض القوم من بعضهم علما
تساقوا كئوس العلم روضة التقى
فكلكم من ذلك الرى لا يظما
نفوس على لفظ الجدال قد انطوت
فتبصرها حربا وتعلقا سلما
أولئك مثل الطيب كل له شذى
ومجموعة أذكى أريجا إذا شما

قال الفقيه أبو عبد الله بن الحاج، قال الشيخ أبو عبد الله بن عبد الواحد الرباطى:

وكان شيخنا تقى الدين المذكور، إذا أنشد هذه الأبيات يقول: كانت عسلا بمثلهم، فتعلقمت بمثلنا. انتهى كلام ابن خاتمة - والله أعلم بالصواب.

رجع، قال عياض يخاطب الحافظ أبا طاهر، أحمد بن محمد السلفى الأصبهانى.

أبا طاهر خذها على البعد والنوى
تحية مرتاح، لذكرك شيق
طوى لك ما بين الضلوع مودة
يشف صفاء كالزلال المروق
يناجيك بالذكرى فيشفى غليله
ويخلص بالود الصحيح ويلتقى
أقمت عمود الدين والأثر الذى
سناه هدى للحق كل موفق
وطار بك الصيت البعيد فلرخت
مآثره ما بين غروب ومشرق
فما من ثرى إلا بذكراك عاطر
ولا أفق إلا بنورك مشرق
بقيت لإسناد الحديث تقيمه
وللعلم تملى منه كل محقق
ولا زلت تحوى كل فضل وسؤدد
وتسمو بمعراج الجلال وترتقى

فأجابه الشيخ أبو طاهر بقوله:

أتانى نظم الألمعى المونق
يميس اختيالا بين غرب ومشرق

فطالعتـه مسـتبشـرا فـوجـدته نتيجة فهم فـى البلاغـة مشـرق
وأنشـدته الأصـحـاب بعـد تأمل فلم يبق فيهـم غيـر مطر ومطرق
فـمطريهـم مما رأى من فـصاحـة بلا كلفـة فـيـهـا وغـيـر تفـيـهق
ومطرقـهم من حـيـرة وتـعـجب ومن دهـش قـد نالـه وتقـلق
وحـق له هـذا المحـل عـلا على جـرول فى نظمـه والفـرزدق
وأضحى فريدا فى الحديث وحفظه وقـصـر عنه كل فـحل ومـفلق
وفى الفقه من بعـد الذى هو علمه فقـد فاق أهل الأفـق قول محـقق
وفـاز بمجـد ليس يـرجـو بلوغـه مـدى الدهر إِلاّ كُلّ أحمق أخـرق
توارثـه من والد مـتـقـدم عن الجـد قرم فى الرئاسـة معـرق
أبا الفضل خذ بالـفضل فيما بعـثته وطالعـه ثم انبـذه عنـك وشـقق
فـشـعـرك در والذى قـد نظمـتـه فـمـخـشلب قـولا بغـيـر تملق
وإلا كـمـثل الأتحـمى متـانة وما صغتـه فى الوهن مثل الخدرنق
وثق بـوداد لا يزال مـجـددا يزيد عـلى مـر الزمـان ويـرتقى
ودرس لما قـد حـزته وحـويتـه وغـرس لغصن من ولائك مـورق
فنحن وإن لم يقـض يا قـاض بيننا لقـاء فـبالأرواح ندنو ونلـتـقى
وجل اعـتـمـاد المرء فى الود إنما عليـه لما فى ضـمنه مـن توثق

فـلا زلت تبـقى فى النعـيم وظله
على وفق مـا تهوى وعـز محـقق
وتلقى الذى عـادى عـلاك معـذبا
بطـرد وتشـريـد وطول تفـرق
فما إن يعادى عصبة الدين والهدى
سـوى مارق، أو ملحـد متـزندق

ومما اشتـهر من كلامـه - رحمه الله - على طريق التـورية يصف غداة باردة:

كـأن كـانون أهدى مـن مـلابسـه
لشـهـر تمـوز أنواعـا مـن الحلل
أو الغـزالة من طول المدى خـرفت
فـمـا تفـرق بين الجـدى والحـمل

ومن نظمه ما افتتح به رسالة هى مذكورة فى نثره من هذا الكتاب:

قل للأماجـد - والحديث شـجون   مـا ضر إن شـاب الوقـار مجـون
ولئن غـدوت من العلـوم بموضع   تومى إلـيـه أصـابع وعـيـون
فلـدى للآداب نفـس صـبـة   فـيـهـا إلى مـلح الظروف ركـون
كنا افـتـرقـنا عند دعـوى خطة   سـاءت بها فـيـما فـهـمت ظنون
فـأتيـت بالبـرهان فـيـهـا نـيـرا   وعـدت عـواد بعـد ذا وشـئـون
وبعـثت حـينئـذ ليـعـلم أننى   عـين الزمـان وسـره المـكنون

وله - رحمه الله فى الطريق الغزلى والنسيب:

يا راحلين وبالفؤاد تحملوا أترى لكم قبل الممات قفول
أما الفؤاد فعندكم أنباؤه ولواعج تتشابه وغليل
أترى لكم علم بمنتزح الكرى عن جفن صب ليله موصول
أودى بعزمه صبره ولبابه طرف أحم ومبسم مصقول
ما ضركم وأضنكم بتحية يحيى بها عند الوداع قتيل
إن البخيل بلحظة أو لفظة أو عطفة أو وقفة لبخيل

وقال رحمه الله:

الله يعلم أنى منذ لم أركم كطائر خانه ريش الجناحين
فلو قدرت ركبت البحر نحوكم فإن بعدكم عنى جنا حينى

وقال رحمه الله:

أذات الخل كم ذا تنتضيها على سيوف عينيك انتضاء
بمطلك لى مواد أقتضيها من التوريد واللعس اقتضاء
فقضى وعد مطلك وانجزيه خيار الناس أحسنهم قضاء

تذكرت هنا ما كتب به الشيخ الشهاب ابن حجر العسقلانى، إلى الإمام بدر الدين بن أبى بكر الدمامينى، يهنئه بدخول العام، ونص ما - للدمامينى(١) فى حاشية شرح البخارى، وذكرت هنا أن الحافظ العلامة، شهاب الدين بن حجر - نفع الله بعلومه، كتب إلى بالإسكندرية فى أول عام

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «للدينامى».

ثمان وتسعين وسبعمائة رقعة، يهنئ فيها بالعام المذكور، ونصها ومن خطه نقلت - لله الحمد - فى سائر الأحوال:

أيا بدرا سما فضلا وأرضى رعيته، وفى الظلما أضاء
ويا قاضى القضاة ومرتضاها وأحسنها لما يقضى أداء
تهن العام أقبل فى سرور وأبدى للهناء بكم هناء
روى وأشار مقتبسا إليكم خيار الناس أحسنهم قضاء

ثم قال الدمامينى: فانظر إلى هذا الاقتباس الذى أشرق ضياؤه، واستمد من هذه المشكاة الشريفة فبهر سناه وسناؤه، لله دره من شهاب، ثاقب الفهم، وفاضل ضرب فى أغراض المعانى بأوفر سهم. انتهى.

رجع، ومن مشهور نظم القاضى عياض - رضى الله عنه - قصيدته الفريدة التى نظمها على سور القرآن فى مدح سيد ولد عدنان - ﷺ، ولها بركة عظيمة، وحق لها ذلك، ورأيت لبعض المحققين نسبتها إلى غيره، ويدل عليه عدم ذكر جماعة ممن جمع نظمه لها فالله أعلم بصحة نسبتها إليه، ثم تحققت أنها ليست له، وإنما هى للشمس بن جابر - حسبما ذكره فى شرح البديعية فى الكلام على التورية، ولنذكرها وإن لم تكن له تماما للفائدة، وهى:

فى كل فاتحة للقول معتبره
حق الثناء على المبعوث بالبقره[1]

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣٢٤.

في آل عـمران قـدمـا شاع مـبـعثـه
رجالـهم والنساء استوضـحوا خـبره

من[1] مـد للناس من نعـماه مـائدة
عمت فليـست على الأنعام مقتـصره

أعراف نعـماه[2] ما حل الرجـاء بها
إلا وأنفـال ذاك[3] الجـود مـبتـدره

به تـوسل إذ نـادى بتـــوبتـــه
في البـحر يونس والظلمـاء معـتكره

هود ويـوسف كم خــوف به مـنا
ولن يروع صـوت الـرعـد من ذكـره

مـضمـون دعـوة إبراهيم كـان وفي
بيت الإله وفي الحـجـر التـمس أثره

ذوأمّــة كـــدوي النحل ذكـــرهم
في كل قطر فـسـبـحـان الذي فطره

بكهف رحـمـــاه قـد لاذ الورى وبه
بشرى ابن مـريم في الإنجيل مشتـهره

(١) في المطبوع: «قد» والمثبت رواية نفح الطيب.
(٢) في المطبوع: «رحماه» والمثبت رواية نفح الطيب.
(٣) في المطبوع: «ذلك» ولا يستقيم به الوزن والبيت من البسيط.

سـمـاه طه، وحض الأنـبـيـاء على

حج المكـان الذى من أجله عـــمـــره

قـد أفلح الناس بالنور الذى شهـدوا

من نور فــرقـــانه لما جـــلا غـــرره

أكـابر الشعـراء اللسن قـد خرسـوا

كـالنمل إذ ســمـــعت آذانهم ســوره

وحـــســـبــه قـصص للعنكبـوت أتى

إذ حـاك نسـجـا بباب الـغار ستـره

فى الروم قـد شـاع قدمـا أمـره وبه

لقـــمــــان وفق لـلدر الذى نثــــره

كم سجدة فى طلى الأحزاب قد سجدت

ســيـــوفـــه فـــأراهم ربه عـــبـــره

سـباهـم فاطر السـبع العلـى كرمـا

لمن بيـاسـين بين الرسل قـد شـهـره

فى الحرب قد صنفت الأملاك تنصره

فـصـاد جمع الأعـادى هازمـا زمـره

لغـافـر الذنب فـى تفـضـيله سـور

قد فـصلت لمعان غـير مـختـصره[1]

(١) كذا فى النفح ج٧ ص ٣٢٤ والذى فى المطبوع: «منحصره».

شــوراه أن تهجــر الدنيــا فزخــرفهــا
مثل الدخــان فيعــشى عين من نظره
عــزت شريعــته البـيــضاء حــين أتى
أحــقــاف بدر وجند الله قد حــضــره
فــجاء بــعد القــتــال الفــتح مــتصــلا
وأصبــحت حجـرات الدين منتــصره
بقـــــاف والذاريات الله أقـــــسم فى
أن الذى قـــاله حق كـــمـــا ذكـــره
فى الطور أبصــر مــوسى نجم ســؤدده
والأفق قــد شق إجــلالا له قــمــره
أســرى، فنال من الــرحــمن واقــعــة
فى القــرب ثبت فــيــهــا ربه بصــره
أراه أشــيــاء لا يقـــوى الحــديد لهــا
وفى مــجــادلة الــكفــار قــد نصــره
فى الحشر يوم امتحان الخلق يقبل فى
صــف من الــرســل كــل تابــع أثــره
كف يســـــبح لله الحــــصـــاة بــهـــا
فــاقــبلْ إذا جــاءك الحق الذى قــدره

قـد أبصـرت عنده الدنـيـا تغـابنهـا
نالت طلاقـا ولم يصـرف لهـا نظره
تحـريـمـه الحب للدنيـــا ورغــبـــتـه
عن زهرة الملـك حق عندمـــا ذكــره
فى نون قـد حققـت الأمداح فيـه بما
أثنـى به الله إذ أبدى لنـا ســيــــره
بجـــاهه ســال نوح فى ســـفـيـنـتـه
حسن النجـاة وموج البحر قـد غمره
وقـالت الجن جـاء الحـق فـاتبـعـوا
مــزمـــلا تـابعـــا للحـق لن يذره
مـدثرا شـافـعـا يـوم القـيـامـة هل
أتى نـبىء لـه هذا العـلى ذخـــــره
فى المرسـلات من الكـتب انجلى نبـأ
عن بعـثه سـائر الأخـبار قـد سطره
ألطافه النازعـات الضيم حـسبك فى
يوم به عـــبس العـــاصى لما ذعـــره
إذ كورت شـمس ذاك اليوم وانفطرت
ســمـــاؤه ودعت ويل به الفـــجـره

وللسماء انشقاق والبروج خلت
من طارق الشهب والأملاك منتشره
فسبح اسم الذى فى الخلق شفعه
وهل أتاك حديث الحوض إذ نهره
كالفجر فى البلد المحروس غرته
والشمس من نوره الوضاح مستتره[1]
والليل مثل الضحى إذ لاح فيه ألم
نشرح لك القول فى أخباره العطره
ولو دعا التين والزيتون لابتدرا
إليه فى الحين واقرأ تستبن خبره
فى ليلة القدر كم قد حار من شرف
فى الفخر لم يكن الإنسان قد قدره
كم زلزلت بالجياد العاديات له
أرض بقارعة التخويف منتشره
له تكاثر آيات قد اشتهرت
فى كل عصر، فويل للذى كفره
ألم تر الشمس تصديقا له حبست
على قريش، وجاء الروح إذ أمره

(١) هذا المثبت فى نفح الطيب وهو أولى، والذى فى المطبوع: «مختصره».

أرأيت أن إلـه العـــرش كـــرمــــه
بكوثر مـــرسل فى حـوضـــه نهـره
والكافـــرون إذ جـــاء الورى طردوا
عن حـوضـه فلقـد تبت يدا الكفـره
إخـلاص أمـداحـه شغـلى فكم فلق
للصبح أسمـعت فيه الناس مفـتخره
أزكى صـلاتى على الهـادى وعتـرته
وصـحبـه وخصـوصـا منهم عشـره
صـديقهم عـمـر الفـاروق أحزمـهم
عـثـمـان ثم على، مـهلك الكفـره
سـعـد سـعـيـد زبـيـر طلحـة وأبو
عـبيـدة وابن عوف عـاشـر العشـره
وحـــمـــزة ثم عـبـــاس وآلهـــمـــا
وجـعـفـر وعـقـــيل سـادة خـيـره
أولئك الـناس آل المصطفـى وكـــفى
وصـحـبه المـقتـدون السـادة البـرره
وفى خـديجـــة والزهراء ومـا ولدت
أزكى مـديحى سـأهدى دائمـا درره

عن كـل أزواجـــه ارضى وأوثـر من

أضحت براءتـها فى الذكر مـشتـهره

أقسمت لا زلت أهديهم شذى مدحى

كـالروض ينشـر من أكـمـامـه زهره

قلت: لم أر من سلك هذا السبيـل، وانتمى فيه إلى خير قـبيل - بعد شدة الفحص والبحث، ولعـمرى أن ما أبداه هذا الناظم من ذلك، لا يجارى ولا يبارى، وإن فى مثـله لحكمة واعتبارا، قـواف فى محلها متـمكنة سهلة، وألفاظ تسلب العـقول من أول وهلة، ومـعانى رائقة، وتوريات فـائقة، وزاد ذلك كله مدح خيـر العالمين عليه الصلاة والسلام، حسن طلاوة، وانـسجاما ورقة وحلاوة، فالله ينفع بالقصد فى ذلك والنية، ويبلغ الجميع غاية الأمنية، غير أنى وقفت على قـصيدة فى مقيداتى لا بأس بها، شـاركت هذه القصيدة فى طرف من نسبـها، وهى من نظم الشـيخ القلقشندى - رحـمه الله، وهأنا أثبـتهـا تكميـلا للغرض، وأداء لحـق المصطفى - ﷺ - الواجب المفتـرض، ونصها[1]:

عــوذت حـبى برب الـناس والفلق

المصطفى المجـتبى الممـدوح بالخُلُقِ

إخلاص وجـدى له والعذر يقلقنى

تبت يـد لعـــذول جـــاء بالـقلق

يهـدى لأمـتـه والنصـر يعـضـده

والكافـــرون وعـذالى عـلى نسق

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣٢٨.

هذا له كـــوثر، والدين شـــرعـتـــه

والمصطـفى من قـريش ديـن وتقى

ألـم تر الماء قـــد ســـحت أصـابعـــه

ويل لكل جـــهـول بالنبـى وشـقى

فى كل عـــصـر ترى آياته كـــثـرت

أضـــحى تكاثرهـا فى ســـائر الأفق

وعند قـارعـــة فـهـو الشـفـــيع لنا

والعـاديات من الأجـــفـان فى طلق

وزلزلت من غـــرامى كل جـــارحـة

وكـل بيـنـة تحـكى لـكـم عـلقـى

يا عـالى القـدر رفـقا مـسنى ضـرر

فـالله قـــد خلق الإنســـان من علق

ولو دعـا الـتـين والزيتـــون جـاء له

والشـرح عنه طويل غـيـر مـختلق

يبـدو كشـمس الضـحى والليل طرته

كـالشمس فى بلـد والفجـر فى أفق

أنى بغـــاشـيـــــة لولاك يا أمـلى

أنت الشفـيع إلى الأعلى وخيـر تقى

كم طارق منك بـالإحـسـان يطرقنى

مـثل البـروج أتى فى أحـسن الطرق

وفى انشـقـاق فـؤادى عـبـرة وبه

ويل من الصـد والأجـفـان فى أرق

والانـفـطـار بـه مما يـكـابـده

والشمس قد كورت فى القلب واحرقى

والصب فـى عـبـس والنازعـات به

وقـد أتى نـبـأ من دمـعـه الغـدق

والمرسـلات دمـا الإنسـان جـارية

إلى القـيامـة من دمعى ومن حـدقى

وبـالمدثـر إنـى مـاسك أبـدا

وبالمـزمل إن ألجـمت بـالعـرق

فـالجن والإنس فى خـيـر ببـعـثـتـه

هذا ونـوح به أنجى مـن الغـرق

وفى المعـارج مـعراج الرسـول عـلا

حـقـا وفى حـاقـة كنز لمخـتـرق

والله مـرسله فـى نون بشـره

والملك خـيـره حـتـى رأى ولقى

وجــاء بالحل والتــحــريــم أمـتــه

وبالـطلاق مــن الدنـيـــا لمـنطـلق

وفى التــغـــابـن تجــار به ربحــوا

إذ المنـافق فى خـــســـر وفى نـفق

يا صــاحب الجـمعـة الغـراء يا أملى

فى الصف عند امتحـانى أختشى زلقى

وأنت فى الحشــر عونى فى مـجادلتى

عـسى تـزيل حـديد النار مـن عنقى

وعند واقـــعـــة إن كــــان لى رمق

فاشـفع إلى ربك الرحمن فـى رمقى

لم أرع يا قــمــرى للنجم فى ســهــر

إلا لعلـك من نار الجـــحـــيـم تقى

قلبى الكـليم غـدا للطور مـــرتقـبـا

ودر دمـــعى بدا بالـذاريات ســقى

وقـاف يعجـز عن حمل الغـرام بكم

وليس فى حـجرات الوجـد من رفق

إنا فـتــحنا قـتـالا للعـــذول فـفى

أحـقـاف جـاثيـة فى الغـيظ والحنق

دخـان زخرف مـا العـذال فـيه هبـا
شـوراى تتـركه فـى أنف محتـرق
وهم بمن فـصلت فى مـدحـه سـور
نبـينـا المصطفى الهـادى إلى الطرق
فـغـافـر الذنب كـم أعطى به زمـرا
وكم ســقى كــفــه صـاد بمندفق
وليس غـيرك فى الصـافـات أقصـده
وأنت ياسـين لـى من سـائر الفـرق
يا فـاطر، قد سـبا الأحـزاب طلعتـه
كم سجدة لك فى الأسـحار والغسق
لقـمــان يشـهـد أن الروم تعـرفـه
والعنكبـوت فقد سـدت على الغلق
هذا ولى قـصص فالنمل قـد كتـبت
هامت بهـا الشـعرا فى خـده اليـقق
تبـــارك الله مـن النور جـــمـله
قـــد أفـلح الحج لما زاره فــــوقى
يأيهــا الأنْبِيَــا[1] طه خـتـامكم
ويابن مـريم خـذ من مكسـه العـبق

(١) فى المطبوع: «يأيها الأنبياء» ولا يستقيم به الوزن، والبيت من الوسيط.

لاذوا بكهف له سبحان خالقه

حتى أتى إلا من بعد الخوف والفرق

فالركن والحجر حقا قد أضاء له

وذاك دعوة إبراهيم ذى الخلق

والله ربى برعب الرعد ينصره

مسير شهر بلا سيف ولا درق

فيوسف مع هود والخليل إذا

ويونس شربوا من كأسه الدهق

لتوبتى أرتجى الأنفال منه غدا

فإننى رجل أضحيت فى قلق

أعراف أنعام أنعام له اشتهرت

وكم لمائدة أسدى لمرتزق

كل النسا لم تلد مثل الرسول إذا

فينا وفى آل عمرن ولم تطق

أعطيت خاتمة من سورة البقره

لم يعطها أحد فيما مضى وبقى

فأنت فاتحة الأَنْبَاء وخاتمهم[1]

وكلهم قد أتوا بالعهود والملق

(١) الذى فى المطبوع: «فاتحة الأنباء» ولا يستقيم به الوزن، والبيت من البسيط.

والقلقشندى محب قال سيرته

في مدح خير الورى الممدوح بالخلق

فاقبل هدية عبد أنت مالكه

وانظر إليه فإن العبد فى قلق

صلى عليك إله العرش ما صدحت

ورقا على فنن والورق فى الورق

انتهت. ثم وقفت على قصيدة أخرى على هذا النمط، سقط من آخرها بيتان، وهى نظم فقيه، ولكن ذكرتها تبركا، ونصها:

بحمد إله العرش أستفتح القولا

وفى آية الكرسى أستمنح الطولا[1]

وفى آل عمران أتى ذكر أحمد

نساؤهم بالعقد قد أنعموا القولا

بأعراف رحماه بأنفال جوده

شرفنا وفضلنا وتبنا إلى المولى

له يونس نادى وهود ويوسف

وذاكره فى الرعد لا يسمع الهولا

ودعوة إبراهيم كان محمد

وفى الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣٣١.

له أمة كالنحل قد صح فضلهم

فسبحان من أسرى بأحمدنا ليلا

علا فضله والناس فى كهف نيله

ومريم فى الأخرى يكون لها بعلا

وطه، له فضل على الخلق كلهم

ولكن جميع الأنبياء علا فضلا

ولولاه ما حج المقام وكعبة

فأفلح من قد طاف فيها ومن حلا

ومن نوره الوهاج كل منور

وفرقانه قد أخمد الكفر والبُطْلا

ترى الشعرا كالنمل حول محمد

إذا قصص فى العنكبوت لهم تتلى

علا ديننا روما ولقمان عالم

بأن السيوف أسجدت كل من ضلا

والاحزاب يسبيهم بحكمة فاطر

وياسين قد صفت له الملأ الأعلى

وصاد جميع الكافرون بزمرة

لهم غافر فى الحرب قد فصلت فصلا

وشـوراه فى الـدنيـا بهـا كـل زلفـة

وقد زخـرف الكفار فى دينهم جـهلا

لقـد رأوا الـدخـان حـول بيـــوتهم

بجـاثية الأحـقاف قـلا قـتلوا قتـلا

مـــحـــمـــدنا لم يخـلق الله مـثله

وفى الحــجـــرات فـضله أبـدا يتلى

وقـد أنـزل الجـبـار قـــافـا بـذكـره

كـمـا تـذر الكفـار ريح بهـــا تبلى

بطور ســما والنجـم ما ضــوء أحمـد

كمـا قمر بل نور خـير الورى أجلى

له الله رحـــــمن وفى وقــــعت ترى

حـديدا به الكفـــار يجـدلهم جـدلا

وقـد سـمع الغـفـار دعـوة أحـمـد

بحـشـر ولكن بامـــتـحـان به تتلى

صـففنا بـجمع للأعـادى فـمنهم الْـ

ـمنافـق إن الكفـر فى درك ســفـلا

يرى غـبنـه فى الخـيـر منهـم مطلق

ولكن من يحـرم نعيـما فـقد ضـلا

لأحـــمـــد ملك لا يوازيه ســيـــد

ونون لقـــد قلنـا مـقـــالا به نجـــلا

بحـق لقـــد ســـالت أباطح مـكة

بفـضل له قد كـان نوح به استـعلى

صـحـيح بأن الجن جـاءت لأحــمـد

ومـــزمل كـــان الغـــمـــام له ظلا

لمدثر فــــضل القـــيـــامـــة واضح

أتاه وجـمع المرسلات حـوت سبـلا

وعم بـــجـــــدواه فـــــلا من مــنازع

فـحـيث تراه لا عـبوسـا ولا بخـلا

لقد كـورت شمس بهـا انفطر السـما

لويل أتى الكفـار وانشق واسـتـولى

ولكن بروج الجـــو تزهو بـأحـمـــد

وفى طارق الأفـلاك فـــضله الأعلى

وغـاشـيـــة كـالفـجـر حـلت ببلدة

بهـا حرم أمـن كشـمس جلت ليـلا

كـأن الضـحى وجـه النبى مـحـمـد

به شـرح الله الحنـيـفـيـة الفـــضلى

فـاقـــسم بالتـــين الذى عم نفـــعـه

وبالـقلم الأعلـى لقــــدر له أعـلى

ألم يكن الكفـار قـد ضل سـعـيـهم

وقـد زلزلوا بالعـاديـات كـمـا يتلى

وقـــارعـة جلت وألـهـاهم الهـــوى

ووالعـصـــر إن الويل يقـــربهم نزلا

ألم تـر أن الله فـــضـل أحـــمـــدا

لا من قريش حـيثـما سلكوا السـبلا

أرأيت بأن الكـوثر العـذب خـصـه

به جـمـيع الكـفـر لن يردوا أصـلا

لقـد نصـر الرحـمن ربى مـحـمـدا

فـأردى أبا لهب وم يـكتـسب نيـلا

فـــيـا أحـــد أنى بفـــضلك عـــائذ

إذا غـسق الديجـور ناديت يا مـولى

انتهى ما ألفيته، وقلت مكملا ما سقط منها[1]:

ويا مـــالـكا للناس عــــبـــدك لائذ

بعفوك فاغفر مـا جنى عمدا أو جهلا

ويارب عـــــــاملـنى بمـا أنت أهـله

من الجود والرحمى وإن لم أكن أهلا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣٣٢.

وصل على مسك الختام محمدا

أتم صلاة تملأ الحزن والسهلا

ولنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول: ومن نظم الإمام عياض ما أنشده الإمام ابن رشد، قال:

أنشدنى أبو عبد الله محمد بن مسعود بن الحسن التادلى الفقيه - للقاضى عياض - رحمه الله تعالى، وقالها حين ولى القضاء بمدينة داي ببلاد تدلا، سنة واحد وأربعين وخمسمائة:

أقمرية الأدواح بالله طارحى

أخا شجن بالنوح أو بغناء

فقد أرقتنى من هديلك رنة

تهيج من شوقى ومن برحائى

لعلك مثلى يا حمام فإننى

غريب بداى قد بليت بداء

فكم من فلاة بين داي وسبتة

وخرق بعيد الخافقين قواء

تصفق فيه للرياح خوافق

كما ضعضعتنى زفرة الصعداء

يذكرنى سح المياه بأرضها

دموعا أريقت يوم بنت ورائى

ويعـجـبنى فـى سـهلهـا وحـزونهـا

خـمـائل أشـجـار تـرف لرائى

لعل الذى كـان التـفـرق حكمـه

سـيـجـمع منـا الشـمل بعـد تناء

ومن ذلك قوله - رحمه الله:

يا طالب العلـم استـمع قـول امـرئ   مـحض النصـيحـة للمـريد الراغب

العلـم فى أصليـن لا يعـدوهـمـا   إلا المـضل عـن الطـريـق اللاحـب

علـم الكتـاب وعـلم الآثار الـتى   قـد أسندت عن تـابع عن صـاحب

جـاء بهـا الإثبـات منهم واعـتنت   بمسـانـد ومـراسـل وغـرائب

وقال رحمه الله مما كتبه لبعض أصدقائه:

إذا الأخـلاء لم تحـمل عـيـوبهم

مـيـثـاقـهـم فى البـعـد أوحـالا

فلـى بأغـمـات خـل لا أذم له

من الحـيـاة وإن شطت مـدى حـالا

ومنه ما أنشده بلدينا الإمام البركة العلامة، سيدى أبو عبد الله بن صعد الأنصارى التلمسانى، قال: أنشدنى وأفـادنى، شيخنا الإمام الحافظ، أبو عبد الله التنسى للقاضى عياض - رحمه الله:

إلـيـك بـؤت بـذنـبـى   فـاغـفـر خطـاياى ربى

وامـنن عـلـى بـلـطـف   تجـبـر به صـدع قـلبى

فقد ركبت ذنوبا		سودت منهن كتبى
وطال تقصير سعيى		فى كل فرض وندب
وقد أسأت فأحسن		فلم تزل محسنا بى
وجئت أطلب توبا		إذ ضاق بالذنب رحبى
فاقبل بفضلك توبى		واغفر برحماك ذنبى
وعافنى واعف عنى		فأنت يارب حسبى

انتهى.

ومن نظمه رحمه الله:

أعوذ بربى من شر ما		يخاف من الإنس والجنة
وأسأله رحمة تقتضى		عوارف توصل بالجنة
فما للخلائق من ناره		سوى فضل رحماه من جنة

ولنجعل هذه القطعة آخر ما أوردناه من نظمه، تفاؤلا بها وبالتالى قبلها، وتطارحا على باب الله - أن يسلك بنا طرق رحمته وسبلها، ويقينا من كل محذور يتقى، ويحشرنا فى زمرة من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فسما قدره وارتقى، بجاه سيدنا محمد - ﷺ تسليما.

* * *

٥ - روضة النسرين فى تآليفه العديمة النظير والقرين

أقول: هذه ترجمة نذكر فيها ما كمل من مصنفاته، وما لم يكمل أو تركه فى المبيضة من مؤلفاته، فنقول: وعلى الله أعتمد، ومن بحر عونه أستمد، لا إله غيره، ولا خير إلا خيره - أما ما كمل من تآليفه - رضوان الله عليه - فمنه كتاب الشفا، الذى بلغ فيه الغاية القصوى وكان فيه لضرب الإحسان مرتشفا، وبذ فيه المؤلفين وأربى، وحاز قصب السبق به دونهم وطار صيته شرقا وغربا، وقد لهجت به الخاصة والعامة عجما وعربا، ونال به مؤلفه وغيره من الرحمن قربا، سمعت غير ما مرة شيخنا الإمام، علم الأعلام، المفتى عمنا سيدى سعيد بن أحمد المقرى - رحمه الله - يقول: ما ألف فى الملة المحمدية، مثل كتاب الشفا - للقاضى عياض، وحرز الأمانى للشيخ أبى القاسم الشاطبى، وفضائل هذا الكتاب لا تستوفى، وسنذكر منها شيئا فى الباب الثامن - إن شاء الله تعالى، ويرحم الله القائل:

كلهم حاول الدواء ولكن ... ما أتى بالشفاء إلا عياض

ولا يمترى من سمع كلامه العذب السهل المنور، فى وصف النبى - ﷺ، أو وصف إعجاز القرآن، - أن تلك نفحات ربانية، ومنحة صمدانية، خص الله بها هذا الإمام وحلاه بدرها النظيم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④﴾ [الجمعة]. حكى غير واحد، منهم: الشيخ الرحال ابن جابر الوادى آشى أن القاضى عياض - رحمه الله - أوقف عليه شيخه القاضى أبا بكر بن العربى - رضوان الله عليه - فقال له: - بارك الله فيك يا أبا الفضل، واستحسنه جدا!

قال ابن جابر: ولما قرأته على شيخى الإمام العالم، قاضى الجماعة، الخطيب أبى العباس أحمد بن أحمد بن الغماز الخزجى - بمنزله من تونس، فى مجالس آخرها فى رمضان عام أحد وتسعين وستمائة، وكان يحضره جماعة من العلماء الجلة، منهم شيخنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائى القرطبى، وموضعه عن يسار الشيخ، فلما بلغت يوما من الكتاب قول القاضى أبى الفضل:

يا دار خير المرسلين ومن به هدى الأنام وخص بالآيات

إلى آخرها، وأراها من نظمه، وكان بفراغها ختم المجلس، ودعا الشيخ على عادته، - أدار وجهه لشيخنا أبى محمد بن هارون، وأنشده ارتجالا:

إن الشفاء شفاء للنفوس غدت هدى الأنام وخص بالآيات

ثم قال له: أجز أبا محمد، فلم يجبه إذ ذاك، وحفظت هذه عن ناظمها، فلما كان فى الغد بعده، وقرأت مجلسا منه وختم الشيخ بالدعاء، ناولنى أبو محمد بن هارون أبياتا نسجها على روى البيت الأول ومعناه، وقرأتها - والقوم يسمعون، وهى:

جازى الله العياضى الإمام بما
يجزى به كل من يحيى به الأثر

أنوار ذكر الرسول المصطفى ائتلقت
تجلو الدياجى منها الأنجم الزهر

شمس الضحى أشرقت من نوره وذكا
من عرف روض الربى للناشق الزهر

سلك به اردان جيـد العلم وانتظمت
فيـه لجامعـة الياقـوت والدرر
أروت ظمـاء الورى عن الـغـمـام به
بواكف للـحيـا سـحت به الدرر
جـديدة لـيس يبلى الذكـر مـنه على
مـر الجـديدين تستـجلى له صـور
غض يلـذ على الأسـمـاع يمـلؤها
منـه السـرور إذا تـتلى له سـور
لله در ذوى الألبـاب قـد عـمـروا الـ
أعـمـار منه بما قـد بورك العـمـر
يرددون على الأسـمـاع مـا قـرأوا
منه فـيـا نعم مـا الدنيـا به عـمـروا
الشعـر شاخ وكل الفكر حـين مضى
عصر الشباب، وشاب الرأس والشعر
تمضى الحـيـاة وأبناء الـزمـان به
فى غفلـة بانصرام العمـر ما شـعروا
أنـا لمنْ بـشـر جـلت ذنـوبهـم
والله يصـفح عـما قـد جنى البـشـر

الفـــضل والكرم الجم الـعـمـــيم له

جـاءت به لعـبـيـــد أذنبـوا البـشـر

قال ابن جابر - رحـمه الله - وقيدت من خط الشـيخ الصالح الزاهد، أبى الحسين عبيد الله بن أحمـد بن عبد المجيد الأزدى الرندى، وتوفى ببجاية - رحمه الله تعالى - فى أحـواز التسعين وستمائة على كتـاب الشفاء، وكان نسخة بيده وسط شعبان عام ثمانية وخمسين وستمائة، ما مثاله: وقد قرت - والحمـد لله - عينه بنسخـه وكماله، وثلج فـؤاده لتعلق رجـائه أن يجعله الله تعالى فى صحيفة أعماله، فنسأل الله تعالى أن يجازى مؤلفه خيرا، ويعظم له بما ألفه وانتخبه أجرا، فلقد جرى - رضى الله عنه - فى ميدان أشرف العلوم جرى السـابق، ونظم فى جيـد الزمان سلك المعـارف ودرر الحقـائق، وشفى بكتاب الشفا قلب كل مؤمن صادق، كـما كبت به قلب كل عدو منافق، فإذا طالعه المؤمن اسـتنارت فى باطنه حقـائق أنواره، وإذا جال فى روض معـارفه تنفست له نفحات نسيمه الأريج وتبسـمت له مباسم أزهاره، فهو - كما قال القائل تعظيما لمحله الكريم، وتشريفا لحميد آثاره:

كـتـاب الشـفـاء شـفـاء القلوب قـد ائتلفت شـفـاء شـمس برهانه

إذا طالـع المرء مـــضـــمـــونه رســا فى الهــدى أصل إيمـــانه

وجـــال بروض التـقـى ناشـقـا روائـــح أزهـــار أفــنـــانـــه

ونال عـلومـــا ترقـــيـــه فى ثريـا السـناء وكـــيـــوانـه

فـلله در أبـى الفـــــضـل إذ ســرى فـى الورى نيل إحســانه

فـــعـــزر قـــدر نبى الهـــدى وخـيـــر الأنام بتــبـيـــانه

وجــازاه ربـى خـيـــر الجــزا وجـــاد عليـــه بـغـــفـــرانه

ومنا الـصـــلاة على المجـــتـــبى وأصـــــحـــابـه ثم أعـــوانه

مـــدى الدهر لا ينقــضى دائبـــا ولا يـثـنـى طـول أزمـــــانـه

وذكر حفيده ابن الفقيــه أبو الحسين، أن الأبيات من نظمه - رحمه الله تعالى ونفعنا به - وفيه أيضا يقول الفقيه المحدث الخطيب، أبو عبد الله محمد ابن عمر بن رشيد:

جــزى الإله عيـاضا بالشـفاء غـدا رياض فـــردوســـه نزلا بـجنتـــه

دواؤه قـد شـفى الأدواء فـهـو له ذخـر يـقـيـه يقـــينا لبس جنتـه

قال ابن جابر: وكنت قلت فى زمن نسخى له - أبيـاتا أثبتها هنا - نفع الله بالقصد فيها - وهى:

شـفـــاء عـيـــاض للنفـوس الأبـيـة

دواء سنـاه وهو أسـمـى وسـيـلة

به أشـرق الإصـبـاح واتضح الهـدى

بـرغم أنـوف للـطـغـــاة وذلـة

له الله من حـبـر إمـــام وعـــالم

غـدا فـيـه يهـدى الخلق لـكن لسنة

ولما رأى الأهـواء زاد امـــتـــدادها

وجـاء بنـوها بالضـلال وشـبـهـة

نضا صـارم الإسلام فى نحر كـيدهم
وقـال لهم: بالله حـسبى وعـدتى
أبان الذى يعـتـاص صـدقا بحـجـة
أنت تجتلى كـالشمس وسط الظهـيرة
له فى بـلاد الله نور مـشـعـشع
ومطـلع ذاك أرجـاء سـبـتـه
ولاعـجـب للغـرب قـد خص ربنا
به الفـضل بل فى الشرق مطلع فـتنة
جـزى الله ربى روحـه الـناعم الذى
توارى غـريبا خـيـر أعضـاء مـيتـة
وآتاه ممـا قـد أعـد لمـن قـضى
شهـيدا من الخيـرات فى صدق جنة

قال ابن جابر: وفيه أيضا يقول صاحبنا الفقيه، الحاج المكرم المحدث أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الصنهاجى بن الحداد.

شـفـاء عـيـاض للـقلوب دواؤها
من الجهل فاجتهد أن تكون به مغرى
لقـد حـاز بالأجر الجـزيل حـقـيقـة
لدى حلبة السباق فى موقف الأخرى

فطالع معانيه تفز بمعارف
ترقى معانيها وتكسبه أجرا
وتدينه من نهج الحقيقة واصلا
إلى العالم الأعلى وتوجده ذكرا
فيرقى عن الأغيار فى كل وجهة
ويظفر بالحسنى ويا حبذا ذخرا
وينعم بالأحباب فى حضرة البقا
ويشهد سر الجمع جهرا إذا أسرى

قال: وحدثنى أنه وجد على ظهر كتاب الشفا أبياتا بخط أحمد بن إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن عبد الله بن فرقد القرشى، قال: وأظنها من نظمه - رحمه الله ونفع به:

شفى نفس كل امرئ مسلم / بنور البيان كتاب الشفا
وأبهجها ما تضمنه / من القول فى شرف المصطفى
وفى شرف الأنبياء وفى / طهارتهم من ضروب الجفا
جزى الله واضعه جنة / وقرب زلفى بما ألفا
أفاد علوما جهولا بها / وزحزح عنه عمى ونفى
علوم تزيد القلوب هدى / فأفلح قلب زكا وصفا
رياض من العلم صنفه / عياض فأكرم بما صنفا
إذا ما تأمل أزهاره / أريب سقيم الفؤاد اشتفى

وللشيخ الأجل المحدث الكاتب، أبى العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم الماردى، قال ابن جابر وأنشدنيها:

قرأت كتاب الشفا ... وما هوى إلا الشفا
فبورك فيه لما ... قد حوى من حلى المصطفى
كتاب علا قدره ... على كل ما صنفا
عياض بتصنيفه ... على كلا صنفه شرفا
كفانى عكوفى على ... فوائد فيه كفى

انتهى ما أوردته من كلام جابر الوادى آشى - رحمه الله - ولا بأس أن نورد ما حفظناه زيادة على ما عنده، فنقول: قد وجدت بخط الشيخ البركة، الحافظ، الإمام أبى عبد الله، سيدى محمد بن صعد التلمسانى - رحمه الله - ما نصه: وتواليف القاضى أبى الفضل - رحمه الله - دالة على ما له عند الله من الكرامة والعناية، فمن تأمل انتفاع المسلمين بها شرقا وغربا، علم أن ذلك من أسرار القرب والولاية، وكتابه الشفا هو وسطى القلادة، وبرنامج السعادة، وفيه يقول بعض الفضلاء - رحمهم الله:

أنس الوحيد وديمة الأنداء ... ونسيم عرف الروضة الغناء
وضياء مأمول الرضى ومديده ... وقلادة الخنفاء والسعداء
وأمان كل مخوف وعياذه ... من طارق الأهوال والأهواء
كتب الشفا وفت لنا بحقوق من ... قد خصصته مكارم الآباء
ونصوص أنباء النبى محمد ... كرمت مصححة عن العلماء

بشـر عـيـاضـا أن غـرس بنانه   وزكـائه فـيـه من الشـفـعـاء
تتلذذ الأرواح فـى تخليـصـهـا   كـتلذذ العـافـين بالنعـمـاء
أنى بذكـر مـحـمـد وصـفـاته   لهج وفـيـه همـتى ورجـائى
ووسـيلتى يـوم الشـفـاعـة حـبـه   وإذا مرضـت ففى الشـفاء شفـائى
أهلا بـه وبآله وبصـحـبـه   غـر الوجـوه وزيـن كل مـلاء

انتهى.

وقال بعضهم:

جـزى الإله عـيـاضـا   عنـا بخـيـر الجـزاء
ألفـى الأنام مـراضـا   فـعـمـهم بـالشـفـاء

ورأيت على نسخة من الشفاء، بخط الإمام العلامة الأوحد، سيدى يحيى السراج، تلميذ الشيخ العارف، سيدى محمد بن عباد - رحمهما الله، ونفع العبد ببركتهما - ما نصه: أنشدنى الشريف القاضى المشاور، أبو محمد عبد النور بن محمد بن أحمد الحسنى العمرانى، قرأت عليه هذه القصيدة، التى من نظمه، ومن خطه نقلت:

أبو الفـضل حاز الفضل والـبر إذ أتى
بعـقد مـن الياقـوت قـد حف بالدر
وحلى بهـا جيـد الزمان فـأصبـحت
على نحـره تزداد حـسنـا مع الدهر

تمد ضـياء الشـمس من حـسن نورها

ويقـوى بهـا نور الـكواكب والبـدر

كمـا قد محت من قـبل عند ظهورها

بأنوارهـا ليل الضـلالة والكـفـر

شفى بالشفـا ما فى النفوس فلم يدع

مـقـالا لذى قـول بسـر ولا جـهـر

فـقـسم أقـسامـا وبوبهـا مـعـا

وفـصلهـا مـقـبـولـة العلم والذكـر

وقـدم آيات الـكتـاب التـى بهـا

سمـا قدره فـوق السمـاكين والنـسر

وثنى بأخـبـار صـحـاح شـهـيـرة

كمـا أتبعت شمس السمـوات بالبدر

وكم غـاص فى بحر المـعارف ينتـقى

من الدر ما قد غاب فـى غامض البحر

فـجـود منهـا كل قـاص وشـارد

ومـا ضمه الحفـاظ فى سـالف الدهر

وكل غـريب النقـل صـحت طريقـه

وكل طريـف المتن عـار عن الـنكر

وألحق منهـا كل نـوع بجنسـه

ورتبـهـا مـثل الجـمـان على النحـر

وأجـرى عـلومـا بـين ذاك جليـلة

فيا حسن مـا يروى، ويا حسن ما يجرى

فلو كـان ممن يـدعيـه كـرامـة

لصـدقـه النقـاد فى ذلـك الدهر

فـقـد جـاء شبـهـا للخـوارق عـادة

ولا سيـما إذ جـاء فى ذلك العـصر

فلولا الذى قـد كـان من أمـر ربه

من الفتح والإمـداد بالعضـد والنصر

لما انفـجـرت من بين كـفيـه حكمـه

تهـون مـرقى كـل ممتنع وعـر

فـجاء بما أعـيـا القرون التى مـضت

وما عجزت عنه عنه جـحاجحة الغر

هنيـئـا له فـيـمـا أعـد لـه ومـا

ينال من الإحسـان والفـضل والبـر

انتهى. وهو نظم فقيه، والأعمال بالنيات. ولبعضهم:

وقـالـوا: نراك تحب الشـفـا   وتخـبـر فـيـه عن المصـطفى

فقلت: لأنى عليل الفؤاد وكل عليل يحب الشفا

ولبعضهم فيه - وهو نظم فقيه أيضا:

أيا شاكيا دهره إن جفا عليك بنسخ كتاب الشفا
ففيه الجلاء لكل الهموم وفيه لداء الذنوب الشفا
وتبلغ لا شك ما ترتجى إذا أنت رسمه أحرفا
فذلك حتم جرى عادة لتضمينه شرف المصطفى
عليه صلاة من الله ما بدا النجم فى أفقه أو خفا

وفيه أيضا:

رجوت الشفاء لما شفنى وأثقل ظهرى بنسخ الشفاء
ولم ألتمس فى سواه شفائى ولم أرج إلا لديه شفائى
ففيه الشفاء لمن لم يجد لداء ألم به من شفاء

وقال ابن آقبرس:

أيا قاض عياض حويت فضلا
وأحكاما بأحكام الدواء
أزلت من العقائد داء شك
فصحت باليقين من الشفاء
حكت السحائب لونه ومذاقه
لكنه بالمسك فيه ذكاء

والسحب إذ ناديتها وأمرتها

سبعا همت ومياهها سحاء

وكففتها إذ قد تواتر وكفها

سفت وقد زالت بها الضراء

الريق منك حلا الأجاج بمجة

فيه وصحت مقلة رمداء

والعين من بعد الفصال رددتها

نظر البصير وأبصر النظراء

نطقت لتخبرك الذراع بسمها

إذ سبحت بيمينك الحصباء

والجذع إذ فارقته مع حكمة

أضحى يئن وقد شجاه بكاء

ودعوت بالأشجار إذ ناديتها

فأتت إليك وما استتم نداء

عادت لمنبتها كأحسن ما أتت

أغصانها من حسنها خضراء

والشمس من بعد الغروب رددتها

فغدا لها بعد الذهاب بقاء

والبــــدر حــــين رآك شــق لوقــــتــه
فكأنــه منك اعـــــتــراه حـــيـــاء

بشــــفـــائه تشـــفـى الصـــدور وإنه
لرشـــاد قــارئــه الشــهـــاب النيـــر

هو للتـــآلف روح صـــورتهـــا وقل
هو تاج مـــفـرقـهـا البـــهى الأنور

أفنت مـــحـــاسنـه المدائح مـثـل مـا
لمفـــــيــــده نـفـــد الثناء الأعـطر

وله اليـــد البـيـضـــاء فى تأليــفـه
عند الجـمـــيع فـفـضلهـــا لا ينكر

هو مـورد الهـيم العطـاش هفت بهم
أشـواقـهم فـاعـتـاض منه المصـدر

فـيـه تـنال من الرضى مـا تبـــتـغى
وبكـونه فــــينا نـغـــاث ونمـطر

انظر إلـيــــه تميــمـــة مـن كل مـــا
يخـــشى من الخطب المهل ويـحـذر

لكأنـنى بك يا عـــيـــاض مـــهنأ
بالفــــور والملأ العـى مـــبـــشـــر

لكأننـى بك يا عــيـاض منـعـمــا
بجـوار أحــمــد يعـتـلى بك مظهـر

لكأننـى بك يا عـيــاض مـتــوجـا
تاج الكرامــة عند ربك مـــتــجــر

لكــأننى بك راويـا من حـــوضــــه
إذ لا صــــــدى ترويـه إلا الكــوثر

فـعلى مـــحــبـتــه طويت ضــمــائر
وضــــحت شــــواهدها بكتــب تؤثر

مــا أمــهن لشـرعــة الهــادى الرضى
صــدف يصـــان بهن منهـــا جــوهر

فـــجــزاك رب العـــالمين مـــحــبـــة
يهب الـنـعــيم ســــريرها والمنـبــر

وسقى أجـش هزيم مضجـعك الذى
مـــا زال بالرحى يـؤم ويعـــمـــر

انتهى.

ومن كتاب "البقية والدرك، فى كـلام ابن زمرك" - وقد رأيته بتلمسان عند الكاتب المغيلى، ونقلت منه، وهو كمـا قدمناه من تأليف بعض سلاطين الأندلس - ما نصـه: وقال - يعنى الرئيس الكاتب، العلامة أبـا عبد الله بن زمرك - يمدح كتـاب الشفاء، طلبة شيخه الخـطيب أبى عبد الله ابن مرزوق عندما شرع فى شرحه:

وحسر ركاب للصبا قد ونت به
نجائب سحب للتراب نزوعها

تسل سيوف البرق أيدى حداتها
فتنهل خوف من سطاها دموعها

تعرضن غربا يبتغين معرسا
فقلت لها مراكش وربوعها

لتسقى أجداثا بها وضرائحها
عياض إلى يوم المعاد ضجيعها

وأجدر من تبكى عليه يراعة
بصفحة طرس والمداد نجيعها

فكم من يد فى الدين قد سلفت له
يرضى رسول الله عنه صنيعها

ولا مثل تعريف الشفاء حقوقه
فقد بان فيه للعقول جميعها

بمرآة حسن قد جلتها يد النهى
فأوصافه يلتاح فيه بديعها

نجوم اهتداء والمداد يجنها
وأسرار غيب واليراع تذيعها

لقد حزت فضــلا يا أبا الفضل شاملا
سيجـزيك عن نصح البرايا شفيـعها

ولله من فــذ تــصــدى لشــرحــه
فلبـاه مـن غـر المعـانى مطيــعـهـا

فكم مـجـمل فـصلـت منه وحكمـة
إذا كـتم الأمـداح منهـا تشـيـعـهـا

مـحاسن والإحـسـان يبـدو خلالهـا
كـما افـتر عن زهر البطاح ربيـعهـا

إذا مـا أجلت العـين فيـهـا تخالهـا
نجـومـا بآفـاق الطـروس طلوعـهـا

مـعـانيـه كـالماء الزلال لذى صـدى
وألفــاظه در يروق نصـــيــعـهـــا

رياض سـقـاها الفكر صـوب ذكـائه
فـأخـصب للرواد مـنهـا مـريعـهـا

تفـجـــر من عـين اليـقــين زلالهـا
فلذ لأربـاب الخلوص شــروعـهـــا

ألا يابـن جـــار الله يـابن وليــــه
لأنت إذا عـــد الكرام رفـيــعـهـــا

إذا مـــا أصـــول المرء طابت أرومـــة

فـلا عجب أن أشـبهـتـها فـروعهـا

بقـــيت لأعـــلام الزمـــان تـنيلهـــا

هدى ولأحـداث الخطـوب تروعـهـا

انتهى.

وقال الشيخ الأديب ابن عبد المنان:

علمـاء الحـديث كـم خلصت فى   مـدح خـيـر الورى لهم أغـراض

بمعـــانـى الرســـول تجلى وتـتلى   عنـدها تـنعـش القـلوب المـراض

كلهـم عـــالج الســقـــام ولكن   مـــا أتى بالشـفـــاء إلا عـيـــاض

وقال الـفقيـه الأجل القاضى شـهاب الدين، أحـمد بن أبى المحـاسن يوسف الرعيونى الشافعى المصرى - رحمه الله:

هذا الشـفـاء من الســقـام حقـيـقـة

إن مس ضـــر أو توالـى بئـــوس

ســـر إذا مـا الراح ســـرت أنفـــسنا

دارت على الأرواح منهـــا كـئـوس

شـــرف به خص النبـى مـحـــمـــد

دون الورى فـــمـديحـــه تقـــديس

جـدعت أنوف المشـركـــين ونكست

بصـــفـــاته لـلملحـــدين رءوس

وعـــلا به مـن قـــدر آدم رتبـــة

حـسـدا عـليـهـا قـد هـوى إبليس

أهدى عـيـاض للنفـوس لنعـتـه

أنســـا تميل بـراحـــه وتميس

من كل معـنى قد حكى نفس الصـبا

يحـــويه لـفظ كـالمدام نفــيس

لو أسـمعت بلقـيس وصف كـتـابه

نزلت لـه عن عـرشـهـا بلقـيس

فـعلـيـه رحـمـة من ربه من دارس

حـيـيت به بـعـد الممـات دروس

ووقـفت على قصـيـدة الشيخ بدر الدين بن الحـسن على بن مـحمـد التميمى الهـمدانى - نزيل مصر فى مدح النبى ﷺ، وكتاب الشـفاء ومؤلفه القاضى عياض - رحمه الله - وهى:

صـحت بحـسـن صـفـاتك الأنبـاء

فلنا بهـا - وهى الشـفـاء - شـفـاء

ضـاءت بك الـدنيـا فكـل بلادها

أضـحى بـهـا بعـد الظلام ضـيـاء

فـالغـرب من إشـراق نورك مـشـرق

والشـرق فـيـه من سنـاك سناء

لاح الصباح وما اعترته ظلمة
وبدا الضياء وما لديه خفاء
لا تختفى شمس الضحى إلا إذا
نظرت إليها مقلة عمياء
يا صاحب الخلق العظيم تأخرت
عن بعض رفعة قدرك العلماء
الأمر أعظم من مقاله قائل
فمقصر ما طول البلغاء
الله قد أثنى عليك وإنه
ما بعد هذا فى الثناء ثناء
والله أعطاك الذى لم يعطه
أحدا سواك فدونك الكبراء
وبراك حقا فى البرايا واحدا
وأبوك آدم طينة صماء
أو ما إليك قد ترسل آدم
بك إذا دعا وتشفعت حواء
أو ما لإدريس العلى مكانة
رفعت له بك رتبة علياء

أو مـا نجـا نوح بجـاهك فاسـتـوت

لطفــا ســفــينتــه وغــيض الماء

أو مــا غـــدت بك نار إبراهــيم بر

داحـين شـب ضـرامـهــا الأعـداء

أو مــا ابتلى بالذبـح إسـمــاعــيله

فلقـــد غـــدا بـك للذبيـح فــداء

أو مـا أبـوك لنذر جـدك قـــد فـدى

يا ســـيـــبدا عـــاشت بـه الآباء

أو ما اهتـدى الجم الغفـير من الورى

بـهــــــــداك والآباء والأبـنـاء

الله أحـــيـا قـــبل مـــولدك النفـــو

س وبعـــده بك حـبـــذا الأحـيـــاء

ســمــاك بالرءف الـرحـيم وكم كـذا

حـسنت من الحسنى لك الأسـمـاء

والله مـحـــمـود وأنـت مـحـمـد

هذا اشـــتــقـــاق ما عـــلاه عـلاء

أســرى بك الســبع الطبــاق بلـيلة

جليـت بهـــا مـن نورك الظلـمـــاء

جـبريل صـاحـبك الأمين وكم كـذا

صــحـبــتك من رب العـلى أمناء

فـعلى البراق لقـد سمـا بك للسمـا

ولكم سمت بك فـى الصعود سـماء

مــــا زال دونك ممسكـا بعـنانـه

هذا الـعــــلاء وهـكذا الإســـــراء

فى سـاعـة فـيـهـا المهـيـمن شـاهد

ومــلائك الـرحـــمن والنـبـئـــاء

ولقـد صـعـدت لمـسـتـوى أقـلامـه

منك اعـتـلى لصـريفـهـا إصـغـاء

فـتـأخـــر الروح الأمـين وفـقـــتـه

فلـقـــد حـــلا وصل وآن لقــــاء

من بعـد خمـسـيـن الصلاة لخـمسـة

جـعـلت لأجلك والأجــواء سـواء

ورجعت للحرم الشـريف وما انقضت

بســــراك تلـك الليـلة الغـــراء

أصـبحت تخـبـر بالرجوع وبالسـرى

فـمـــصـدقـون وحـســد أغـبـاء

وجلى لك البيت المقدس فى غد
فوصفته للقوم لما شاءوا
فخلائق سعدوا وأقوام شقوا
ومن الإله سعادة وشقاء
لم يجهل الأقوام ما أوتيته
لكنهم مع علمهم جهلاء
آذانهم صمت وقد أسمعتهم
وعيونهم عميت وهم بصراء
عميت لمقدور الإله قلوبهم
فمع السويدا ظلمة سوداء
شهدت بوصفك كتبهم والمرسلو
ن لهم وهم لو نصفوا شهداء
توراة موسى قد أتى من بعدها
إنجيل عيسى ما لديه خفاء
وتواترت أخبار أحبار لهم
وعن النبيين اعتلت أنباء
سموك نبيهم باسمك الميمو
ن إذ ظهرت لوقت ولادك اللألاء

طلبـوا الـرئاسـة والنفـاسـة والعلى

ولكـم علت بك سـادة رؤسـاء

شـرقـوا لما أوتيت من تحـقـيـقـيـهم

ولديـهم لولا الشـقـاء ذكـاء

حـسـدوك للفـضل الذى أوتيـتـه

من ذا يـحق لـه سـواك عطـاء

الله أعلـم حـيث يجـعل رسـله

ويدبـرا الأفـلاك كـيف يشـاء

أيـدت منـه بنـصـره والمؤمـنيـ

ـن فـقد - وحقك - زالـت الأعداء

وأتت لـنصـرتك الملائـكة العـلى

حـزب الإله أعـزة أكـفـاء

أظهـرت دين الله بعـد خـفـائه

وأبدت دين الشـرك فـهـو هبـاء

ومضـيت فى قتـل الحواسد والـعدى

ولأنت سـيف الله فـيك مـضـاء

دارت على الأعـداء دائرة القـضـا

لكـن إسـراع الممـات أداء

(لا يسلم الشـــرف الرفـيع من الأذى
حـــتى) تـراق لحـــاســديه دمـــاء
من يوم مـــولدك الشـــريف عـناية
مـــــا زال فـــيـــهم ذلة وعـناء
أصنامـــهم خـرت وصلبـــهم هوت
لو يـعـــــقلون لـهـــا وهد بـناء
نيـــــراهم منذ ألف عـــام أوقــدت
فلقـــد غـدا للـهـيـبـهـا إطـفـاء
غـاضت بحـيـرة سـاوة ولكم طغـوا
لما طـغى لـهم علـيـــهـــا الماء
بدت البـراهـين المنيـرة كـالـضـحى
وأضـــاء صـبـح إذ أنيــر مـســاء
صــدق الإلـه هو الخـتـــام لنوره
أبدا ولو كـــره العـدى السـفـــهـاء
لما أظـلتك الغــمــــامــة دونـهم
فلـهـــا عليـك من الحـــرور رداء
نظروا عــليك الظـل فـــانتـــقـلوا له
فـــغـــدا لـه إلا عليـك جـــلاء

أضحى "بحيرا" بالعلائم شاهدا

وهنا لعمك حين ذاك هناء

الله أكبر كم غدت لك آية

كثرت فلا عد ولا إحصاء

أشبعت خلقا باليسير كما غدا

للقوم بالماء القليل رواء

وديون والد جابر وفيتها

من تمرة وغدا وفيه نماء

والماء نبعا من أصابعك اغتدى

كالشهد فيه حلاوة وصفاء

ولما أراد الإمام المحدث الرحال، الرئيس الحاجب، الخطيب سيدى أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمسانى - رحمه الله - شرح كتاب الشفا استمطر أنواء قرائح أعلام عصره، فى قطع وقصائد يليق ذكرها فى ديباجة الشرح، فكان ممن أجابه، الكاتب الفقيه، صاحب القلم الأعلى، أبو القاسم ابن رضوان النجارى - رحمه الله، قال ابن الخطيب: ومن خطه نقلت:

سل بالعلى وسنا المعارف يبهر

هل زانها إلا الأئمة معشر

وهل المفاخر غير ما شهدت به

آى الكتاب وخلدته الأعصر

هم مـــا هم شـــرفـــا ونيل مــــراتب

يوم القـــيـــام إذا يهـــول المحـــشـــر

ورثوا الهـــدى عن خيـــر مــبعـــوث به

فـــجـــزاهم الله العـــظيم الأكـــبـــر

وعـــيـــاض الأعلى قـــداحـــا فى العلى

منهم وحـــق له الفـــخـــار الأظهـــر

والعنكبـــوت لقـــد وقـــتك بنســـجـــهـــا

فـــعليك فـــى الغـــــار المنيف وقـــــاء

أعـــــجـــــزت بالقـــــرآن كل منـــطق

فلذاك عـــابت نطـــقـــهـــا الفـــصـــحـــاء

ولقـــد نطقت ومـــا نطقت عن الهـــوى

حكمـــــا أقـــر بفـــــضلهـــا الحكـــمـــاء

بجـــوامع الكلم ابتـــعـــثت فكم حـــوت

من أسطـــر لك فـــضـــلة جـــــمـــعـــــاء

والعلـــم يجـــمـــع من حـــديـــثك أربع

فـــاســـتنبطت أحكـــامـــهـــا العـــلمـــاء

والطب فى الكلم الثـــلاث جـــمـــعتـــه

حـــــتى لقـــــد صـــــحت بك الأدواء

خاطبت كل قبيلة بلغاتها

فسمت بفصل خطابك الخطباء

شهدت لك الأعداء أنك صادق

والفضل ما شهدت به الأعداء

يكفيك يوم الجمع أنك شافع

يا من به تتشفع الشفعاء

فمقامك المحمود يحمده الورى

ومن المحامد فى يديك لواء

ولك الوسيلة والفضيلة والعلى

ولك الإعادة ثم والإبداء

يا ربنا بالمصطفى وبجاهه

قسما به ما إن يرد دعاء

عوض عياضا بالرياض وبالرضى

ما إن له إلا الجنان جزاء

فلقد شفى كل الصدور شفاؤه

وكتابه كتبت به الحسداء

لبهى من الوشى الرقيم سطوره

وعليه من نور القبول بهاء

أهدى إلينا الحسن والحسنى به

ونعم صفات المصطفى حسناء

وجا بما أحيا المسامع ذكره

ولكم غدا بالمرتضى أحياء

ما زاد فخرا للنبى وإنما

ذكر النبى وسيلة ورجاء

فليهنه إدراك كل مؤمل

وليهنه بعد الهناء هناء

يا سبتة فيها العلوم تجمعت

ما أنت إلا جمعة زهراء

يا مغربا منه الفضائل أطلعت

ما أنت إلا مشرق وضياء

يا قاضيا بالحق فى أحكامه

لم ينس عند الله منك قضاء

يا مالكيا مالكا رتب العلى

بجنان رضوان لديك علاء

يا منشئا مدح الرسول لقد أبى الر

حمن أن ينسى لك الإنشاء

الله معطيك الجوائز جمة

فليهنك النعيم والنعماء

أو ما رئيت مع النبى جليسه

تكفيك هاذى الرتبة العلياء

يا سيد الرسل الكرام وكم كذا

بنداك إحسانا أجيب نداء

بالرغم منى عن ذراك تخلفى

فمتى يقدر للمحب لقاء

أملى الإقامة فى ذراك وحبذا

منك الغنى والروضة الغناء

كل امرئ مع من أحب وإنه

للقلب فيك محبة وولاء

لله وجه فى ثراك معفر

فلقد تكاثر فى ثراك ثراء

أقصى مناى وبغيتى أقضى به

فيطيب فى أرض البقيع ثواء

أو ما الدفين هناك أنت شفيعه

فحقيقة أمواته أحياء

يا ويح نفسى قيدت بذنوبها
فمتى يحل من المسىء وكاء
ما لى سواك لحله أنت الرجا
ولديك بالصفح الجميل غطاء
فالله يغفر لى بجاهك ما مضى
ويصوننى إن كان فى بقاء
ويحقق المأمول منه وكم له
بعظيم جاهك يا عظيم عطاء
وكذاك منشدها وسامعها
وكاتبها وحائز لديه قناء
والأهل والإخوان والأخوات
ثم الأمهات كذلك الآباء
ثم الصلاة على النبى وآله
وكذا الصحاب السادة النجباء
ما دامت الأوراق فى أشجارها
وترنمت فى دوحها ورقاء

وقال الشيخ الإمام النظار، أبو إسحاق الشاطبى فى كتاب الإنشاءات والإفادات له ما نصه: إنشادة لما أخذ فيما زعموا شيخنا الفقيه، الإمام

الشهير، الخطيب المحدث البليغ: أبو عبد الله بن مرزوق، فى شرح كتاب الشفا للقاضى أبى الفضل عياض، وهو مستوطن مدينة فاس من بر العدوة، بعث إلى الأندلس فى طلب أمداح من شعرائها لكتاب الشفا، ليجعل ذلك مقدمة الشرح، فندبنى إلى امتحان الفكر بهذا القصد - صاحبنا الفقيه الكاتب، أبو عبد الله بن زمرك، إلى أن سمح الخاطر بهذه الأبيات.

يا من سما لمراقى النجم مقصده
فنفسه بنفيس العلم قد كلفت
هذى رياض يروق العقل مخبرها
هى الشفا لنفوس الخلق إن دنفت
يجنى بها زهر التكريم أو ثمر التـ
ـعظيم والفوز للأيدى التى قطفت
أبدت لنا من سناها كل واضحة
حسانه دونها الأطماع قد وقفت
وشيد العقل أركانا موطدة
بها على مثل أصل الشرع قد وقفت
قوت القلوب وميزان العقول متى
حادت عن الحجة الكبرى أو انحرفت
فيا أبا الفضل حزت الفضل فى غرض
به أقرت لك الأعلام واعترفت

الكتـب بحـر علوم ضـل سـاحله

منه استـمدت عيون العلم واغـترفت

زارته من جنبـات القـدس ناسـمـة

فحركت منه مـوج الفكر حين وفت

حـتى إذا ما همـت أرجاؤها قـذفت

لنا بـدرتهـا الحـسـناء وانصـرفت

إن العـنايـة لا يحـظى بنـائلـهـا

حريصها بل على التخصيص قد وقفت

انتهى.

وأشـار بهـذا البـيت الأخـيـر إلى قـول الأول: إن السـعـادة أصلهـا التخـصيص؟ وقـال الوزير ابن الخطيب، فى كتـاب الإحاطة فى ترجـمة ابن مرزوق ما نصه: ومن خط الإمام ابن مرزوق لبعضهم:

كـتـاب الشـفـاء شـفـاء القلوب

وحـسـبـك قـولـى كـتـاب الشـفـا

تضـمـن أوصـاف خـيـر الورى

وهـادى البـريـة والمصـطفـى

ولما أنشدنى الفقـيه الكاتب، الأديب الناظم، الناثر أبو عبد الله مـحمد ابن على الوجدى - حفظه الله - قوله:

للنفـس منى طمـوح لـيس يثنيـهـا
عـمـا تؤمل من أقـصى تمنيـهـا

يا من يسـائل عن ذاتى وعن عـرضى
فى حـالى الحب قـاصيـهـا ودانيهـا

جـسـمى بفـاس رهين فى مـعـالمهـا
وليس ينـفك عن بلوى يعـانيـهـا

ولى بمـكناسـة روح مـودعـة
من دون جـسم يكاد الشـوق يفنيهـا

ولى بـتطاون دار الصـبـا طرب
لولا التـقـيـة أغـوانى غـوانـيـهـا

ولى اتيـاح إلى القصـر الكبيـر فقـد
قضت بـه النفس بعضـا من أمانيـها

ولى بثـغـر سـلالب فلو يئـست
منه النفـوس لكان اليـأس يضنيـهـا

ولى بمـراكش شـوق أكـابده
لو أسـعد الدهر فى مـرأى مغـانيهـا

قلت مذيلا عليه:

مثوى عياض أبى الفضل الذى بسقت
أفنانه فحلت طمعا لجانيها

فكم من تآليف قد اشتهرت
ألفاظها رائقات مع معانيها

حازت مشارقه خصل السباق كما
شفى النفوس شفاه من تعنيها

كنوز عرفانه والفضل شيمته
تولى نفوس الورى علما فتغنيها

ولى بأرض تلمسان معالم إن
نأت معاهدها فالشوق يدنيها

مأوى الشيوخ الهداة المستضاء بهم
و«بأبى مدين» ازدادت مبانيها

بجاهه النفس ترجو نيل كل منى
إذ لم يزل روح لطف الله يعنيها

أقول وقد تذكرت هنا - والشىء يذكر بالشىء - قصيدة الشيخ حسن ابن على بن عمر القسمطينى، المعروف بابن الفكون، أحد أشياخ العبدرى، وهى من در النظام، وحر الكلام، وقد ضمنها رحلته من قسمطينة إلى مراكش المحروسة، ومطلعها:

ألا قل لـلسـري ابن السـري
أبي البـدر الجـواد الأريحي[1]

ومنها:

وكنـت أظـن أن النـاس طـرا
سوى زيد وعمـرو غيـر شئ[2]
فلمـا جـئت مـيلة خيـر دار
أمـالتني بكل رشـا أبـي
وكم أورت ظبـاء بني ورار
أوار الشـوق بالريـق الشـهي
وجـئت بجـاية فـجلت بدورا
يضـيق بوصـفـهـا حـرف الروي
وفي أرض الجـزائر هام قـلبي
بمعـسول المراشـف كـوثري
وفي مليـانة قـد ذبت شـوقـا
بلـين العـطف والقـلب القـسي
وفي تنس نسيت جميل صبري
وهمـت بكـل ذي وجـه وضي

(١) نفح الطيب ج٢ ص ٤٨٣.
(٢) نفح الطيب ج٢ ص ٤٨٣.

وفى مـــارونة مـــا زلت صـــبـــا
بوسنان المحـــاجـــر لـوذعى

وفى وهران قـــد أُمـــسـيت رهنا
بظـامى الخـصـــر ذى ردف روى

وأبدت لـى تلـمـــســـان بدورا
جلبن الشـــوق لـلقـلب الخلى

ولما جـئت وَجْـدَةَ همت وجـدا
بمنـخنث المعـــاطـف مــعنوى

وحل رشـــا الربـــاط رشـــا رباطى
وتيـــمـنى بـطـرف بـابلـى

وأطلع قطر فـــاس لى شـمـوسـهـا
مـغـــاربهن فـى قلب الشـــجى

ومـــا مكنـاســـة إلا كنـاس
لأحْـوى الطرف ذى حـســن سنى

وإن تسـأل عن أرض سـلا فـفيـهـا
ظبـــاء كـــأســـراب للكـمى

وفـى مـــراكـش يـا ويح قـلبـى
أتى الـوادى فطـم على الـقـــرى

بدور بل شموس بل صباح
بهى فى بهى فى بهى
أبحن مصارع العشاق لما
سعين به فكم ميت وحى
بقامة كل أسمر سمهرى
ومقلة كل أبيض مشرفى
إذا أنسيننى حسنا فإنى
أنسيهم غوى غيلان مى
فهأنا قد تخذت الغرب دارا
وأُدعَى اليوم بالمراكشى
على أن اشتياقى نحو زيد
كشوقك نحو عمرو بالسوى
تقسمنى الهوى شرقا وغربا
فيا للمشرقى المغربى
فلى قلب بأرض الشرق عان
وجسم حل بالغرب القصى
فهذا بالغدو يهيم غربا
وذاك يهيم شرقا بالعشى

ولـولا الله مت هـوى ووجـــــــدا

وكـم لله من لـطـف خـــــفـى

رجع: وأنشدنى الفقيه الأصيل، العـلامة سيدى على بن أحمد الشامى الخزرجى - حفظه الله - لنفسه يمدح كتاب الشفا:

شـفـــاء عـيــاض لدائى شـفــا فــلا زال مــورده مــرشـفـــا

فـــمن لم يؤسس بـنا حـبـــه على أســـه أس فــوق شـفـــا

وقد اعـتنى الأئمة بشرح هذا الكـتاب والتعليق عليـه، فممن شـرحه: الإمام الرئيس الخطيب: أبو عبـد الله بن مرزوق التلمسانى، شرحـا واسعا لم يكمله. وممن علق عليه عدة تعـاليق الشيخ الإمام، سيدى محـمد ابن الشيخ الربانى، الوالى الصالح، سيدى الحسن بن مـخلوف الشهير بأبركان الراشدى ثم التلمسانى، وقـد وقفت على أحد تعاليقه بخطه، وسـماه - بـ «غنية أهل الصفا فى شرح الشفا».

وممن علق عليـه: ابن اقـبـرس، والشمـنى، والشريف، وغـيـر هؤلاء كالدلجى، وابن الـفرس. وكمـا اعتنى الناس بذلك اعـتنوا أيضا بتـصحيـحه وضبطه وإتقـانه، ولقد وقفت من نسـخه الصحاح على عـدة، ومن أصح ما وقفت عليه: نسخـة بخط تلميذه، عبد الرحمن بن القصيـر الغرناطى المتقدم الذكر، وذكر أنه نقلها من نسخة عليها خط المؤلف، ورأيت بخطه (فى الطرة) تنبيهات على مواضـع، هأنا ذاكر بعضها الآن - تنميما للمقـصود فمنها عند قوله فى الشفا: تيامن منهم ستـة، وتشاءم أربعة - الحديث بطوله - ما نصه: تمام الحديث: فـأما الذين تيـامنوا: فكندة، وأنمار وهوازن، وبجيلة، وخـثعم

والأزد، وحمير، وعد والأشعريون. وأما الذين تشاءموا: فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة - ذكره أبو نعيم الحافظ فى رياضة المتعلمين، انتهى. فتأمله وراجع رياضة المتعلمين. ومنها عند قوله: فإذا أنا بابنى الخالة - إلى قوله: ودعيا لى بخير - ما نصه: كذا كان فى المنتسخ منه، والصواب ودعوا لأنه من دعوت. قال الله تعالى: ﴿دعوا الله ربهما﴾ - ولا شك أنه من الناسخ الغلط، وأما المؤلف - رحمه الله - فإنه كان أرفع من أن يقع فى مثل هذا، بل كان من المستبحرين فى فنون جمة، وكان خطه بالقراءة عليه فى الأصل الذى انتسخت منه، والسماع يفلت منه كثير للمستمع والمقرر عليه، ويندرج فى لفظ القارئ بالخفى انتهى. ومنها عند قوله: كقلان هجر ما نصه: كالقلال وقع فى المنتسخ منه، وفى البخارى كما كتبت فى نفس الكتاب. انتهى.

يعنى بما كتب كقلال، ومنها عند قوله: حتى ظهرت لمستوى ما نصه: ظهرت أى علوت، قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ... (٩٧)﴾ [الكهف] - أى يعلوه، وقال تعالى: ﴿... وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف]. ومنه ما جاء فى حديث عائشة فى صلاة العصر والشمس فى حجرتها قبل أن تظهر - أى تعلو على الجدران. انتهى.

ومنها عند قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا﴾، ما نصه، روى عن سعيد بن المسيب - رحمه الله - فى قوله تعالى: ﴿... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ... (٦٠)﴾ [الإسراء].

قال: رأى ناسا من بنى فلان على المنابر، فساءه ذلك، فقيل له: إنما هى دنيا يعطونها، فسرى عنه. وعن الربيع بن أنس البكرى لما أسرى بالنبى

- عليه السلام - رأى فلانا وهو بعض بنى فلان على المنبر يخطب على الناس، فشق ذلك عليه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء].

ومن هذا الباب: روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ رأى فى المنام بنى مروان يرقون منبره ينزون عليه، فأصبح كالمريض، فقال: إنى رأيت بنى مروان ينزون منبرى نزوة القردة، فما اجتمع ضاحكا حتى مات.

وذكر ابن أبى خشيمة فى تاريخه، والماوردى فى تفسيره، قال ابن أبى خيثمة: إن رجلا قال للحسن، وسماه الماوردى فقال: إن عيسى بن مازن قال للحسن: يا مسود وجوه المؤمنين، عمدت إلى فلان فبايعته، فقال: إن رسول الله - ﷺ - رأى فى منامه بنى أمية يعلون منبره خليفة بعد خليفة، فشق ذلك عليه، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر] - و﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾ [القدر] يعنى ملك بنى أمية، قال القاسم: فحسبنا ملك بنى أمية، فإذا هو ألف شهر، لم يزد ولم ينقص - انتهى.

ومنها عند قوله: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى - الحديث ما نصه: هذا الحديث رواه أبو الأشعث، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: سألنى ربى فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: فى الكفارات والدرجات، قال: وما الكفارات؟ قلت: المشى على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء فى السبرات، والتعقيب فى المساجد: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قال: وما الدرجات؟ قلت: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام انتهى.

ومنها عند قوله لا سابع لهم ما نصه سمى ابن قتيبة من هؤلاء محمد ابن أحيحة بن الجلاح وقال: هو أخو عبد المطلب لأمه، ومحمد بن سفيان ابن مجاشع، وزاد فى آبائه ابن درام، وزاد: حمد بن سواءة بن جشم بن سعد. وزاد ابن أبى الزلال فى كتاب الأسجاع له - محمد بن الحارث بن خديج بن حويص. وذكر ابن أبى خيثمة فى تاريخه - أن أول من تسمى فى الإسلام بهذا الاسم، محمد بن حاطب، وساقته جدته إلى النبى - ﷺ فقالت: يا رسول الله، هذا محمد بن حاطب، وهو أول من سمى بك، قالت: فمسح على رأسه ودعا له بالبركة، وتفل فى فيه، فكمل بما قال ابن قتيبة، وابن أبى الزلال، ثمانية ممن تسموا به قبل الإسلام.

وقال القاضى أبو الفضل - رحمه الله - لا سابع للستة الذين سمى، وسبحان من أحصى كل شىء عددا، لا إله غيره. انتهى.

قلت: وقد حفظ المتأخرون فى ذلك ما لم يحفظه هذا الرجل، قال فى المواهب اللدنية ما نصه: قال ابن قتيبة: ومن أعلام نبوءته - ﷺ - أنه لم يسم قبله أحد باسمه محمد - ﷺ - صيانة من الله تعالى لهذا الاسم، كما فعل بيحيى إذ لم يجعل له من قبل سميا، وذلك أنه - تعالى - سماه فى الكتب المتقدمة، وبشر به فى الأنبياء، فلو جعل اسمه مشتركا فيه، لوقعت الشبهة، إلا أنه لما قرب زمنه وبشر أهل الكتاب بقربه، سمى قوم أولادهم بذلك رجاء أن يكون هو هو - والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

ما كل من زار الحمى سمع الندا

من أهله أهلا بذاك الزائر

﴿ ...ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ... (٥٤) ﴾ [المائدة]. وقد عددهم القاضى عياض ستة، ثم قال: لا سابع لهم.

وذكر أبو عبد الله بن خالويه فى كتاب ليس، والسهيلى فى الروض، أنه لا يعرف فى العرب من تسمى محمدا قبل النبى - ﷺ إلا ثلاثة.

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر - رحمه الله - وهو حصر مردود، والعجب أن السهيلى متأخر الطبقة عن عياض، ولعله لم يقف على كلامه، قال: وقد جمعت أسماء من تسمى بذلك فى جزء مفرد، فبلغوا نحو العشرين، لكن مع تكرير فى بعضهم ووهم فى بعض، فيتخلص منهم خمسة عشر نفسا، وأشهرهم محمد بن عدى بن ربيعة بن سواءة بن جشم بن زيد مناة بن تميم التميمى السعدى - لم يذكره عياض. ومنهم محمد أحيحة - بضم الهمزة وفتح المهملة - بن الجلاح - بضم الجيم وتخفيف اللام، آخره مهملة - الأوسى، ذكره عياض والسهيلى، ومحمد بن أسامة بن مالك بن حبيب بن العنبر، ومحمد بن البراء، وقيل ابن بر بن طريف بن عتوارة بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة البكرى العتوارى، ومحمد بن الحارث بن خديج بن حويص، ومحمد بن حرماز بن مالك اليعمرى، ومحمد بن حمران بن أبى حمران ربيعة بن مالك الجعفى، المعروف بالشويعر، ومحمد بن خزاعى بن علقمة بن حرابة السلمى، من بنى ذكوان، ومحمد بن خولى الهمذانى، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن اليحمد الأزدى، ومحمد بن يزيد بن عمرو بن ربيعة، ومحمد بن الأسيدى، ومحمد الفقيمى، ولم يدركوا الإسلام إلا الأول، ففى سياق خبره ما يشعر بذلك، وإلا الرابع، فهو صحابى جزما.

وفيمن ذكره عياض: محمد بن مسلمة الأنصارى، وليس ذكره بجيد، فإنه ولد بعد النبى - ﷺ بأزيد من عشرين سنة، ولكنه ذكر تلو كلامه المتقدم محمد بن يحمد الماضى، فصار من عنده ستة لا سابع لهم. انتهى كلام القسطلانى، وراجع فتح البارى فإنه قال: ومنهم: محمد بن عمرو بن مغفل - بضم أوله وسكون المعجمة وكسر الفاء ثم لام - وهو والد هبيب - بموحدتين مصغر، وهو على شرط المذكورين، فإن لولده صحبة، ومات هو فى الجاهلية.

انتهى المقصود منه، وإنما ذكرته لما فيه من الضبط للفظتين، أعنى مغفل وهبيب والله الموفق، وانظر كلام ابن حجر، فلا يخلو من فائدة.

ومنها عند قوله: والعمائم تيجان العرب ما نصه، هو حديث ذكره صاحب الشهاب، انتهى.

ومنها عند قوله: وفيما ذكرنا منها مقنع - ما نصه: قول القاضى - رحمه الله - مقنع، فيه بعض النقد، لأن أسماءه - ﷺ، وألقابه وسماته، تقتضى معانى الجلال، وجميع المحامد وحسن الخلال، فلا يقنع منها شيء، وكلما كثرت، ازداد المؤمن بذكرها حلاوة، ووجد فى نفسه إليها - ﷺ - اشتياقا، وطابت لذاكرها كاستطاب الجائع النافع ذواقا، جعلنا الله - عز وجل - من الدائمين على ذكره، والقائمين بما يجب من أمره - انتهى.

ومنها عند قوله: فلقد بلغنا قاموس البحر، ما نصه: قاموس البحر: وسطه، وفى حديث ابن عباس: ملك موكل بقاموس البحار، أى: وسطها، وعلى قدر ما يكون غمس قدميه فيها يكون الجزر. انتهى.

ومنها قوله: ومخمول ذكرها ما نصه، كذا وجدته، والأشهر: مخمل، لأنه يقال: أخمل فلان فلانا، وإن كان خمله أيضا منقولا، وفى الحديث: إنه مما يمن الله به على عبده يوم القيامة، أن يقول له: ألم أخمل ذكرك فى الناس - بضم الهمزة من أخمل - انتهى.

ومنها عند قوله - رحمه الله - والطبع الجهورى ما نصه: كذا فى النسخة التى انتسخت منها، وذلك غلط من الناسخ، وإنما هو الجوهرى - والله الموفق للصواب، انتهى.

ومنها عند قوله: قال أبو محمد الأصيلى: من أعجب أمرهم، أنهم لا توجد منهم جماعة، ولا واحد من يوم امر الله بذلك نبيه - ﷺ يقدم عليه، ولا يجيب إليه ما نصه: قال كاتبه: هذا الذى قال الأصيلى قد نصه الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ... (٩٥)﴾ [البقرة]، وقوله فى الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ... (٧)﴾ [الجمعة] فذكر الأبدية فى الموضعين، فتمنيهم محال وقوعه، وكذلك آية المباهلة، أكدها سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ... (٦٢)﴾ [آل عمران] انتهى.

ومنها عند قوله: ويعادى إذا عيد ما نصه: كذا وجدت فى المنتسخ منه، والصواب أعيد، لأنه من أعاد - انتهى.

ومنها عند قوله: هو الفصل ليس بالهزل ما نصه. قال عبد الرحمن: كان بعض من أدركنا من أهل العلم والمستبحرين فى العلوم، يقول الحديث الصحيح: اطلبوا لفظه أوبعض لفظه أو معناه فى القرآن تجدوه، وهذا من ذلك القبيل: قوله فى هذا الحديث: هو الفصل ليس الهزل. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)﴾ [الطارق]. انتهى.

وقد ذكر الإمام ابن مرزوق عن بعض شيوخه (الصلحاء) أنه كان كثيرا ما ينتزع مضمن الأحاديث من الآيات، وقال - رحمه الله - حين ذكر الصبر عند الصدمة الأولى - الحديث: أن نظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿... وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ... (١٧٧)﴾ [البقرة]. انتهى كلام ابن مرزوق بمعناه. قلت وقد سلك هذه الطريقة صاحبنا وعصرينا، الفقيه الصالح، البركة، العلامة، العارف الصوفى، سيدى عبد الرحمن الفاسى - حفظه الله - فإنه لما قرئ - (بين) يديه - حفظه الله - حديث فاطمة - رضى الله عنها - فى طلبها الخادم من النبى ﷺ، وقول النبى ﷺ - لها ولعلى - رضى الله عنهما - فذلك خير لكما من خادم. قال - حفظ الله - مصداق قوله تعالى: ﴿... وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ... (٤٦)﴾ [الكهف] وقال حفظه الله - بين حديث "أرأيت إن كان أسلم... الخ مصداقه قوله تعالى: ﴿... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... (٥٥)﴾ [آل عمران]. وله - حفظه الله - فى المعنى وغيره الباع المديد.

وقد أجاب أبقاه الله - من سأله عن بيان الملازمة فى قول البوصيرى: لو ناسبت قدره - البيت بأن النبى - ﷺ - روح الوجود، فلو ناسبت آياته قدره، لأحيا اسمه - لأنه الروح. انتهى بمعناه، وله من مثل هذا ما لا يحصى - أعانه الله، ونفع به المسلمين، فلقد أحيا من العلوم والرسوم الدارسة، وخصوصا علم التصوف، فإنه لا يسبق فيه، بل انفرد به عن أهل عصره مع المشاركة التامة فى البيان - والأصلين والمنطق والعربية، وأما التفسير والحديث فهو صاحب العلم المستطيل فيهما - إلى ما هو عليه من الزهد والتقلل من الدنيا والانقباض عن أهلها بكلية، كثر الله فى الأعلام أمثاله بجاه النبى - ﷺ.

ومنها عند قوله: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه - رحمه الله - بقراءتى عليه، حدثنا القاضى عيسى بن سهل - ما نصه: هو - يعنى ابن سهل - من شيوخ أبى - رحمه الله، وهو أسدى النسب، وكان من الراسخين فى المسائل، وصنعة الوثائق، والخط البارع، والكرام المنيف، والإيثار على نفسه، والجزالة النافذة فى أحكامه، وفصل القضاء، وكثرة الرواية، رحمه الله وتغمدنا وإياه برحمته. انتهى. وقد قدمنا ذكره فراجعه فى شيوخ عياض.

ومنها عند قوله: ولم يكن فى ثمرها سنين كفاف - ما نصه: معنى سنين: أن لو صرمت سنين ما اجتمع فيما يغتل منها كفاف دينهم - انتهى.

ومنها عند قوله: واقبض منه ولا تكبه ما نصه: يقال: كببت الإناء، وأكببته فعلى هذا نقول هنا: تكبه وتكبه - انتهى.

قلت: انظر مع ما اشتهر من أن أكب لازم، وكب متعد وهو مذكور فى صحيح البخارى وغيره، وفيه وقع اللغز المذكور فى محله، إلا أن يقال هذا الذى هنا فى الشفا فى كب الإناء، وذلك فى أكب فلان، وفيه للنظر مجال - والله أعلم.

ومنها عند قوله: وادع لى فلانا وفلانا، ومن لقيت ما نصه: انظر قوله: ادع فلانا وفلانا، ثم قال بعد ذلك: ومن لقيت، وكذلك قال فى حديث أنس أيضا الذى فى مقلوب هذا الصفح إذ ابتنى النبى - ﷺ بزينب، وراوى الحديث واحد، لكنه لم يسم هنا أن الزوجة كانت زينب، فيخرج من تسميته أولا فلانا وفلانا دعاء الخاصة أولا، لأن لهم ولكل أحد منزلة، وفى الحديث أن جبريل - عليه السلام - قال له: أنزل الناس منازلهم - انتهى.

ومنها عند قوله: وأكون فى مكان لا أبلى فيه - ما نصه: لا أبلى فيه من الابتلاء، ولا أبلى من البلى، ويحتمل الوجهين، ويحصل الله له فى الجنة المعنيين - لا يبتلى ولا يبلى - انتهى.

ومنها عند قوله: فقال أبو بكر: نحن أحق لك بالسجود منها - الحديث ما نصه: يعنى ما جاء فى باب كلام الشجر وشهادتها بالنبوة إذ قال: لو أمرت أحدا بالسجود لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها فتأمله هناك بتمامه. انتهى.

ومنها عند قوله: حدثنا أبو محمد العتابى - ما نصه: يعنى الفقيه الراوية بقرطبة، عبد الله بن محمد بن عتاب - رحمه الله، وهو من جملة شيوخ أبى - رحمه الله - وكتب له خطه بما قرأ عليه وسمع أجازة فى جميع ما يرويه من جميع الوجوه - انتهى.

ومنها عند قوله: إثر الكلام السابق، حدثنا أبو القاسم، حاتم بن محمد - ما نصه: حاتم هذا بينى وبينه الشيخ المحدث الراوية، أبو الحسن، فقيه قرطبة وأحد عظمائها بل عظماء جزيرة الأندلس: يونس بن مغيث عرف بابن الصفار - رحمه الله، فاستوى مع أبى فيما يخرج عنه فيه. انتهى.

ومنها عند قوله: إلا واحدة غرسها غيره ما نصه هو عمر - رضى الله عنه، وربما صحف الناسخ فى الأصل الذى نسخت منه عمر فكتب غيره، وذلك قريب فى الالتباس، انتهى.

ومنها عند قوله: فمات وهو ابن ثمانين سنة فما شاب... ما نصه، تأمل وانظر أن البركة فى رفع الشيب، وكذلك فى الحديث الذى بعد هذا، فى خبر قيس بن زيد لم يشب ما مرت عليه يد النبى - ﷺ من رأسه، وفى

حديث إبراهيم - عليه السلام إذا سأل عن الشيب أول ما رآه فقال الله تعالى: «وقار» فقال: «يارب زدنى وقارا» - فتأمل كيف يجمع بينهما، - انتهى.

قلت: والجواب سهل لمن تأمل

ومنها عند قوله: حدثنا الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهري - ما نصه - هو الطرطوشى، وكان سكن الإسكندرية، وكان من العلماء المستبحرين الزاهدين القوالين بالحق، رأيت له رسالة كتب بها إلى يوسف بن تاشفين، خوفه فيها من عاقبة الجور، وحضه على نصر جزيرة الأندلس، وجمل من الخير، وجلب فيها آيات وأحاديث ورقائق جمة، وحملها مع عبد الله بن العربى، وابنه الفقيه القاضى أبى بكر - رحم الله الجميع. انتهى.

وقد قدمنا ذكر الطرطوشى هذا، فراجعه.

ومنها عند قوله: وينذرون ولا يوفون ما نصه: وهو من النذر، يقال: نذر - ينذر - بضم الذال، وكسرها فى المستقبل والماضى مفتوح، قال الله تعالى: ﴿ ... إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ... ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم]، ونذر بكسر الذال فى الماضى، معناه: علم تقول: نذرت بالقوم إذا علمت بهم، فاستعددت لهم، وأنذر رباعيا إذا قدم لوقوع أمر، ومنه قوله تعالى فى الأمر منه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء] - أى قدم لهم ما يخاف من أمر الله - عز وجل - انتهى.

ومنها عند قوله: وأخبر بالموتان ما نصه، يقال: وقع فى الناس موتان، وموات إذا كثر فيهم الموت - بضم الميم فيهما، وأرض موات بالفتح - خاصة إذا كانت غامرة غير معمورة - انتهى.

ومنها عند قوله: وإن الحسنة بعشر، فتلك مائة وخمسون على اللسان، وألف وخمسمائة فى الميزان ما نصه: هذا الحديث لا يفهم إلا بأوله، وأوله عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله - ﷺ: خصلتان - أو قال: خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة، يسبح أحدكم فى دبر كل صلاة عشرا، ويحمد عشرا ويكبر عشرا، قال: فأنا رأيت رسول الله - ﷺ، يعقدهن بيده، قال: فهى خمسون ومائة - الحديث، ثم قا بعد قوله فى الميزان: وإذا آوى أحدكم إلى فراشه من الليل أو مضجعه، يسبح الله ثلاثا وثلاثين، ويحمد ثلاثا وثلاثين، ويكبر أربعا وأربعين، فهى مائة على اللسان، وألف فى الميزان، فقال رسول الله - ﷺ: فأيكم يعمل فى ليلة بألفين وخمسمائة سيئة. انتهى.

ومنها عند قوله: وقوله بموضع نعم موضع الحمام - هذا - ما نصه: هو داخل فى معرفته - ﷺ بالهندسة والبناء، ذكره أبو نعيم فى رياضة المتعلمين، ورواه عن أبى رافع قال: مر رسول الله - ﷺ على موضع، فقال: نعم - الحديث، ثم قال: فبنى فيه حمام - انتهى.

ومنها عند قوله - حاكيا عن مالك: وكنت أرى جعفر بن محمد ما نصه: هو كعفر بن محمد الصادق - رضى الله عنه، وكان مالك - رضى الله عنه - وسط سفيان أن يكون من جملة من يسمع منه، فكلمه سفيان وابن أبى ليلى، فقال لهما جعفر - إنكما لتعلمان أنى لا أخبره - والأمويون بالمدينة كثير، ونكره القول علينا، فأخبراه بسلامته وحسن مذهبه، فأذن له، وكان مالك وسيما، أبيض أحمر، وكان له فى صدره نهدان كنهدى البكر، فجلس مالك فى مجلسه حيث انتهى به المجلس وأقام ركبته اليمنى، وترك عليها خده

الأيمن، وجعل يطرق وجعفر يحدث، حتى أربعين حديثا، وليس مع مالك محبرة ولا قرطاس، فلما فرغ المجلس، قال جعفر لسفيان، ذكرتما أنه يطلب العلم، والحديث، وليس معه شيء يكتب به، ولا كاتب يكتب له، فقال له سفيان: سله أنت عن خبره، فقال له: يا بنى، ما كتبت ولا كتب لك، فما أفدت؟ فقرأ عليه مالك المجلس من حفظه، فأعجب به جعفر، ثم سأل عنه سؤالا شافيا، حتى ذكر له خبر أمه وعقلها ودينها وجمالها، فسفر سفيان وابن أبى ليلى فى خطبتها عليه، فمشيا إليها، وأخذا معها فى ذلك، فقالت: لوكان جعفر بن محمد ما أجبت، فقالا: هو ذاك، فأطرقت ساعة ثم قالت: اكفونى وحلمى وقد قبلت، فأعلماه بذلك، فأدخل يده فى كيس الأثمان، وقبض منه قبضة، فأرسل إليها مهرها، فكلما مالكا فى العقد عليها فأبى، فقالا له: فما الحيلة؟ فقال لهما مالك: توكل أحدكما على العقد وأكون أنا مع الشاهد الآخر، فقالا لها: متى يكون الدخول، فقالت: لا تصلح المرأة شأنها فى أقل من شهر، فأخبرا جعفرا فقال: وحق أبى وجدى لا صبرت أكثر من يوم، فإما أن تجيبنى، وإما أن لا، قالا: فدعا بالكيس، وقبض قبضتين وقال: تنفق فيما تريد، وتتهيأ الليلة، فأعلماها بذلك، فأصلحت شأنها، ودخل عليها من ليلتها، وحظيت عنده حظوة كبيرة، ومات وورثت ثلث ثمنه، وكان له زوجتان غيرها وعنه يكنى مالك إذا قال: حدثنى الثقة، ومن لا أتهم - فإنما يعنى إياه - انتهى.

ومنها عند قوله: وقال لا ترفعوا أصواتكم فوق النبى ما نصه التلاوة فوق صوت وأسقط صوت فى الكتاب، ولا أدرى هل هو من الناسخ، أو كذا قرأ ابن مهدى. انتهى.

ومنها عند قوله: فآثرت حب رسـول الله - ﷺ على حبى - ما نصه: ولا يبـعد أن يـروى: فآثرت حب رسـول الله - ﷺ على حـبى - بالكسـر فيهما، لأن أسامة كان حب رسـول الله - ﷺ - أى حبيبه، وابن عمر حب أبيه، وابن أسـامة حب أبيه فكـما آثر حب رسول الله - ﷺ - على نفـسه، كذلك أراد أن يؤثر ابنه حـبه على حبه هو، وفى ذلك كله إيثـار حب رسول الله - ﷺ - على حبه، فتأمله. انتهى.

ومنها عنـد قوله: ثم قصـد إلى الروضة - وهى مـا بين القبـر المنبر - فاركع فـيهما - مـا نصه: فيهـا هو الصواب - يعنى الروضة، لأن فيـها هو الركوع، وقد بينه بعد هذا، فتأمله - انتهى.

ومنهـا عند قوله: وذهـب أهل مكة والكوفة إلـى تفضـيل مكة. . إلى آخره ما نصـه: قال ابن حبيب فى الواضحـة: روى أن النبى ﷺ قال: صلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فى غيره من المساجد، وإن صلاة فى مسجـد النبى - ﷺ - أفضل من ألف صلاة فى غيـره من المساجد، وإن صلاة فى بيت المقدس أفضل من خمسـمائة صلاة فى غيره من المساجد، وإن صلاة فى المسجد الجامع حيث المنبر والخطبة أفـضل من خمسة وسبعين صلاة فى غيره من المسـاجد، وإن صلاة فى مسجـد غيره، أو فى جماعـة فى غيره مسـجد أفضل من صـلاة الفذ بخـمسة وعـشرين صلاة، وهذا إن كـان عدد الجماعة أقل من خمسة وعشرين رجلا، وإن كانوا أكثر من ذلك، فالثواب فى تضعيف الحسنات على عدد الرجال، وكذلك إن كان العدد فى جامع أكثر من خمـسة وسبعـين، فالثواب على عدد الرجـال، وكذلك فى الثلاث مسـاجد عندئذ والذى ذكر ابن حبيب أن الثـواب على عدد الرجال، رأيت لأبى هريرة

وقال له رجل: إن كانوا عشرة آلاف، فقال له: وإن كانوا أربعين ألفا، وكذلك ذكر أبو إبراهيم فى معالم الطهارة، وأسند التفسير لابن عباس - انتهى.

ومنها عند قوله: ﴿... إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ... (٥٢)﴾ [الحج] - ما نصه: تمنى هنا معناه: تملى، والأمنية كذلك التلاوة، وكذلك فى قوله عز وجل، فى سورة البقرة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ ... (٧٨)﴾ [البقرة] - فأمانى: جمع أمنية وهى التلاوة، والأمانى أيضا: الأكاذيب، ومنه قول عثمان - رضى الله عنه - ما تمنيت منذ أسلمت - أى ما كذبت.

وقول بعض العرب لابن دؤاب وهو يحدث: أهذا شىء رويته أم شىء تمنيته - أى افتعلته. والأمانى أيضا: ما يتمناه الإنسان ويشتهيه، ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ ... (٩٥)﴾ [البقرة]، ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ ... (٧)﴾ [الجمعة] أى لا يشتهونه - انتهى. على أن فى متن الشفا قريبا من هذه الحاشية، فلا أدرى لم كتبها ابن القصير مع أن أكثر معناها فى أصل الشفا؟ والله أعلم.

ومنها عند قوله: وأما الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام فيتفاضلون فى المعارف.. إلى قوله: لأنه ما علمنا أنه كان فى زمان موسى نبى غيره، إلا أخاه هارون - ما نصه: قال كاتب النسخة: تذكر أن شعيبا - عليه السلام كان فى زمن موسى وقد ذكر الله تعالى - اجتماعهما، إذ مر موسى - عليه السلام، ووجد بناته.. إلى آخر ما ذكر من الخطبة التى كانت بينهما، ومخاطبة شعيب له لنفسه، إذ قال له: ﴿... لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾ [القصص] - وقد ذكر الله تعالى إرسال شعيب فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ... (٨٥)﴾ [الأعراف] - وقال تعالى عن الذين لم يؤمنوا برسالته: ﴿... لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ ... (٨٨)﴾ [الأعراف]. وقال عمن قال منهم: ﴿... لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ

شُعَيْبًا ... ﴿٩٠﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف] فهذه الآى صريحة فى نبوته وإرساله، فتذكر ذلك - انتهى ما انتقيته من حواشى المذكور على النسخة التى بخطه من الشفا، وذكرت ذلك وهو لا يخلو من فائدة - تتميما للمقصود - والله الموفق.

وإذ جرى ذكر آية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ... ﴿٥٢﴾﴾ [الحج] - فلنذكر كلام القسطلانى عليها فى كتابه المسمى بـ «المواهب اللدنية» فهو شاف كاف ونصه: وقدم نفر من مهاجرة الحبشة حين قرأ - عليه الصلاة والسلام: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ [النجم] - حتى بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم]، ألقى الشيطان فى أمنيته أى فى قراءته: تلك الغرانيق العلى، وأن شفاعتهن لترتجى. فلما ختم السورة، سجد - ﷺ، وسجد معه المشركون - لتوهمهم أنه ذكر آلهتهم بخير، وفشا ذلك فى الناس، وأظهره الشيطان حتى بلغ أرض الحبشة ومن بها من المسلمين: عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله - ﷺ، وقد أمن المسلمون بمكة، فأقبلوا سراعا من الحبشة. والغرانيق - فى الأصل - الذكور من طير الماء، واحدها غرنوق، وغرنيق سمى به لبياضه، وقيل هو الكركى، والغرنوق أيضا: الشاب الأبيض الناعم، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله تعالى وتشفع لهم، فشبهت بالطيور التى تعلو فى السماء وترتفع، ولما تبين عدم ذلك للمشركين، رجعوا إلى أشد ما كانوا عليه.

وقد تكلم القاضى عياض فى الشفا على هذه القصة، وتوهين أصلها بما يشفى ويكفى، لكن تعقب فى بعضه كما سيأتى - إن شاء الله تعالى.

وقال الإمام فخر الدين الرازى مما لخصته من تفسيره: هذه القصة باطلة موضوعة، لا يجوز القول بها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ④﴾ [النجم]. وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ⑥﴾ [الأعلى] وقال البيهقى: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم فى أن رواة هذه القصة طعونون[1]، أيضا فقد روى البخارى فى صحيحه، أنه - عليه السلام قرأ سورة والنجم، وسجد المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق، ولاشك أن من جوز على الرسل تعظيم الأوثان، فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة، أن أعظم سعيه كان فى نفى الأوثان، ولو جوزنا ذلك، ارتفع الأمان عن شرعه، وجوزنا فى كل واحد من الأحكام والشرائع، أن يكون (ذلك) ويبطل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ... ⑥⑦﴾ [المائدة]، فإنه لا فرق - فى العقل - بين النقصان فى الوحى، وبين الزيادة فيه. فبهذه الوجوه، عرفنا - على سبيل الإجمال - أن هذه القصة موضوعة، وقد قيل إن هذه القصة من وضع الزنادقة لا أصل لها - انتهى.

وليس كذلك، بل لها أصل، فقد خرجها ابن أبى حاتم، والطبرى، وابن المنذر، من طرق، وكذا ابن مردويه، والبزار، وابن إسحاق فى السيرة، وموسى بن عقبة فى المغازى، وأبو معشر فى السيرة، كما نبه عليه الحافظ عماد الدين بن كثير وغيره، ولكن قال إن طرقها كلها مرسلة، وأنه لم يرها مسندة من وجه صحيح، وهذا متعقب بما سيأتى، وكذا نبه على ثبوت أصلها

---

(١) أى مطعون فيهم.

شيخ الإسلام الحافظ، أبو الفضل العسقلانى فقال: أخرج ابن أبى حاتم، والطبرى، وابن المنذر، من طرق عن شعبة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قرأ رسول الله - ﷺ بمكة ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فلما بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ - ألقى الشيطان على لسانه - تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ... ﴿٥٢﴾﴾ [الحج] - الآية، وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة فقال فى إسناده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب، ثم ساق الحديث.

قال البزار: لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد، وتفرد بوصله أمية بن خالد - وهو ثقة مشهور، وقال: إنما يروى هذا من طريق الكلبى، عن أبى صالح عن ابن عباس - انتهى. والكلبى متروك لا يعتمد عليه.

وكذا أخرجه النحاس آخر، فيه الواقدى، وكذا ابن إسحاق فى السيرة - مطولة وأسندها عن محمد بن كعب القرظى، وكذلك موسى بن عقبة فى المغازى عن ابن شهاب الزهرى، وكذا أبو معشر فى السيرة له عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس، وأورده عن طريقه الطبرى، وأورده، ابن أبى حاتم من طريق أسباط عن السدى، ورواه ابن مردويه من طريق (عباد) بن صهيب، عن يحيى بن كثير، عن الكلبى، عن أبى صالح عن أبى بكر الهذلى، وأيوب عن عكرمة، وسليمان التميمى، عمن حدثه، ثلاثتهم، عن ابن عباس، وأوردها الطرى أيضا من طريق العوفى، عن ابن عباس - رضى الله عنهما، ومعناهم فى ذلك كله واحد، وكلها سوى من طريق سعيد بن

جبير، إما ضعيف وإما منقطع، لكن كثرة الطرق تدل على (أن) للقصة أصلا، مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيح: أحدهما ما أخرجه الطبرى من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب. حدثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه، والثانى ما أخرجه أيضا من طريق المعتمر بن سليمان، وحماد بن سلمة، عن داوود بن أبى هند، عن أبى العالية

قال الحافظ ابن حجر وقد تجرأ ابن العربى كعادته فقال ذكر الطبرى فى ذلك روايات كثيرة لا أصل لها، وهو إطلاق مردود عليه، وكذا قول القاضى عياض هذا الحديث لم يخرجه أهل الصحيح، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع أسانيده، وكذا قوله: ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين، لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم ضعيفة واهية. قال: وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوزه ذكره، إلا طريق أبى بشر عن سعيد بن جبير - مع الشك الذى وقع فى أصله، وأما الكلبى فلا تجوز الرواية عنه - لقوة ضعفه، ثم رده من طريق النظر، فإن ذلك لو وقع، لارتد كثير ممن أسلم، قال: ولم يرو ذلك - انتهى.

وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد، فإن الطريق إذا كثرت وتباينت مخارجها، دل ذلك على أن لها أصلا، وقد ذكرنا أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهى مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض، وإذا تقرر ذلك، تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر - وهو قوله: ألقى الشيطان على لسانه - تلك الغرانيق العلى، وإن

شفاعتـهن لترتجى، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يسـتحيل عليه ﷺ - أن يزيد فى القرآن عـمدا ما ليس فيـه، وكذا سهوا إذا كان مـغايرا لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته، وقد سلك العلماء فى ذلك مسالك، فقيل جرى ذلك على لسانه حين أصابته سنة وهو لا يشعر، فلما علم بذلك أحكم الله آياته، وهذا أخـرجـه الطبرى عن قـتـادة، ورده القاضـى عيـاض بأنه لا يصح، لكونه لا يجوز على النبـى - ﷺ ذلك، ولا ولاية للشيطان عليه فى النوم، وقيه، أن الشيطان ألجأه إلى أن قال ذلك بعد اختياره، ورده ابن العربى بقوله تعالى - حكاية عن الشيطان: ﴿... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ... ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم] قـال: فلو كان للشـيطان قـوة على ذلك، لما بقى لأحد قـوة على طاعة. وقيل إن المشـركين كانوا إذا ذكر آلهتهم وصـفوهم بذلك، فعلق ذلك بحفظه - ﷺ، فجرى على لسانه لما ذكـرهم - سهوا. وقد رد ذلك القاضى عياض فأجاد وقيل: لعله قال ذلك توبيخا للكفار. قال القاضى عياض: وهذا جائز إذا كانت قرينة هناك تدل على المراد، ولا سيما وقد كان الكلام فى ذلك الوقت فى الصـلاة جائزا، وإلى هذا نحـا الباقلانى. وقـيل أنه لما وصل إلى قوله - ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم]، خـشى المشركون أن يأتـى بعدها بشىء يذم آلهتهم فبادروا إلى ذلك الكلام فخلطوه بتلاوة النبى - ﷺ - على عادتهم فى قولهـم: ﴿... لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ... ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]، ونسب ذلك للشـيـطان لكونه الحـامل لهم على ذلـك، أو المراد بالشـيطان: شيطان الإنس. وقـيل المراد بالغرانيق العلى: الملائكة، وكان الكفـار يقولون: الملائكة بنات الله ويعبدونها فيسق ذكر الكل ليرد عليهم بقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم]. فلما سـمعه المشركـون، حملوه على الجمـيع، وقالوا: عظم آلهتنا ورضـوا بذلك، فنسخ الله تينك الكلمتـين، وأحكم آياته، وقيل:

كان النبى ﷺ يرتل القــرآن، فلما ترصده الشيــطان فى سكتة من السكنات، ونطق بتلك الكلمات - محاكيه نغمة النبى - ﷺ، بحيث يسمعه من دنا إليه فظنها من قوله وأشاعهــا، قال: وهذا أحسن الوجوه. ويؤيده ما ورد عن ابن عبــاس من تفسير تمنــى بتلا، وكذا استــحسن ابن العربى هذا التــأويل وقال: معنى قوله فى أمــنيته - فى تلاوته، فأخبــر الله تعالى فى هذه الآية، أن سنة الله فى رسله إذا قالوا قولا زاد الشيطان فيــه من قبل نفسه، فهذا نص فى أن الشيطان زاد فى قول النبى - ﷺ، قال وقد سبق إلى ذلك الطبرى مع جلالة قدره وسعة علمه، وشدة ساعده فى النظر، فصوب على هذا المعنى - انتهى.

هذا مــا أمكن نقله من كــلام صــاحب المواهب اللدنــية - رحــمــه الله تعالى، وقد وقفــت بتلمسان على تأليف عجيب فى المسألة - للــشيخ العلامة سيدى محمد بن العباس التلمــسانى، ورأيته عند أحفاده بخطه، وقد سماه بـ "العــروة الوثقى، فى تنزيه الأنبــياء - عليــهم الصــلاة والسلام - عن فــرية الإلقا»، وسماه باسم آخر على سبيل التخيير، نسيته الآن لطول العهد.

رجع: وأنا أروى كتاب الشفا عن شيخنا الإمام، المؤلف الكبير الحافظ، سيدى أحمــد، الشهير ببابا التنبكتى - حفظه الله بحــق سماعه له: عن والده من لفظه، وأجاز فيه بحق روايته له عن أمــين الدين الميمونى بمكة، عن شيخ الإسلام زكريا الأنصــارى بسنده العالى جدا إلى عياض - رحــمه الله تعالى، وأرويه بأعلى من هذا - عن مولانا العم، الإمام شيخ الإسلام، مفتى الأنام، سيدى سعيد بن أحمد المقرى التلمسانى - رحمه الله تعالى، عن شيخه الإمام الحافظ العلامة، أبى زيد سـيدى عبد الرحن سقين العاصــمى، عن الشيخين

القلقشندى، وشيخ الإسلام: زكريا، عن ابن الفرات، عن الدلاصى، عن ابن تامتيت، عن ابن الصائغ، عن عياض.

قلت: ابن تامتيت: هو أبو العباس: أحمد بن محمد بن الحسين بن على بن تامتيت اللواتى الفاسى، عده ابن عبد الحق التلمسانى، فيمن روى عن أبى الحسين يحيى بن محمد بن على بن يوسف بن خلف بن يحيى الأنصارى السبتى، وذكر معه الشارمى وابن قطرال وأبا الخطاب بن خليل وأبا زيده بن أبى عمران التليدى، وأبا العباس العزفى، والقفال، وابن عبد المؤمن، وأما ابن الصائغ، فكان مختصا بشيخ الشيوخ ولى الله: سيدى أبى يعزى يلنور أفاض الله علينا من أنواره، وقضى لنا بجاهه ما يؤمله العقل من أطهاره، وقد أسند عنه العزفى، وأبو يعقوب التادلى - جملة من كرامات سيدى أبى يعزى - رضى الله عنهم - أجمعين ونفعنا ببركاتهم.

وأما الدلاصى: فهو شيخ الحديث والقراءات، عفيف الدين، أبو محمد عبد الله بن عبد الحق بن عبد الأحد بن على القرشى المخزومى الشافعى الدلاصى أصلا المكى دارا ووفاة - سنة واحد وعشرين وسبعمائة، ومولده فى أول رجب سنة ثلاثين وستمائة.

وأروى أيضا كتاب الشفاء، عن مولانا العم المذكور، عن شيخه الإمام سيدى أبى عبد الله، التنسى، عن والده شيخ الإسلام الحافظ سيدى محمد ابن عبد الله بن عبد الجليل التنسى الأموى عن شيخه الإمام الشهير الكبير، علم الأعلام، وشيخ الإسلام، سيدى أبى عبد الله بن مرزوق عن جده خطيب الخطباء، الرئيس الشهير أبى عبد الله محمد بن مرزوق قال: رأيت

عياضا فى المنام، فناولنى كتابه الشفاء، قال: وإن لم يعتد على مثل هذا فى التحديث، فإن كثيرا من العلماء بالحديث يذكرونه للتبرك - والله أعلم.

وقال الشيخ العلامة: سيدى محمد بن سيدى الحسن ابن مخلوف لما ذكر مثل هذا عن الخطيب بن مرزوق، وأسنده إليه - أن هذا استملاح.

وبنو مرزوق هؤلاء لهم رئاسة فى العلم بتلمسان، توارثوها سلفا عن خلف، ولولا الخروج إلى الطول المفرط، لذكرت بعض مآثرهم، على أنها أشهر من نار على علم، ولهم على جدنا أحمد ولادة، فإن أم جدى أحمد المذكور، بنت الفقيه العلامة، سيدى محمد بن مرزوق، المعروف بالكفيف، وهو أحد شيوخ ابن غازى بالإجازة، وولد الكفيف المذكور، هو شيخ الإسلام أبو عبد الله بن مرزوق، شارح البردة والمختصر، وصاحب التآليف الشهيرة، وأشهر أسلافنا القاضى بفاس: سيدى أبو عبد الله المقرى - رحمه الله - هو خال أبيه - حسبما ذكر هو ذلك في بعض أجوبته، وهو مذكور أوائل نوازل الفكاك فى المعيار، وقد أخبرنى بهذا كله مولانا العم سيدى سعيد ابن أحمد المقرى - رحمه الله.

وحدثنى أيضا بكتاب الشفا، عن شيخه المفتى سيدى على بن هارون، عن شيخه الإمام سيدى محمد بن غازى، بسنده المذكور فى فهرسته، ولنا فيه أسانيد أخرى، وفيما ذكرناه كفاية - والله ولى التوفيق.

وقد قرأ كتاب الشفاء على مؤلفه من لا يحصى كثرة من الأعلام، وهو ستة أجزاء. ومن تآليف عياض - رحمه الله: كتاب مشارق الأنوار على صحيح الآثار - ستة أجزاء. ضخمة، وهو من أجل الدواوين وأنفعها.

ويقال إن القاضى أبا الفضل توفى - ولم يخرجها من مبيضاتها، فخرجها بعده الحافظ المحدث، أبو عبد الله، محمد بن سعيد الطراز، وفى المشارق، يقول الإمام، أبو عمرو بن الصلاح الشهرزورى، صاحب كتاب علوم الحديث، وكان يعجب بالمشارق وكلما طالعها أنشد:

مشارق أنوار تجلت بسبتة وذا عجب كون المشارق بالغرب

وقد ذيل هذا البيت جماعة منهم: القاضى المؤرخ أبو عبد الله محمد ابن عبد الملك الكراكشى رحمه الله إذ يقول:

تنادى بأنوار المشارق نخوة بمطلعها فى الغرب يا شرق غربى

ومنهم الخطيب أبو عبد الله بن رشيد الفهرى، إذ يقول:

ومرعى خصيب فى جديب ربوعها

ألا فاعجبوا للخصب فى منزل جدب

ومنهم الشريف نور الدين أبو الحسن على بن جابر الحسينى الهاشمى، شيخ دار الحديث المنصورية، قال ابن جابر: وأنشدنيها:

مشارق أنوار طلعن بغرب

أنرن جميع الشرق بالطالع الغرب

بدا نوره فى الكون قد لاح هاديا

رياض عياض نزهة العين والقلب

ونظم عقد الدين فيه فأصبحت

محاسنه تجلى على العالم الندب

فلله ما أبدى عياض فأشرقت

مشارقه فى كل قطر بلا غرب

فقل لذوى علم الحديث تنوروا

مشارق أنوار تروا ما ورا الحجب

قلت: وأخبرنى مولانا العم الإمام - رضى الله عنه، إن بعضهم أجاب ابن الصلاح بقوله:

فما فضل الأرجاء إلا رجالها وإلا فلا فضل لترب على ترب

انتهى.

وأنشدنى بمحروسة فاس لنفسه، الفقيه الأصيل الأديب الناظم، الناثر، سيدى على بن أحمد الشامى - حفظه الله وجوده.

لقد شهدت حقا جميع المهارق

بما حاز من فضل كتاب المشارق

وإن هو منها فى العلا وشى معصم

وحلية أنوار وتاج المفارق

ونخبة أبرار وتحفة قادم

ونزهة أبصار وأنس المفارق

وأنشدنى لنفسه أيضا - حرس الله علاءه:

جزى الله عنا كل خير ومنة

عياضا بما أبدى لنا من مشارق

به أشـرقت شـمس الغـريب بغـربنا

فـدانت لـه تعنو شـمـوس المشـارق

وله أيضا - حفظه الله:

عيـاض لك الخيـرات أطلعت للورى

مـشـارق أنوار الهـدى بالمغـارب

فـجـد لى بنور من سـناك يحـوطنى

فأغدو وحـبلى فى الدجى فوق غاربى

ومن تآليف القاضـى عياض - رحـمه الله - «إكمـال المعلم، فى شرح مسلم» - تسعة وعـشرون جزءا. قال ابن جابر: وفيه يـقول شيخنا أبو الحكم مالك بن المرحل، وأجازنيه رحمه الله تبارك وتعالى:

من قـرأ الإكـمـال كـان كـامـلا فى علـمـه فـزين المحـافـلا

وكـتب العـلم كـنوز إنهـا تفـيـد قلبـا عـاجـلا وآجـلا

وليس من كـتب عـياض عـوض فـإنه كـان إمـامـا فـاضـلا

ومن تواليـفـه - رحمـه الله - «كـتاب المستنبطة، فى شـرح كلمـات مشكلة، وألفاظ مغلظة، مما وقع فى كتاب المدونة والمختلطة» - عشرة أجزاء، ولم يؤلف فى فنه مـثله، وقد غلـب على تسمـيتـه ببلاد إفـريقيـة وغيـرها «التنبيهات».

قال أبو عبد الله بن أحمد بن حيـان، أنشدنى شيخنا الأعدل، أبو عبد الله محمـد بن على التوزرى ابن المصرى لنفسـه مما كتبه - رحـمة الله تعالى عليه:

كـأنى مـذ وافى كـتـاب عـيـاض   أنزه طـرفى فى مـــــريـع رياض
فــأجنى به الأزهار يـانعـــة الجنا   وأكـرع مـنه فى لذيذ (حـــيـاض

ومن تآليفه - رحمه الله: كتاب «الإلماع فى ضبط الرواية وتقييد السماع» - سفر. وفيه يقـول الشيخ، أبو عبد الله محمد بن حـيان - رحمه الله. قال ابن جابر: ونقلته من خطه:

يا طالبــا علم الحـديث وحـــمله   لجـمـيـع مـا يـروى من الأنواع
تبـين ذلك كله لـعـــيــــاض فى   تألـيــفــــه الموصـــوف بـالإلماع
الله يرحـــمــــه ويجــزل أجـــره   فلـقـــد أتى فـى غـــايـة الإبداع
جـــمع الرواية والدراية مــتـــقنا   بالضـــبط بالأبصار والأســــماع
أنسى وأستـاذى وغـايـة بغـيـتى   ومـذكـرى فى الخلف والإجـمـاع

ومن تآليفه رحمه الله: كتاب «الغنيـة» فى أسماء شيوخه، ووقفت عليه بتلمسان، وهنالك تركت نسختى منه، ولم أقف عليه الآن بفاس، بعد طول البحث عنه، وفى مدحه أقول:

غنيـة القـاضى عـيـاض   غنيـــة عـــمـــا ســـواها
حلة مـــوشــيـــة بل   روضــــة طاب جنـاها
جـــمـعت أعــلام علم   قـدرهم مـا إن يضـاهى
وحكت أخـبـار قـــوم   عنـهم الـعــــدل رواها
وكـــفـــاها بابن رشــد   شـــرفـــا زاد سنـاها
كم بهـــا مــن مـــعلوات   مـبــــهـجـــات من رآها
فـــعليـــه وعليـــهم   رحــــمـــة لا تتنـاهى

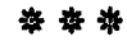
ومن تآليفه - رحمه الله: «ترتيب المدارك، وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذاهب مالك» - خمسة أسفار. ولم يسمعه مؤلفه، وهو غريب لم يسبق إليه.

ومن تآليفه رحمه الله: «الإعلام بحدود قواعد الإسلام». ومنها كتاب «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» سفر. وكتاب خطبه - سفر، وقال ابن خاتمة: إنه اشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمعات: وكتاب المعجم فى شيوخ الصدفى - رحمه الله، ومنها كتاب «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان». قال ابن خاتمة: أنه فى سفرين، وقال ابن جابر الوادى آشى، وابن الخطيب: إنه لم يكمله. ورأيت فى نسخة من الشفا - بخط العلامة عبد الرحمن بن القصير الغرناطى المذكور آنفا - ما نصه: قال كاتبه: نسخت هذا السفر من كتاب على ظهره مكتوب بخط مؤلفه القاضى عياض - رحمه الله - ما نصه: يقول عياض بن موسى بن عياض اليحصبى: حضر قراءة جميعه على - الفقيه النبيه، أبو محمد عبد المنعم ابن الفقيه الأجل، الأستاذ الخير أبى بكر يحيى بن خلف بن النفيس الحميرى وأجزته له، وأذنت له فى الحديث به عنى، وبجميع رواياتى ومسموعاتى ومجموعاتى، وكذلك أجزت جميع ذلك لأخيه عبد المولى - كلا الله جميعهم، وأنبتهم نباتا حسنا، وكذلك أذنت لأبيهما الفقيه الأجل المذكور فيما رغب فيه من حمل مجموعاتى، وأجزت له جميعها، من ذلك كتابى هذا، وكتاب ترتيب المدارك، وتقريب المسالك، لمعرفة أعيان مالك، وكتاب «بغية الرائد، لما تضمن حديث أم زرع من الفوائد». وكتاب «مشارق الأنوار، على مبهم صحائح الآثار» و«كتاب المقاصد الحسان، فيما يلزم الإنسان»، وكتاب

«الإعلام، بحدود قواعد الإسلام»، وغـير ذلك، وكتب فى تاريخ سبع محرم سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة - انتهى.

قال عـبد الرحمن المذكـور: وكتبت نسـختى هذه فى العـشر الوسط، والعشـر الغوابر من شهر رمـضان المعظم، سنة تسع وخمـسين وخمسـمائة، وكتبه لنفـسه بخطه عبد الرحمن بن أحمـد الأزدى - نفعه الله بطلب العلم، وختم له بخير بمنه - انتهى.

ومن تآليف القاضى أبى الفضل التى تـركها فى المبيضة، كـتاب «مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور» - جزء. كـتاب «نظم البرهان» على صحة جزم الآذان - جزء



انتهى الجزء الرابع

أهم مراجع التحقيق

- الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب، طبعة الخانجى، القاهرة ٢٠٠١م.

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض، بيروت، ٢٠٠٠م.

- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لابن خاقان، طبعة الأردن ١٩٨٩م.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّرى، بيروت ١٩٦٨م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
أدعية له	٦٨
من كلامه	٦٨
من أذكاره	٦٨
ترجمة أبى إسحاق البلفيقى	٦٩
من نظم أبى إسحاق	٨٣
صلاة للشيخ عبد القادر الجيلانى	٨٥
صلوات أخرى	٨٩
صلاة للشيخ عبد العزيز المهدوى	٨٩
صلوات للشيخ نور الدين الشونى	٩٤
صلوات خمس لبعض الأكابر	٩٦
صلوات لبعض العارفين	١١٣
صيغ فى الصلاة على الرسول لأبى عبد الله البكرى	١١٩
تعليق المؤلف على ذلك	١٢٢
قصيدة للبكرى - وهى مما يتوسل به لقضاء الحوائج	١٢٢
ما كتب به البكرى إلى قاضى مكة	١٢٤
من نظم البكرى يخاطب سلطان المغرب (الغالب بالله)	١٢٦
بين البكرى والسلطان أبى العباس السعدى	١٢٦
ديوان شعر للبكرى وتنويه المؤلف به	١٢٧
صلاة الشيخ على بن وفا	١٢٧
رجع إلى نثر عياض	١٢٩
بعض خطب عياض	١٢٩

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المكتبة المالكية

أزهار الرياض في أخبار عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

(ت: ١٠٤١هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور علي عمر

الجزء الرابع

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية



الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١

فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر

E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com